التيسير في أحاديث التفسير

من إملاء

سماحة الشيخ محمد المكي الناصري

الجزء السادس

دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار الغرب الإسلامي
ص. ب: ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

التيسير
في
أحاديث التفسير

الربع الأول من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾
مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ
وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾
قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا
خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن
دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ
كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾
وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾
أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيٰهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ
لِي مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ
شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾
قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ
بِي وَلَا بِكُمُۥٓ إِنَ اَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَاْ إِلَّا
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَيْتُمُۥٓ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم
بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ
وَاسْتَكْبَرْتُمُۥٓ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا
إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ
قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً
وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ
وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ
اسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ
كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ
أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ
عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ
إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ
أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ
ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ
أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ
ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ
مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ
دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾
وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ
ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

الربع الأول من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديثنا هذا اليوم هو تفسير الربع الأول من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته فاتحة سورة الأحقاف المكية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، حمٓ . تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ، مَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، ونهايته قوله جلّ علاه: ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾.

في مطلع هذا الربع ينوّه كتاب الله بتنزيل القرآن العظيم، وكونه متضمناً لحُكْم الله ﴿ الْعَزِيزِ ﴾، ولحِكْمة الله ﴿ الْحَكِيمِ ﴾. ويتحدث مرة أخرى عن مبدأ «الحق» الذي قامت عليه السماوات والأرض وما بينهما، فما من شيء في أجواء السماء، وما من شيء في أرجاء الأرض، إلّا وهو يَنْطِقُ بالإبداع والنظام والتنسيق، ويُفصِح عن التناسب والتوازن والتقدير الإلّهي الدقيق، ويشير كتاب الله إلى أن خلق السماوات والأرض وما بينهما لم يكن عَبَثاً، ولا لعباً، ولا باطلاً، بل له حكمة يرمى إليها، وغاية ينتهي

عندها، وأَجَلٌ مضروب لَهُما محدود في علم الله لا يـزيد ولا ينقص، متـى تحققت الحكمة الإلَهية من خلقهما، ومتى استنفدَ النوعُ البشري جميع الطاقـات والمؤهلات التي رشحتـه لعمارة الأرض والخلافة فيها عن الله، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ حمٓ تَنزِيلُ الْكِتَـٰبِ مِنَ اَللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ مَا خَلَقْنَا اَلسَّمَـٰوَاتِ وَالاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى مواجهة المشركين بأسئلته المُفحِمة، وحججه البالغة، مُندِّداً بما يعتقدونه من الشرك بالله، مستفسراً لهم هل عندهم حجة على أن المعبودات التي يعبدونها شاركت الحق تبارك وتعالى في خلق الأرض أو في خلق السماوات في قليل أو كثير، حتى يعبُدُوها معه، أو يعبدوها من دونه؟ هل هناك كتاب سابق على القرآن من عند الله يستند إليه المشركون في إثبات شركهم؟ هل هناك دليل بَيِّنٌ أو علم قاطع انفرد به المشركون وحدهم، حتى آثروا الشرك على التوحيد؟ وواضح أن هذه الأسئلة القرآنية لا يمكن للمشركين الجواب عنها بأي جواب مفيد، اللهمّ إلّا مجرد العناد والتقليد. يضاف إلى ذلك أن هذه المعبودات التي يعبدها المشركون لا تستجيب لدعواتهم، ولا تحس بعباداتهم، إذ أنها عبارة عن جمادات أو أموات، لا تنفع في الدنيا ولا تشفع في الآخرة، فما الفائدة إذَن من دعائها وعبادتها؟ وإلى هذا الموضوع يشير قوله تعالى: ﴿ قُلَ اَرَآيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اِللَّهِ مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الاَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي اِلسَّمَـٰوَاتِ اِيتُونِي بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوَ اَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ اِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ وَمَنَ اَضَلُّ مِمَّنْ يَّدْعُواْ

مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾. قال القاضي أبو بكر «ابن العربي» المعافري في كتابه «أحكام القرآن» عند تفسير هذه الآية ما نصه: «المسألة الأولى في مَسَاق الآية، وهي أشرف آية في القرآن، فإنها استوفت أدلة الشرع عقليَّها وسَمْعِيَّها، لقوله تعالى: ﴿ قُلَ اَرَآيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَـٰوَاتِ ﴾، فهذا بيان لأدلة العقل المتعلقة بالتوحيد وحدوث العالم، وانفراد البارىء بالقدرة والعلم والوجود والخلق. ثم قال: ﴿ اِيتُونِي بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ ﴾، أي بكتاب شاهد على ما تقولون؟ وهذا بيان لأدلة السمع، فإن مُدْرَكَ الحق إنما يكون بدليل العقل أو بدليل الشرع حسبما بيناه في مراتب الأدلة في كتب الأصول، ثم قال: ﴿ أَوَ اَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾، يعني أو علم يُؤثَر، أي يُروَى ويُنقَل، وإن لم يكن مكتوباً، فإن المنقول عن الحفظ مثل المنقول عن الكتب».

ثم تتحدث الآيات الكريمة من جديد عن موقف المشركين من الوحي والرسالة، وقد كان الوحي والرسالة هما محور الصراع القائم بين الجاهلية والإسلام، فها هو كتاب الله يُرَدِّد صَدَى اتهامات المشركين وادعاءاتهم من أن آيات القرآن البينات إنما هي سحر مبين، وها هو يسجل ما هم عليه من التساؤل والتشكك في طبيعة القرآن، هل هو صدق من عند الله، أم افتراء من صنع الإنسان، وها هو كتاب الله يبطل ادعاءاتهم، ويَرُدُّ اتهاماتهم، مُبيناً

أن الرسول عليه الصلاة والسلام ليس بِدْعاً من الرسل، بحيث لم يسبقه سابق، أو يُعَدُّ أمرُه مفاجئاً للناس، بل هو خاتِم الأنبياء والرسل جميعاً، وسلسلةُ الرسل أَمرُها ثابت تاريخيّاً، ومعروف واقعيّاً، وخَبرُ الكتب المنزلة من عند الله شائع بين كافة البشر، يعرفه المومنون وغير المومنين، وإذن فلا مجال لاستغراب الوحي الذي أنزله الله على رسوله، فقد أَنزله على رسله السابقين، ولا موجب لاستغراب الرسالة التي كلفه الله بتبليغها للناس، فقد كلف غيره من الرسل بتبليغ رسالته منذ قرون، فالوحي والرسالة إذن ظاهرتان طبيعيتان روحيتان أثبتهما التاريخ، وسجلهما واقع الحياة الاجتماعية، إلى جانب الظواهر الطبيعية الأخرى ولا مجال لإنكار وجودهما، أو طمس معالمهما.

ونبّه كتاب الله إلى العلاقة الوثيقة والرابطة الروحية بين الكتاب الذي أنزله الله على موسى الكَلِيم عليه السلام، والكتاب الذي أنزله الله على نبيه محمد الأمين عليه السلام، وأن القرآن العظيم جاء مُصَدِّقاً للكتاب الذي أنزل على موسى، كما جاء مصدقاً لبقية الكتب المنزلة، فكتُبُ الله يُصدِّق بَعضُها بعضاً، ورسله يتلقون الوحي جميعاً من منبع واحد هو الواحد الأحد. وذلك قوله تعالى في هذا الربع: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ اَلذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ اَمْ يَقُولُونَ اَفْتَرَيٰهُ قُلِ اِنِ اِفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اَللَّهِ شَيْئاً، هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ، كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِّنَ اَلرُّسُلِ﴾، ﴿إِنَ اَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَآ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾،

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَـٰبُ مُوسَىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً. وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَـرَبِيّاً لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾، ويتصل بهذا الموضوع قوله تعالى في سورة الفرقان حكايةً عن شبهات المشركين والجواب عنها: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، قُلَ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ ﴾ (الفرقان: ٥، ٦).

وفي نفس هذا السياق عَرَّج كتاب الله على وصف شيء من أقوال المشركين ودعاويهم في تبرير ما هُم عليه من تمسك بالشرك، وتعلق بالوثنية، فنبه إلى أن رَدَّ الفعل الذي أَحدثه إقبال المستضعفين في مكة، من الفقراء والعبيد والإماء، على الإيمان بالله ورسوله في فجر الإسلام، هو إثارةُ غضب المشركين المتكبرين، وإثارة سخريتهم، ودَفعُهم إلى الوقوف من رسول الله ومن كتاب الله موقف الاستعلاء والاستكبار، وموقف العناد والمعارضة، لأنهم أحسوا بالخطر الكامن وراء ما مَهَّدَ له الإسلام من تحرير المستضعفين في الأرض، وما يستتبعه ذلك التحرير الذي سيتم على يديه، من تغيير جذري في الأوضاع الاِجتماعية والسياسية والاِقتصادية لجزيرة العرب وللعالم أَجمع، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى التوصية بالإحسان لِلأمهات والآباء، قضاء لحقوق الوالدين، وبروراً بهما، ولا سيما الأمهات القائمات بحق الأمومة خير قيام، إذ يتحمّلن من المتاعب، ويبذُلن من

التضحيات، أثناء الوَحَم والحمل، وأثناء الوضع والرضاع، وفي جميع مراحل الطفولة من أجل تربية الأولاد وتهذيبهم، وطبعهم بالطابع الاجتماعي السليم، ما لا يتحمله غيرُهم من الناس، وكلٌّ ذلك بمنتهى التفاني والإخلاص، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا اَلانسَـٰنَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَـرْهاً وَوَضَعَتْـهُ كَرْهـاً وَحَمْلُهُ وَفِصَـٰلُهُ ثَلَـٰثُونَ شَهْراً ﴾.

وقوله تعـالى هنا: ﴿ وَوَصَّيْنَـا اَلانسَـٰنَ ﴾، إشارةٌ إلى أن الإحسان إلى الوالدين من مقتضيات «الإنسانية المجردة»، بحيث لا يكون الإنسان إنساناً، ولا يُثبِت إنسانيَّته بطريقة عملية، أيّاً كان دينُه أو مُعْتقدُه، إلاّ إذا أحسن إلى والديه، بروراً بهما، وأداءً لحقهما.

وقوله تعالى هنا: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهاً وَوَضَعَتْـهُ كَرْهـاً ﴾، إشارةٌ إلى أن الأم عندما يأذن الله لها بأن تحمل، أو يأذن لها بأن تضع الحمل، إنما هي منفذةٌ لأمر الله الموكـول إليها تنفيـذُه، وقائمةٌ بتحقيق مراد الله في عمارة الأرض، واستمرار حياة الإنسان القصيرة على سطحها، لا اختيارَ لها في حمل ولا في وضع، وإنما هي تحت حكم القدرة الإلٓهية المُسخِّرة للكون كله، وَلَيْسَ المراد أن الأم تَكرَه الحمل وتَكرَه الوضع، ولا ترغب فيهما، فقد زرع الله في «الأنثى» على العموم محبة النسل والولد، رغماً عن جميـع التضحيات والمتـاعب والمشاق التي تتحملهـا في هـذا السبيل.

وقوله تعالى: ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَـٰلُهُ ثَلَـٰثُونَ شَهْراً ﴾، إشارةٌ إلى

أقل مدة يمكن أن يقع فيها الحمل وهي ستةُ أشهر، وإلى أطول مدة يمكن أن يتم فيها الرضاع وهي أربعة وعشرون شهراً.

ومن وصية الله للإنسان بالإحسان إلى الوالدين انتقل كتاب الله إلى وصفِ نَموذجين من نماذج الأولاد التي يواجهها الآباء والأمهات في حياتهم باستمرار:

الأول: نموذج الولد البارّ المهتدي الذي يَمْتَثِلُ وصية الله بالإحسان إلى والديه، ويقوم بها حق القيام، وهذا له الجزاء الحَسَن عند الله.

والثاني: نموذج الولد العاقِّ الضال، الذي يُهمل وصية الله، فيعامل والديه بالإساءة والتأفُّف دون أيِّ اعتبار، وجزاؤه الخُسْرَان والهَوان في الدنيا والآخرة.

وإلى النموذج الأول وهو الولد البار المهتدى يشير قوله تعالى: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىَ ﴾، أي: ألهمني، ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحاً تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِىٓ ﴾، وإلى ما ادَّخره الله له من الجزاء الحسن يشير قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ يُتَقَبَّلُ عَنْهُمُ أَحْسَنُ مَا عَمِلُواْ وَيُتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾.

وإلى النموذج الثاني وهو الولد العَاقُّ الضال يشير قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ ﴾، أي: أبعث، ﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى ﴾، أي: مضى

الأموات من قبلي ولم يرجع منهم أحد، ﴿ وَهُمَا ﴾، أي: وَالِدَاه، ﴿ يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنِ اِنَّ وَعْدَ اَللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ ﴾، أي: الولد العاق الضال، ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الاَوَّلِينَ ﴾، وإلى ما أعده الله له من العذاب والنكال يشير قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ اَلذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾، أي: حق عليهم العذاب، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَٰسِرِينَ ﴾.

وعَقَّب كتابُ الله على نموذجِ الوَلَد البار المهتدى، ونموذج الولد العاق الضال فقال: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِنُوَفِّيَهُمُ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ
مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ
وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾
فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا
بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ
شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا تَرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنَهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ
وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ
سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟
يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾
فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ
بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾
وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ
فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم
مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ
بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ
طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟
بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾
وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ
مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ
ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ
بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾
وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ
قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ

وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟
إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ
مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن
رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا
مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ
لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قَٰتَلُوا۟ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾
وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ
يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ
أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾

الربع الثاني من الحزب الواحد والخمسين
في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثاني من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في سورة «الأحقاف» المكية: ﴿وَاذْكُرَ اَخَا عَادٍ إِذَ اَنـذَرَ قَـوْمَـهُ بِالاَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا اَللَّهَ﴾، إلى قوله تعالى في سورة «مُحَمَّدٍ» المدنيّة: ﴿وَالذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْـمَـٰلَهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ اَللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾.

في هذا الربع يوالي كتاب الله إِمْدَاد رسوله الأعظم عليه الصلاة والسلام بأخبار من سبقه من الرسل، وأخبار من سبق أمته من الأمم، وهو إذ يستعرض أمام رسوله هذه الأخبار يُثَبِّت قلب رسوله على الحق، كما يُثبِّت قَدَم رسوله في محاربة الباطل، وإذ يستعرضها أمام مشركي قريش يُنذرهم بعاقبة الإنكار والجحود، ويُحذِّرهم من الإصرار على معارضة الرسالـة الإلّهية التي هي خاتمة الرسالات، ومن الوقوف في وجهها، ويُذكِّرهم بالهـلاك والدَّمار الذي أصاب قوماً آخرين سبقوهم، وهم من نفس جنسهم ومن جيرانهم الأقربين.

وفي هذا السياق يتناول كتاب الله قصة هود عليه السلام وعَاداً وقومَه، فيَذكرُ نوع الدعوة الإلَهيـة التي دعا إليهـا جميعُ الأنبياء والرسل، وهي الدعوة إلى الإيمان بـالله واليوم الآخـر: ﴿ وَاذْكُرَ اَخَا عَادٍ اذَ اَنذَرَ قَوْمَهُ بِالاَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا اَللَّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، ثم يَحكِي كتابُ الله الرد الذي قابلت به عادٌ دعوة هود عليه السلام، وما يتضمنه هذا الرد من شك وتكذيب وعناد، وما احتوى عليه من التحدي لقدرة الله، رغماً عن أنه القاهر فوق عباده: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَافِكَنَا عَنَ آلِهَتِنَـا ﴾، أي: لِتَصُدَّنا عنها، ﴿ فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ اَلصَّـٰدِقِينَ ﴾، أي: فاتنا بالعذاب الذي تنذرنا به من عند الله.

ويتصدَّى هود عليه السلام لجواب قومه عادٍ جواباً خالياً من الادِّعاء والتطاول على الله: ﴿ قَالَ إِنَّمَا اَلْعِلْمُ عِندَ اَللَّـهِ ﴾، أي فهو سبحانه الذي يعلم متى يُـذيقكم العذاب، ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَّـآ أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَـٰكِنِّيَ أَرٰيكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾، أي: تُصرُّون على الجهل بوحدانية الله وقدرته، وتردون دعوة الله الموجَّهة إليكم رداً غير جميل.

ويمضي كتاب الله في وصف ما آل إليه أمر عاد في النهاية، إذ تعـرَّضُـوا لغضب الله، جـزاءَ عنـادهم وإصـرارهم وتحـديهم لقدرة الله، فقد نقلت الروايات أن عاداً أصابها الحَرّ الشـديد، وطـال عليها الجفـاف والجدب، واحتبس عنهـا المـطر، حتى أصبحت جميع الأنظار فيها متطلعة نحو السماء، تنتظرُ تصريف

الرياح وتسخير السُّحُب بالغَيث النافع، فلما رأوا السحاب مقبلاً على أوديتهم فرحوا واعتقدوا أنه سحاب غيث وإحياء، لا سحاب هلاك وإفناء: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾، ولكن الحق سبحانه وتعالى الذي ينجز وعده بالثواب لمن يستحقه، لا يُخلف وعيده بالعقاب لمن تحدى أمره وتحدى رسله، رغماً عن توالى الحجج والبينات، وها هو لسان القدرة يُعِيد على أسماعنا في كتاب الله نفس الجواب الحاسم، الذي تلقته عاد، أَشدَّ ما تكون خيبةَ أمل، وكأَنها تستمع إليه الآن: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اَسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ اَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾، ثم يصفُ كتاب الله مشهدَ الدمار والخراب الشامل، الذي حل بعاد فأصبحت أثراً بعد عين، ولم يبق من ذكرياتها إلّا مساكنها، لكنها خاليةٌ موحشة يَنعَقُ فيها البُوم: ﴿ فَأَصْبَحُواْ لَا تَرَىٰ إِلَّا مَسَـٰكِنَهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى اِلْقَوْمَ اَلْمُجْرِمِينَ ﴾.

ويتعرض كتاب الله في أعقاب هذا الحديث إلى ما كانت عليه عاد من الذكاء والقوة، لكنها لم تستعملهما في مرضاة الله، إذ لم تستجب إلى دعوته. فعاقبها وأخذها أخذاً وبيلاً: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَـٰراً وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ اِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِئَايَـٰتِ اِللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

وقولُه تعالى في بداية هذه القصة: ﴿ وَاذْكُرَ اَخَا عَادٍ ﴾، إشارةٌ إلى هود عليه السلام نفسِه، لكنّ كتاب الله ذكَره هنا بصفته

لا باسمه، تنبيهاً إلى رابطة الأخوة التي كانت تربطه بقومه، وتستوجب عطفه عليهم، وحرصه على هدايتهم.

وقولُه تعالى: ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾، إشارةٌ إلى موطن عاد في جنوب جزيرة العرب بين اليمن وعُمَان، وقد قامت دولة عاد الأولى في جنوب الجزيرة العربية قبل ميلاد المسيح بعشرين قرناً، وقبل الهجرة النبوية بسبعة وعشرين قرناً، و«الأَحْقَافُ» جمع «حِقْف» وهو الكَثِيب المرتفع، أو الجبل المستطيل من الرمال.

وقولُه تعالى: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾، إشارةٌ إلى أن الظواهر الكونية على اختلافها ـ والريح من جملتها ـ إنما هي كائنات مسخَّرة بأمر الله، لا تتحركُ إلّا وَفْق مراده، طبقاً لنواميس كونية معلومة، ولا تُنفِّذ إلّا خططاً إلّهية مرسومة.

ثم عَقَّب كتابُ الله على قصة عاد وما أصابها من الهلاك والدمار، بآية أخرى تُذكِّر مشركي قريش بما أصاب الأقوام الذين كانوا من حولهم عموماً، وما حل بديار أولئك الأقوام من العذاب الشديد، وما نالهم من الخيبة واليأس، عندما رأوا المعبودات التي كانوا يَدْعونها ويتقربون إليها بالقرابين عاجزةً كل العجز عن إغاثَتهم وإنقاذهم في وقت الشدة واليأس، وقد تخلت عنهم وتجاهلتهم، لأنها في الحقيقة لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾، أي: وَالَيْنا عليهم مختلف الآيات والقوارع،

واحدةً بعد واحدة، عسى أن تؤثر فيهم هذه الآية إن لم تنفع فيهم الأُخرى، ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً﴾، أي: فهل نصرتهم معبوداتهم عند احتياجهم إليها في وقت الشدة، ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

والإشارةُ في قوله تعالى هنا: ﴿مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾، إلى أقوام من العرب أيضاً يشاركون مشركي قريش في نفس الجنس والسلالة، وهم «عاد» بالأحقاف، و«سَبَأ» باليمن وكلاهما في جنوب الجزيرة العربية، وثمودُ ومدينُ في شمالها بين الحجاز والشام، ولوطُ التي يمر ببُحَيْرتها تُجّار قريش في رحلتهم إلى الشام، والمعنى المقصود من هذه الإشارة هو أن عاقبة الجحود والعناد واحدة بالنسبة للجميع، بالنسبة لغير العرب ولنفس العرب، وإذا كانت الآيات القرآنية تحدثت في مكان آخر من كتاب الله عن مصير فرعون وقومه في مصر البعيدة عن جزيرة العرب، فها هي تتحدث الآن عن مصارع أقوام من نفس العرب، قريبة من المشركين، بحيث يرون آثارها، ويشاهدون أَطلالها، ويرْوُون أخبارها، عسى أن تكون الموعظة بِمَن هُم من جنسهم، وحَوْلَ ديارهم، أوقعَ في النفس، وأعمق في التأثير.

وكما سجل كتابُ الله في سورة أخرى أن جميع المخلوقات تدين لله بالتسبيح والتنزيه، إلّا أن البشر لا يفهمون تسبيحها، إذ قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤)، تحدثت الآيات الكريمة في هذاالربع عن نفر من الجن هداهم الله للاستماع إلى القرآن،

فأنصتوا إليه خاشعين، ثم وَلَّوا إلى قومهم منذرين، محذِّرين إياهم من الضلال المبين، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾، ﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِ﴾، ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءُ أُوْلَـٰئِكَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنه: «ما قرأ رسولُ الله ﷺ على الجن ولا رآهم، فلما سمعوا القرآن وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر استمعوا له»، وقال الحسن البصري: «أنه ﷺ ما شَعَر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه خبرهم».

ويتصل بهذا الموضوع قولُه تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ (الجنّ: ١)، وفيه دليل على أنه ﷺ آنما عَرف قول الجن، عن طريق الوحي الذي أُنزل عليه، كما رواه البخاري ومسلم.

ثم اتجه الخطاب الإلّهي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام آمراً له بالثبات على الحق، والصبر إلى النهاية على تكاليف الدعوة ومتاعبها، ومسؤولياتها وأخطارها، ضارباً له المثل بصبر «أولي العزم» من الرسل، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ليكون خامسهم وخاتمهم، وقد ورد ذكر أسمائهم جميعاً في آيتين من سورة الأحزاب وسورة الشورى، ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾.

والآن ونحن ننتهي من سورة «الأحقاف» المكيـة تستقبلنا

سورة مدنية لا مكية، يطلق عليها «سورة محمد» لـذكر اسمه الشريف فيها، كما يطلق عليها «سورة القتـال»، لأنها تضمنت الإذن للرسـول وصحبه بـالجهـاد في سبيـل الله، ردّاً لِعـدوان المشركين، وحمايةً لِحمَى المومنين، ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ﴾ (محمد: ٢٠)، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾، ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم

أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي اِ۬لَارْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ اُ۬لذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
دَمَّرَ اَ۬للَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا (١٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اَ۬للَّهَ مَوْلَى اَ۬لذِينَ ءَامَنُواْ
وَأَنَّ اَ۬لْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ اَ۬للَّهَ يُدْخِلُ اُ۬لذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
اُ۬لصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجْرِے مِن تَحْتِهَا اَ۬لَانْهَٰرُ وَالذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ
وَيَاكُلُونَ كَمَا تَاكُلُ اُ۬لَانْعَٰمُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ
أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ اَ۬لَّتِے أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣)
أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَاتَّبَعُوٓاْ
أَهْوَآءَهُمْ (١٤) مَّثَلُ اُ۬لْجَنَّةِ اِ۬لَّتِے وُعِدَ اَ۬لْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ
غَيْرِ ءَاسِنٖ وَأَنْهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٞ مِّنْ خَمْرٖ لَّذَّةٖ
لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٞ مِّنْ عَسَلٖ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ اِ۬لثَّمَرَٰتِ
وَمَغْفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٞ فِي اِ۬لنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا
فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ (١٥) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ

مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلذِينَ أُوتُواْ اُ۬لْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفاًۖ اُوْلَٰٓئِكَ
اَ۬لذِينَ طَبَعَ اَ۬للَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْۖ ﴿١٦﴾
وَالذِينَ اَ۪هْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدىٗ وَءَاتِيٰهُمْ تَقْوِيٰهُمْۖ ﴿١٧﴾
فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا اَ۬لسَّاعَةَ أَن تَاتِيَهُم بَغْتَةٗۖ فَقَدْ جَآءَ اَشْرَاطُهَاۖ
فَأَنّ۪يٰ لَهُمُۥٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْر۪يٰهُمْۖ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اَ۬للَّهُ
وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَٰتِۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ
وَمَثْو۪يٰكُمْۖ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ اُ۬لذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ
سُورَةٞ مُّحْكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا اَ۬لْقِتَالُ رَأَيْتَ اَ۬لذِينَ فِے قُلُوبِهِم مَّرَضٞ
يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ اَ۬لْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ اَ۬لْمَوْتِۖ فَأَوْل۪يٰ لَهُمْۖ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٞ
وَقَوْلٞ مَّعْرُوفٞۖ فَإِذَا عَزَمَ اَ۬لَامْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ اُ۬للَّهَ لَكَانَ خَيْراٗ لَّهُمْۖ ﴿٢١﴾
فَهَلْ عَسِيتُمُۥٓ إِن تَوَلَّيْتُمُۥٓ أَن تُفْسِدُواْ فِے اِ۬لَارْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ
أَرْحَامَكُمُۥٓۖ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ اَ۬لذِينَ لَعَنَهُمُ اُ۬للَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْم۪يٰٓ أَبْصَٰرَهُمُۥٓۖ ﴿٢٣﴾
أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ اَ۬لْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ اَقْفَالُهَآۖ ﴿٢٤﴾ إِنَّ اَ۬لذِينَ اَ۪رْتَدُّواْ
عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ اُ۬لْهُد۪ي اَ۬لشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ
وَأَمْل۪يٰ لَهُمْۖ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ اَ۬للَّهُ سَنُطِيعُكُمْ
فِے بَعْضِ اِ۬لَامْرِۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْۖ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ اُ۬لْمَلَٰٓئِكَةُ

يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ
أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾
أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾
وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ
ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ
وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ
شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾

الربع الثالث من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم

عبــاد الله

موضوع حديثنا اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴾. ونهايتهُ قولـه جلّ عـلاه: ﴿ لَنْ يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾.

يتسـاءل كتـابُ الله في مطلع هذا الربع عن مشركي قريش بشيء من الاستغراب، كيف أنهم لم يعتبروا بمصير الأقوام الذين سبقوهم فسقطوا صرعى، ولا بمصير الديار التي عمرها أولئك الأقوام فأصبحت بعدهم بلاقع، وكيف أنهم يُصِرُّون على الجحود والعناد، والفساد في البلاد، غافلين عن المصير السيء الذي يمكن أن يكون مصيرهم: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ الْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾.

ويصفُ كتابُ الله حالة الكافرين الذين ملأ الكفر قلوبهم، وأحاطت بهم خطيئاتهم من كل جانب، وما يكونون عليـه من

الانهماك في اللذات، والإسراف في الشهوات، على نحو بهيمي سافل، فيقول: ﴿ وَالذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الاَنْعَمُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَّهُمْ ﴾، فهم لا يعرفون إلّا شهوتي البطن والفرج، يقبلون عليها بنَهَم وشَبَق وهمجية بالغة، وهم قَلِقون متهافتون في كل لحظة من اللحظات على هذا النوع من العيش باستمرار، إذ يرون أن حياتهم على سطح الأرض قصيرة الأجل، محدودة المَدَى، ولا أمل لهم ولا رجاء فيما وراءها، لأنهم لا يومنون بحياة ثانية أطول أمداً، وأفضل نُعْمَى، كما هو شأن المومنين الذين يَدَّخرون من يومهم لغدهم، ومن دنياهم لآخرتهم والذين تنتظرهم عند الله حياة أدوم وأخلد، وأفضل وأسعد، ﴿ إِنَّ اَللهَ يُدْخِلُ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّلِحَتِ جَنَّتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا اَلاَنْهَرُ ﴾، ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ اِلتِي وُعِدَ اَلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرٌ مِّنْ خَمرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّرِبِينَ وَأَنْهَرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾.

ويشير كتاب الله في هذا الربع إلى الضغط المادي والأدبي الذي مارسه مشركو قريش لِمُحاصرة الدعوة الإسلامية، حتى اتَّجهَ الرسولُ وَمَنْ معه من أصحابه إلى مفارقة مكة والانتقال عنها إلى المدينة، الأمر الذي يوازي في لغة الواقع إخراج قريش للرسول من مكة، مهد الرسالة ومنزل الوحي الأول، مُبيِّناً أن ما تعتز به قريش ـ المُهيمنة إذ ذاك على مقاليد مكة ـ من القوة والمال والرجال، لا يقف أمام قوة الله وقدرته، فقد أهلك الله قبلها دياراً

لا تُحصَى عَدّاً كانت أشد منها قوة وأكثر مَنَعة، وذلك قولُه تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ اَلتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا اَلسَّاعَةَ أَن تَاتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ اشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَيٰهُمْ ﴾، ويكشف كتاب الله السرَّ فيما أصاب تلك الديار، من الهلاك والبوار، وأنَّ اتِّباعَ الهوى، والفسادَ في الأرض، يَجُرَّان دائماً إلى الخراب والدمار: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾.

وتصف الآيات الكريمة مشهداً من مشاهد «المنافقين» بالمدينة، وهم أولئك الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، عجزاً منهم عن المجاهرة بالعداء للإسلام، إذْ أصبح له جنود وأنصار، وقوةٌ تزخَر بها الديار، فهُم بحكم انتمائهم إلى الإسلام يحضرون مجالس الرسول عليه الصلاة والسلام، ويستمعون إليه وهو يتلو القرآن، لكنهم بحكم ما انطووا عليه من الكفر لا يجدون في أنفسهم أيَّ استعداد لفهم ما أُنزل عليه، بل هم في حَيْرة وخَبال، والتباس دائم وإشكال، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَّسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفاً اوْلَٰٓئِكَ اَلذِينَ طَبَعَ اَللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾. وفي مقابل هذا الوصف الذي كشفت به الآيات الكريمة وَقْعَ القرآن في نفوس المنافقين جاءت بوصف آخر لوَقْع القرآن في نفوس المومنين حتى تتم المقارنة بين الفريقين، إذ قالت: ﴿ وَالذِينَ اَهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدىً وَءَاتيٰهُمْ تَقْوَيٰهُمْ ﴾.

وَتَصدَّى كتابُ الله مرة أخرى لوصف المنافقين، فهم العنصر الجديد والعنيد، الذي أصبح يقوم في المدينة بالدور الذي يقوم به المشركون في مكة، وها هنا يصف الحقُّ سبحانه وتعالى وَقْع القرآن في نفوس المنافقين عندما تنزلُ أوامِرُه بذكر الجهاد في سبيل الله، فبِحُكْم أنهم ينتمون إلى الإسلام في الظاهر يجب عليهم أن يتقدموا للفداء في سبيله، وبحُكْم أنهم أعداء للإسلام في الباطن لا يرون مُبرِّراً للتضحية بأرواحهم في سبيله، ولا مصلحة لهم في ترجيح كَفَّته على كفة الشرك، الذي هو في الحقيقة سَنَدُهم الأصيل، ومُنطلَق حبّهم الأول، وذلك ما يسجله عليهم قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾، وقولُه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾.

وعاد كتاب الله إلى الحديث عن المنافقين تلويحاً وتعريضاً، داعياً إياهم إلى التبصر في العواقب وحسن الاختيار، إذْ أن نجاتهم من عذاب الله متوقِّفة على طاعة الله ورسوله، وعلى تطهير القلب من الوساوس، وصيانة اللسان من مُنكَر القول والزور، وذلك قولُه تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴾.

ويمضي كتاب الله في هذا السياق إلى نهايته، موجِّهاً خطابه للمنافقين، متسائلاً عن احتمال عودتهم إلى الشرك مرة ثانية،

وبصفة علانية، بدلاً من الإسلام الذي يتظاهرون به، فيبين أن مآل أمرهم إذا ارتدوا إلى الشرك هو العودة إلى ما كَانُوا عليه في الجاهلية من الفساد في الأرض، وسفك الدماء، وقطيعة الأرحام، وأنهم إن عادوا إلى شركهم الأول، بدلاً من أن يمضوا قُدُماً في الإخلاص للإسلام، فلن يكونوا سوى عبيد مسخرين للشيطان الذي استهواهم وأغواهم واستَخَفَّهُم فأطاعوه، وذلك قولُه تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسِيتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾.

ويهتك كتاب الله أستار المنافقين بالمرة، فينبه إلى المؤامرات والدسائس التي يدبرونها مع حلفائهم من المشركين والكتابيين ضد الإسلام، ويبين أن الله عالم بأسرارهم، وأنه قادر على إبراز أضغانهم، وأنه لو شاء لعَرَّفهم لرسوله بسِيماهم، وفي لَحْن القول الذي يجري على ألسنتهم، ويكشف عن دخائل نفوسهم «فمن أسرَّ سريرة ألبسه الله رداءها» وذلك قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾.

ويتنبأ كتاب الله بالمصير المفجع الذي ينتظر المنافقين والكافرين جزاء نفاقهم وكفرهم: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ اللَّهَ

وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾، كما يتنبأ بما سينالهم من العذاب الأليم عند موتهم أوّلاً، ومن الخسران المبين عند بعثهم أخيراً، وذلك قوله تعالى في ختام هذا الربُع : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّواْ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ
ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ
إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾
إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ
أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ﴿٣٦﴾ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ
تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ
لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ
فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن
تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴿١﴾ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَ

تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ
ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ
ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ
وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ
وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾
وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾
إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ
فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ
عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ
مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ
بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ

شَيْـًٔا اِنْ اَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا اَوَ اَرَادَ بِكُمْ نَفْعًاۢ بَلْ كَانَ اَللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرًاۢ ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمُۥٓ أَن لَّنْ يَّنقَلِبَ اَلرَّسُولُ
وَالْمُومِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمُۥٓ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِے قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ
ظَنَّ اَلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًاۢ بُورًاۢ ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُومِنۢ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكٰفِرِينَ سَعِيرًاۢ ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ اُ۬لسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ
يَغْفِرُ لِمَن يَّشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَّشَآءُ وَكَانَ اَللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًاۢ ﴿١٤﴾
سَيَقُولُ اُ۬لْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمُۥٓ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَاخُذُوهَا
ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُّبَدِّلُواْ كَلِمَ اَللَّهِ قُل
لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اَللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ
بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًاۢ ﴿١٥﴾
قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ اَلَاعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ اُوْلِے بَاسٍ شَدِيدٍ
تُقَٰتِلُونَهُمُۥٓ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُوتِكُمُ اُ۬للَّهُ أَجْرًا حَسَنًاۢ
وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا اَلِيمًاۢ ﴿١٦﴾
لَّيْسَ عَلَى اَلَاعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى اَلَاعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى اَلْمَرِيضِ
حَرَجٌ وَمَن يُّطِعِ اِللَّهَ وَرَسُولَهُۥ نُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِے مِن تَحْتِهَا
اَلَانْهَٰرُ وَمَن يَّتَوَلَّ نُعَذِّبْهُ عَذَابًا اَلِيمًاۢ ﴿١٧﴾

الربع الأخير من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في سورة «محمـد» المدنيـة: ﴿ يَـٰٓأَيُّـهَا ٱلـذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُـواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾، إلى قوله تعـالى جلّ علاه في سورة «الفتح» المدنية أيضاً: ﴿ وَمَنْ يُّطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُـولَهُ نُـدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَنْ يَّتَوَلَّ نُعَذِّبْهُ عَذَاباً اَلِيماً ﴾.

لا تزال التوجيهات الإلَهية تترى على المسلمين الأولين بما يهديهم ويُسَدِّد خطواتهم، ويُقِيـم دعائم دولتهم الأولى بالمدينة المنورة، على أساس متين، من الحق المبين.

ففي هذا الربع يتجه الخطاب الإلَهي إلى المومنين بأحب وصف إليهم، وأعز شعار عليهم، وهو وصف «الإيمان» بالدين الحنيف، وشعاره المنيف: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، ثم يؤكـد الحق سبحانه وتعالى أمره لهم بطاعة الله وطاعة رسوله، طاعةً كاملة مطلقة، لا تردد فيها ولا التواء، وذلك حذراً من إبـطال

أعمالهم، وإحباط مساعيهم، إذَا لم يبادروا إلى الامتثال، أو ظهرت منهم بَوَادر الإهمال: ﴿ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾.

ثم يتحدث كتاب الله عن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، بما يضعونه في طريق المومنين من العراقيل، وما يدبرونه من المؤامرات والدسائس لعرقلة الدعوة الإسلامية، حتى لا تتمكن من تحقيق أهدافها، والوصول إلى غاياتها، ويُنذِر هؤلاء الأعداء الألِداء للإسلام والمسلمين بأنهم إذا واصلوا نفس الخطة تجاه الإسلام، ولم يتراجعوا عنها إلى أن أدركهم الموت، فإنه لا سبيل إلى غفران ذنوبهم، ولا إلى نجاتهم من العذاب الأليم الذي ينتظرهم، ومعنى هذا أن فرصتهم الوحيدة المواتية إلى الآن وحتى الآن هي تدارُكُ ما فات بالدخول في حظيرة الإسلام، والتوقفُ عما اعتادوه من الدسائس والآثام، فإذا تابوا إلى الله قبل أن يدركهم الموت توبة نصوحاً كان لهم في الإسلام رِدْءٌ وأيُّ ردء، وجُنَّة واقِية من عذاب الله، إذ الإسلام يَجُبُّ ما قبله، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اَلذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اِللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَّغْفِرَ اَللَّهُ لَهُمْ ﴾.

واتجهَ خطَابُ الله بعد ذلك مرة أُخرى إلى المومنين جميعاً، ناهياً لهم عن الرضى بالوَهَن والفشل والتخاذل، وعن الميل إلى مُوَادَعَة الأعداء ومسالمتهم، إن كانت تلك الموادعة والمسالمة لا خير فيهما للإسلام، ولا نفع من ورائهما للمسلمين، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى اَلسَّلْمِ ﴾، قال القاضي أبو بكر

(ابن العربي): «إن الصلح إنما هو إذا كان له وجه يُحتاج فيه إليه، ويفيد فائدة».

ووضَّحَ كتاب الله السر في نهي المسلمين عن التخاذل والوَهَن، وعن الصلح إذا لم تكن فيه فائدة محققة للإسلام، فقال تعالى: ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾، إشارةً إلى أن الدعوة الإسلامية التي يدافع المسلمون عن حريتها، ويجاهدون في سبيل استقرارها واستمرارها دعوة ساميَة يجب أن يُكتبَ لها البقاء، لأنها أجل قدراً وأعظم مقاماً، وأجدى نفعاً للبشرية جمعاء، من دعوة الشرك والجاهلية التي هي دعوة سافلة منحطة يجب القضاء عليها إلى الأبد، ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾. يضاف إلى ذلك أن الدعوة الإسلامية دعوة إلَهية من الملأ الأعلى تُسدِّد خطواتِها إرادةُ الله النافذة، وحكمتُه البالغة، فمن نصرها وحمل لواءها كان الله معه في حركاته وسكناته: ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾، ومن كان الله معه لم يقف في وجهه شيء: ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيراً ﴾ (النساء: ٤٥)، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾، أي: لن يقطع عنكم جزاء أعمالكم، بل يمنحكم الجزاء الأوفى.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى التهوين من شأن المصالح المادية، والمنافع الشخصية، التي قد تعُوق الإنسان عن الفداء والتضحية في سبيل عقيدته السامية، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَإِن تُؤمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾، إشارةً إلى أن خير زاد يتزودُ به المسلم في هذه الدار لتلك الدار هو ما يملأ به قلبه من الإيمان، وما يشغل به جوارحه من الأعمال الصالحة

المزدوجة النفع، دنيا وأخرى، فذلك هو الزاد الذي يدوم ويبقى، أما ما عداه من الشهوات والملذات، والأغراض البشرية الصرفة التي يصرف الناس فيها حياتهم، فمآلها إلى الانصراف والزوال، وهي تنتهي بانتهاء وقتها في الحال.

واتجه كتاب الله إلى مخاطبة المسلمين في موضوع حسَّاس بالنسبة لحياتهم المادية، ألا وهو موضوع البذل في سبيل الله، والإنفاق على الدعوة الإسلامية، وعلى الجهاد الإسلامي المشروع، لحماية هذه الدعوة وضمان وجودها، مُنَبِّهاً إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يأمر المسلمين بإنفاق كل ما يملكونه في هذا السبيل، لأنه لو أمرهم بإنفاق كل ما يملكون لَشَقَّ عليهم هذا التكليف وضاقوا به ذرعاً، إذ يكون فيه نوع من الإحراج: ﴿ وَلَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ إِنْ يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجَ أَضْغَانَكُمْ ﴾، ومبدأ الإسلام الأساسي: «لا يكلف الله نفساً إلّا وسعها» وقاعدته الأصلية: «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» لكن المطلوب من المسلمين هو أن لا يتخلفوا عن واجباتهم الأساسية، وأن يبذلوا من أموالهم في سبيل تحقيقها والوفاء بها ما هو ضروري لذلك في حدود المستطاع، وامتثالُ المسلمين لهذا الأمر الإلٓهي يعود عليهم قبل غيرهم بالصلاح والرشاد، ويضمن لهم القوة والهَيْبة بين العباد، فإذا بخِلوا بأموالهم، وتخلَّوا عن واجباتهم جَنَوا ثمرة بخلهم ضعفاً في أنفسهم، وهواناً على الله وعلى الناس، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ هَآنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم

مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ ﴾. قال ابن كثير: «وصْفُ اللَّهِ بالغِنَى وصفٌ لازم له، ووصفُ الخلق بالفقر وصفٌ لازم لهم لا ينفكون عنه»، وهذا أمر واضح، ما داموا فقراء إلى رزقه في الدنيا، وإلى أجره في الآخرة.

وخُتِمت سورة «محمد» أو سورة «القتال» بخاتمة تعتبر إنذاراً أو شبه إنذار، مما كان له وقع عظيم عند المسلمين الأولين، ذلك أنها تعلن في حزم وصراحة أن الدعوة الإسلامية التي وَكَلَها الله إلى رسوله والمومنين إنما هي أمانة مُودَعة بين أيديهم، شرفهم الله بها وميزهم بفضلها على بقية الناس، فإن وَفَّوْا بها، وقاموا بحقها، وضَحَّوْا في سبيلها، كانوا أهلاً لها، ومضوا في حمل أمانتها إلى يوم الدين، وإن تخلوا عنها، أو أهملوا شأنها، أو بخِلوا في سبيلها ببذل النفس والمال نزع الله أمرها من بين أيديهم، واستبدل بهم غيرهم، وجعل هذا الغير أفضل منهم في القيام بحقها، والوفاء لها، والتفاني في سبيلها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في خطابه للمومنين: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الفتح» المدنية أيضاً، وهذه السورة نزلت في السنة السادسة من الهجرة عقب «صُلح الحُدَيْبِيَّة» الشهير، «والفتح» الذي تشير إليه هو صُلح الحُدَيْبِيَّة نفسُه، باعتبار ما كان فيه من المصلحة في البداية، وما آل إليه أمره في النهاية، لا «فتحُ مكة» كما يتبادر إلى بعض الأذهان، قال عبد الله بن

مسعود: «إنكم تَعَدُّون (الفتح) فتح مكة، ونحن نَعدُّ الفتح صلح الحديبية»، وقال جابر: «ما كنا نَعُدُّ الفتح إلاّ يوم الحديبية»، وروى البخاري بسنده عن البراء قال: «تَعُدُّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نَعُدُّ الفتح بَيْعة الرِّضوان يوم الحديبية». إلى آخر الحديث. ذلك أنه مضت خمسة أعوام منذ هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة والمشركون يمنعونه ويمنعون المومنين من دخول مكة ولو في الأشهر الحُرُم، حتى كان العام السادس للهجرة، فخرج رسول الله ﷺ لزيارة بيت الحرام في رُفقة ألف وأربعمائة من المسلمين، وذلك في شهر ذي القعدة، وخرج «مُعْتَمِراً» لا يريد حرباً، وساق معه الهَدْي سبعين بَدَنة، إيذاناً للمشركين بأنه فعلاً غيرُ عازم على حربهم ولا على فتح مكة، لكنَّ قريشاً لبسوا «جُلُودَ النُّمور» وخرجوا لملاقاته، إذْ تعاهدوا فيما بينهم على أن لا يدخلها أبداً، وتبودلت الرسل بين الفريقين، وكان عثمانُ بن عفان رسولَ رسول الله إلى قريش، وكان سُهَيْلُ بن عمرو رسولَ قريش إلى رسول الله، وانتهى الأمر بكتابة صلح الحديبية الشهير، الذي كان من جملة ما تضمنه أن يرجع الرسول عَامَه ذاك، ثم يأتي إلى مكة من العام القابل، وكان عليٌّ رضي الله عنه كاتب الصحيفة المتضمنة لشروط الصلح، وعند مُنصرَف رسول الله ﷺ من الحديبية وهو في طريقه إلى المدينة المنورة نزلت عليه سورة «الفتح» المدنية التي نحن بصدد تفسيرها الآن، وبمناسبة نزولها قال رسول الله ﷺ كما رواه البخاري والترمذي والنسائي من طرق عن مالك بن أنس: «نزل عَلَيَّ البارحةَ سورة هي أَحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا

لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبك وَمَا تَأَخَّرَ﴾، فقد كان هذا الخطاب الإلٓهي الكريم بشرى مضاعفة لرسول الله ﷺ بما يناله في الدنيا وما يناله في الأخرة، وذلك بالإضافة إلى ما تضمنه من تصديق لمعاهدة الصلح التي عقدها مع قريش، ومن إعلان الله لرضاه عن الأهداف السامية الموفقة، التي رمت إليها تلك الخطة النبوية الكريمة.

وقولُه تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اَللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، يتضمن إحدى الخصائص التي يختص بها رسول الله ﷺ ولا يشاركه فيها غيره من الناس. قال ابن كثير: «وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغير رسول الله ﷺ أنه غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فهذا تشريف عظيم لرسول الله، هذا وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة، التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين».

وانتقلت الآيات إلى الحديث عن «السكينة» التي أنزلها الله في قلوب المومنين، وما ينتظرهم من الجزاء الحسن عند الله، وما ينتظر المنافقين والمشركين من العذاب الأليم، وبينت الآيات أن مبايعة المومنين لرسول الله تحت الشجرة في «بَيْعَة الرِّضوان» بالحديبية إنما هي مبايعة لله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، ولم يهمل كتاب الله الحديث عن موقف المنافقين من الأَعْراب الذين تخلفوا عن رسول الله، وعن الأَعذار التي يُنتظَر أن ينتحلوها ليبرروا بها تخلفهم عنه، ويفضح كتاب الله نواياهم الحقيقية، ومخاوفهم الوهمية: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمُ أَن لَّنْ يَّنْقَلِبَ اَلرَّسُولُ وَالْمُومِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمُ

أَبداً ﴾، ويحدد كتاب الله الموقف المناسب اتخاذه منهم، فيما يُستقبل من معارك الجهاد الإسلامي، كما يتنبأ بما سيُمْتَحَنُون به في مستقبل الأيام: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ اَلاعرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ اوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمُ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾.

ويُعرِّج كتابُ الله في نهاية هذا الربع على الأعذار المقبولة شرعاً للتخلف عن الجهاد، والإعفاء من الواجبات العسكـرية، وفي هذه الأعذار ما هو لازم ودائم، كالعَمَى والعَرَج المستمر، وما هو عارض ومؤقت، كالمرض الذي يطرأ ثم يزول، إذ يُعتَبر المريض مُلَحقاً بذوي الأعذار العارضة حتى يبـرَأ من مرضـه، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى اَلاعْمىٰ حَرَجٌ، وَلَا عَلَى اَلاعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى اَلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾.

وتُختَمُ آياتُ هذا الربع بنفس المبدأ الذي كان فاتحة لها، ألا وهو مبدأ الطاعة لله والطاعة لرسوله، وَمَا يناله المـطيع من الجزاء بالحُسْنى، وما يناله العاصي من العذاب الأليم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُّطِعِ اِللَّهِ وَرَسُولَهُ نُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا اَلانْهَـٰرُ وَمَنْ يَّتَوَلَّ نُعَذِّبْهُ عَذَاباً اَلِيماً ﴾.

الربع الأول من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ
عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ
فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾
وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾
وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ
أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا
مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ
ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ
مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ
وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ
مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ
بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟
لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ
ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ
ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ
عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ
ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ
لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا
قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾
مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ
تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ
فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ

فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ
عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

الربع الأول من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اَللَّهُ عَنِ اِلْمُومِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ اَلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ اَلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتحاً قَرِيباً وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَاخُذُونَهَا وَكَانَ اَللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾، ونهايتُه قوله جلّ علاه: ﴿وَعَدَ اَللَّهُ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾.

تتحدث الآيات الكريمة في مطلع هذا الربع عن «بَيْعَة الرِّضوان» التي دعا إليها رسول الله ﷺ في السنة السادسة للهجرة كُلَّ من رافقه من المسلمين عندما كانوا بالحديبية، وذلك في فترة انتظارهِ لِجواب قريش، بعدما بلَّغهم عزمَه على زيارة البيت الحرام مُحرِماً بالعمرة، وبصحبته ألف وأربعمائة من أصحابه، وكانت قريش قد احتبست عندها عثمان بن عفان الذي وجهه رسول الله ﷺ إليها لإبلاغها ما عزم عليه، وراجت إشاعة قوية مؤداها أن قريشاً قد قتلت عثمان بن عفان مبعوث رسول الله إليها

في هذه المهمة، فنادى منادي رسول الله: «ألا إن روح القدس قد نَزَلَ على رسول الله ﷺ وأمر بالبيعة، فاخْرُجوا على اسم الله تعالى» وكان المسلمون قد تفرقوا في ظلال الشجر، فما كادوا يسمعون المنادى حتى ساروا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة، وأحدقوا به من كل جانب، وتسابقوا إلى بيعته، فبايعوه على الاستماتة والثبات معه إلى النهاية، فأَرعبَ ذلك المشركين من أهل مكة، وأرسلوا من احتبسوه عندهم من المسلمين، ودَعَوْا رسولَ الله والمومنين إلى الموادعة والصلح، فكان من ذلك كله «صلح الحُدَيْبِيّة».

ومما يستحق الذكر في هذا المقام أن عثمان بن عفان رسولَ رسولِ الله إلى قريش بمكة كان غائباً حين ابتدأ عقدُ هذه البيعة، إذ لم يزل عثمان آنَذَاك مُحْتَبَساً عندهم، فلما بايع الناسُ رسول الله ﷺ تولى الرسولُ بنفسه النيابة عن عثمان في بيعته إياه، وقال ﷺ: «اللهمّ إن عثمان في حاجة إلى الله تعالى وحاجة رسوله»، ثم ضرب الرسول ﷺ بإحدى يديه على الأُخرى، إيذاناً بِبَيعة عثمان له، فحَلَّت يدُ رسول الله محل يد عثمان، وكانت بالنسبة إليه خيراً من أَيدي بقية المسلمين لأنفسهم، كما روى ذلك أنس بن مالك رضي الله عنه.

ومن لطائف «بيعة الرضوان» أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يبلغه خبر البيعة كان قد وَجَّه ابنه عبد الله بن عمر، للإتيان بفرس له عند أَحَد الأنصار المرافقين للرسول عليه الصلاة والسلام، إذ كان عمر يَسْتَلْئِمُ للقتال، واحتاج إلى فرسه ليقاتل

عليه إذا دعت الضرورة، نظراً للإشاعات القوية التي بلغت المسلمين عن عزم قريش على مقاومتهم، والإشاعة التي راجت عن قتل قريش لعثمان بن عفان مبعوث الرسول إلى مشركي مكة، وبينما عبدُ الله بن عمر في طريقه للإتيان بفرس أبيه إذَا به قد وجَد المسلمين يبايعون رسول الله فبايعه أوّلاً، ثم ذهب إلى الفَرَس فجاء به إلى أبيه عمر، وأخبره أن رسول الله يُبايَع تحت الشجرة، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ، ومن هنا تحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر. والحقُّ أن الوالد أسلم قبل ولده، روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال: «كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة فبايعناه وعُمَرُ آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سَمُرَةٌ» الحديث. وروى مسلم أيضاً عن مَعقِل بْن يسار قال: «لقد رأيتُني يوم الشجرة والنبيُّ ﷺ يُبايِع الناس، وأنا رافع غُصناً من أغصانها على رأسه، ونحن أربعَ عَشْرَة مائة» الحديث. وحدَّثَ جابرُ بنُ عبد الله أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم بيعة الرضوان: «أنتم خَيْرُ أهل الأرض اليوم» وما قاله لهم رسول الله ﷺ يومئذ هو مصداقُ قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اَللَّهُ عَنِ اِلْمُومِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ اَلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اَلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَاخُذُونَهَا ﴾، ومن أجل رضى الله عن المومنين بسبب هذه البيعة سميت «بيعة الرضوان». أما الشجرة التي كان رسول الله ﷺ يتلقى البيعة ـ وهو مستظل بظلها ـ فقد كانت شجرة سَمُرَة كما سبق في حديث جابر الذي رواه مسلم، وأما ما انطوت عليه قلوبُ المومنين وهم يبايعون رسول الله ﷺ في الحديبية، فهو

الوفاء والصدق، والثباتُ على الحق، وكظمُ غيظهم أمام حربَ الأعصاب التي شنها المشركون عليهم، عن طريق الاستفزاز والتهديد، والتزامُ السمع والطاعة لله ورسوله في المَنْشَط والمَكْرَهِ، وأما «السكينة» التي أنزلها الله على المومنين فهي ما أُلقاه في قلوبهم من الطمأنينة على مصير الإسلام، ومن الثقة بوعد الله الذي لا يستطيع أحد أن يَحُول دون إنجازه مهما بلغ من القوة والعناد، وأما «الفتح القريب» الذي عَوَّضهم به الحق سبحانه وتعالى عن زيارة بيت الله الحرام في ذلك العام، فهو صلح الحديبية نفسه، الذي أجراه الله على أيديهم بينهم وبين أعدائهم، إذْ كان بدايةً لفتوح كثيرة متتالية، من بينها فتح «خيبر»، وكان على رأسها فتح مكة، الذي تم بعد سنتين من صلح الحديبية فقط، ثم فتحُ سائر البلاد والأقاليم في دنيا الإسلام، قال الزُّهْري: «ما فُتِح في الإسلام فتح قبل صُلْح الحديبية كان أَعظمَ منه، إنما كان القتال حيث الْتَقى الناس، فلما كانت الهدنة ـ أي: صلح الحديبية، وأمِنَ الناسُ بعضُهم بعضاً والتقَوْا لم يُكَلَّمْ أَحَدٌ في الإسلام يَعقِلُ شيئاً إلّا دخل فيه، ولقد دخل في تَيْنِك السنتين، أي: بين صلح الحديبية وفتح مكة: مِثْلُ من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر» قال ابن هشام: «والدليل على قول الزُّهْري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف».

وقولُه تعالى في التعقيب على ذلك: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾، فيه إشارةٌ إلى ما أكرم الله به المومنين من «العزة»

المنافية للذلة، فقد أَمَدَّهم من عِزَّته بما أَدَّى إلى حفظ كرامتهم وحفظ كرامة الإسلام، كما أن فيه إشارةً إلى «الحكمة الإلّهية» التي كانت تقود خطوات الرسول ﷺ، عندما عزم على زيارة بيت الله الحرام، استعمالاً لحق المسلمين الذي أنكره عليهم المشركون منذ الهجرة، ثم عندما قرر تأجيل هذه الزيارة إلى العام القابل، على أساس صلح الحديبية، الذي فتح في وجه الدعوة الإسلامية آفاقاً جديدة، وكسب لها حقوقاً واسعة، هي بداية النهاية للشرك والمشركين.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَاخُذُونَهَا ﴾، قال مجاهد: «هي جميع الغنائم إلى اليوم»، يريد جميع المغانم التي تقع عليها أيدي المجاهدين أثناء جهادهم في سبيل الله إلى يوم الدين، وها هنا لا بد من التنبيه إلى أن كتاب الله عندما يذكر «المغانم» في سياق الجهاد لا يذكرها باعتبار أنها هدف أساسي من الجهاد في سبيل الله، وإنما يذكرها عَرَضاً في هذا السياق، إيحاءً للمسلمين بضمان الفوز والغلَبة لهم، والنصر على أعدائهم، إذ «الغنيمةُ لا تقع تحت يد الغالب إلاّ بعد هزيمة المغلوب، فالغنيمة إنما تكون بعد الهزيمة».

وقولُه تعالى: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِ ﴾، إشارةٌ إلى صلح الحديبية نفسه كما رُوِي عن ابن عباس رضي الله عنه، وقولُه تعالى: ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾، إشارةٌ إلى أن الله كفى المومنين القتال هذه المرة، فلم يَنْلهُمْ أعداؤهم بسوء، رغماً عما أضمروه واستعدوا له من الحرب والقتال.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾، إشارةٌ إلى نفس وقعة الحُدَيْبِيَّة وصلحها الشهير، فقد كان هذا الصلح مفاجأة كبرى لبعض المسلمين أول الأمر، حتى خُيِّلَ إليهم أن فيه شيئاً من التراجع إلى الوراء، لكن الله الذي يسدد خطوات نبيه بالوحي من عنده، هو الذي كان يَعلَم ما لهذا الصلح من عواقب محمودة الأثر، سريعة الظهور، وها هو الحق سبحانه وتعالى يُثبِت للمومنين أن هذا الصلح نفسه سيكون آية لهم، ومعجزة جديدة للإسلام، وكذلك كان الأمر، فصدَقَ اللَّهُ وعْدَه، ونصر جنـده.

وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ اَلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنَ اَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اَللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾، إشارةٌ إلى ما أقدم عليه فريق من مشركي مكة: حيث تسللوا وهم مسلحون إلى المكان الذي ينزل فيه رسول الله ومن معه بالحديبية، عسى أن ينالوا منه ومن المسلمين شيئاً، فَسِيقُوا أُسَارى إلى رسول الله ﷺ، فقال لهم عليه السلام: «هل جئتم في عهد أَحَد؟ أَوْ هَلْ جعلَ لكم أحدٌ أَماناً؟ فقالوا: لا» فعفا عنهم وخلى سبيلهم، كما رواه النسائي في سننه.

وانتقل كتاب الله إلى وصف هذه الوقعة المؤثرة، والدور الذي لعبته قريش فيها، وإلى ذكر ما أنزله الله من السكينة على رسوله والمومنين، حتى أخذت الأحـداث مجرىً آخـرَ لصالـح الإسلام والمسلمين، فقال تعالى: ﴿هُمُ الذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ اِلْمَسْجِدِ اِلْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفاً اَنْ يَّبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾، وقال

تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ اَلذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ، حَمِيَّةَ اَلْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اَللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى اَلْمُومِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ اَلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اَللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾.

ثم عَرَّج كتابُ الله على قصة الرؤيا التي رآها الرسول عليه الصلاة والسلام في منامه، وأخبر بها أصحابه وهو بالمدينة قبل عام الحديبية، وهو «أنه دخل مكة وطاف بالبيت»، فلما سار في طريقه إلى مكة ظنَّ جماعةٌ منهم أن تعبير تلك الرؤيا سيتم في نفس هذا العام، ونبَّه كتابُ الله إلى أن رؤيا الرسول ﷺ إذا لم تتحقق في نفس هذا العام، أي: في السنة السادسة للهجرة، فإنها ستصدق في فرصة أخرى، لأنها رؤيا صالحة، «والرؤيا الصالحة جزء من النبوة»، وهي واقعة لا محالة بحول الله وقوته: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اَللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ اَلْمَسْجِدَ اَلْحَرَامَ إِن شَآءَ اَللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾، فلما كان ذو القعدة من العام السابع للهجرة، وهو العام التالي لصلح الحديبية، خرج رسول الله ﷺ إلى مكة مُعتمِراً هو ومن كان معه في الحديبية، فأحرم من ذي الحُلَيْفَة، وساق معه الهَدْى إلى ذي طُوَى، ودخل مكة ومعه أصحابه يُلَبُّون، وهو على ناقته القَصْوَاء، وهي نفس الناقة التي كان يركبها عليه الصلاة والسلام في الحديبية من العام الماضي، وعبد الله بن رواحة الأنصاري يقود ناقته، وكلُّ من في مكة من الرجال والنساء والولدان يتطلعون إلى طلعته البهية من مختلف المنازل والطرق، ما عدا رؤوس الشرك الذين لم يستطيعوا رؤية ذلك المشهد العظيم، ففارقوا مكة طيلة

زيارة الرسول، وبذلك تحققت رؤيا رسول الله، وتَمَّ وعدُ الله، وأكد كتاب الله أن الخطة التي اختطها رسوله لحل أزمة الحديبية عن طريق الصلح كانت بوحي الله وتوفيقه: ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ، فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾.

وتنبأ كتابُ الله بنصرة دينه وإظهاره على بقية الأديان، وذلك ما تم على يديه وعلى أيدي خلفائه الراشدين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين: ﴿ هُوَ ٱلذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾، ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾.

الربع الثاني من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ
ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ
صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ
أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ
ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ
عَظِيمٌ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤
وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ
رَّحِيمٞ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن
تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ
أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ

وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ
اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا
الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ
وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ
فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا
خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ
وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ
الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ
وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ
أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ
لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

الربع الثاني من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الثاني من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في فاتحة سورة «الحُجُرات» المدنية: ﴿بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَٰنِ اِلرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اِللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اَللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، إلى قوله جلّ علاه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اَللَّهِ أَتْقَيٰكُمْ إِنَّ اَللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

هذه السورة الكريمة سميت «سورة الحجرات» أخذاً من قوله تعالى فيها: ﴿إِنَّ اَلذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ اِلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وأول ما يلفت النظر في هذه السورة الكريمة على العموم، وخاصة في الربع المُخَصَّص لِهذا اليوم، أَنّ آياتها البينات تُعْنَى على الخصوص بإرشاد المومنين إلى ما ينبغي أن يكونوا عَليه في سلوكهم نحو الله ورسوله، وما ينبغي أن يكونوا عليه في سلوك بعضهم نحو بعض، في حالة الطمأنينة وحالة الاضطراب، وما ينبغي أن يكونوا عليه في سلوكهم جميعاً نحو غيرهم من بقية الناس.

ففيما يتعلق بسلوك المومنين الواجب عليهم نحوَ الله ورسوله أوصاهم الحق سبحانه وتعالى بأن لا يُسرعوا في معالجة الأمور قبله، وأن لا يفتاتوا على رسول الله بشيء، حتى يقضِي الله فيه من عنده، بحيث يكونون تَبَعاً له، بَدَلاً من أن يتقدموا بين يديه، فالمومن ينبغي له أن لا يَسبِق ربه في أمر ولا نهي، وعليه أن يُوَجِّهَ رأيه وإرادته في الطريق السَّوِيِّ المرسوم من ربه، ابتغاء مرضاة الله، وذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، قال الضحاك: «أي لا تقضُوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم».

وفيما يتعلق بسلوك المومنين نحو رسول الله خاصة أوصى الله عباده المومنين بأن يحترموا مقام الرسول عليه الصلاة والسلام، فلا يرفعوا أصواتهم على صوته إذا كانوا في مجلسه الشريف، وذلك يستلزم أمرَهم ـ من باب أَوْلَى وأَحْرَى ـ بأن لا يتجادلوا فيما بينهم أمامه، فضلاً عن أن يجادلوا الرسول أو يعارضوه فمَقام الرسول عند ربه وفي أمته ليس هو مَقامَ بقية الناس بعضهم مع بعض، وما جاز للصحابة في معاملة بعضهم لبعض لا يجوز لهم في معاملة الرسول الأعظم عليه صلوات الله وسلامه، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَـٰأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيٓءِ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، وحذَّرَ كتابُ الله من عاقبة سوء الأدب مع الرسول ورفع الصوت عليه، فقد ينتهي ذلك بما لا تُحمَد عقباه، ويؤدي إلى إحباط عمل المومن وخسرانه، وذلك قوله تعالى:

﴿ اَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾، أي: إنما نهيناكم عن ذلك خشية أن يَحْبَط عملُكم. جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الرجل لَيتكَلَّم بالكلمة في رضوان الله تعالى لا يُلقِي لها بالاً يُكتَب لَهُ بها الجنة، وأن الرجل لَيَتَكَلَّم بالكلمة من سُخط الله تعالَى لا يُلقِي لها بالاً يَهْوِي بها في النار أبعدَ ما بين السماء والأرض».

ثم نَدَب الله تعالى المومنين إلى خفض أصواتهم عندما يكونون بمحضر رسول الله، فذلك دليل على ما يملأ قلوبهم من إخلاص وسكينة وهيبة لمقام الرسول، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اَلذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنـدَ رَسُولِ اِللَّهِ أُوْلَـٰئِـكَ اَلذِينَ اَمْتَحَنَ اَللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾. وَمِمَّا يتصل بهذا المقام ما روى عن أمير المومنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه في عهد خلافته كان بمسجد النبي ﷺ، فسمع رجلين قد ارتفعت أصواتهما في المسجد، فأقبل عليهما قائلاً: «أَتَدْرِيَان أين أنتما؟ ثم قال: مِن أين أنتما؟ فقالا من أهل الطائف، فقال لهما عمر: «لو كنتما من أهل المدينة لأوجَعْتُكما ضرباً». ونص العلماء على أنه يُكرَه رفع الصوت عند قبره عليه الصلاة والسلام، كما كان رفع الصوت أمامه مكروهاً في حياته سواء بسواء، لأنه ﷺ مُحترَم حياً، ومحترم في قبره دائماً.

ومضت الآيات الكريمة في نفس السياق، فنبهت إلى أن الِاستعجال بمناداة الرسول ﷺ من خارج بيته الشريف، للخروج إلى الناس، واستقبالِهم لقضاء حاجاتهم، بدلاً من انتظار خروجه

دون منادَاة ولا إزعاج، إنْ دَلَّ على شيء فإنما يدل على الجهل وسوء الأدب وقلة العقل، وبذلك يحُضّ كتابُ الله على وجوب انتظار المسلمين للرسول، إلى أن يَفْرَغَ من شؤونه الخاصة. ويخرج إليهم، وإذ ذاك يُقبل عليه من له عنده حاجة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وفيما يتعلق بسلوك المسلمين بعضهم مع بعض نبهت الآيات الكريمة بادىء ذي بدء إلى وجوب التَّثَبُّت في كل ما يُنسَبُ إلى الغير من أقوال وأفعال، فكثيراً ما يكون الأمر المنسوب إلى الغير كَذِباً، وكثيراً ما تكون نِسبته إلى الغير خَطَئاً، وإذا لم يقع التثبت في نسبة الأقوال والأفعال هل هي حق أم باطل، وإذا لم يَحصُل التحقق منها ومن مُلاَبساتها، وقعَ المسلمون في البلبلة أحياناً، وفي الظلم أحياناً، وارتكبوا من الشَّطَط وسوء التقدير، ما يؤدي إلى سُوءِ المصير، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْماً بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾، قال ابن كثير: «مِن هَا هنا امتنع طوائف من العلماء من قَبول رواية مجهول الحال، لاحتمال فسقِه في نفس الأمر».

ثمَّ لَفَتَت الآيـاتُ الكـريمـة أَنـظار المـومنين إلى أن رسول الله ﷺ ليس مُلزَماً بموافقة أصحابه وترضيتهم في جميع ما يَعرِضون عليه من رغبات وآراء، فقد يرغَبون في شيء يظنُّونه خيراً

وليس بخير، وقد يرون الرأي يعتقدونه صالحاً وهو غير صالح، فالمرجعُ الأعلى للمسلمين يجب أن يظلَّ دائماً وأبداً هو مَقام الرسالة الأسمى، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اَللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ اَلَامْرِ لَعَنِتُّمْ﴾، أي: اعلموا أن بين أظهركم رسولَ الله، فعظِّمُوه وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكُم، ورأيه فيكم أتمُّ من رأيكم لأنفسكم، ولو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدّى ذلك إلى الحرج الذي ليس من الدين، وإلى مثل هذا المعنى ينظر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوِ اِتَّبَعَ اَلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ اِلسَّمَٰوَٰتُ وَالَارْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ (المومنون: ٧١).

وقولُه تعالى هنا: ﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اَللَّهِ﴾، هذا بالنسبة إليه وهو لا يزال على قيد الحياة بين أظهُر المسلمين، فإذا فارقهُم الرسول وانتقل إلى الرفيق الأعلى كان حاضراً بينهم أيضاً، إذْ أن كتاب الله وسنّة رسوله حاضران وخالدان بين المسلمين على الدوام، فلا بُدَّ من الرجوع إليهما والاِهتداء بهديهما، على حد قوله ﷺ: «تَركتُ فيكم ما إنْ تمسكتم به لن تَضِلُّوا بعدي: كتابَ الله وسنتي».

ثم عقَّب كتاب الله بما يُقَوِّي في المسلمين روح الطاعة والامتثال، وَيَدْفَعُهم إلى المزيد من التأدب مع مقام الرسالة، والمزيد من التفاني في تحقيق الأهداف التي رَسَمْتَها للمسلمين، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اَللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الاِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ اُلْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الرَّٰشِدُونَ

فَضْلاً مِّنَ اَللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾، وهذه الآيات ترسم في نفس الوقت معالم الإيمان الصحيح لكل من يريد أن يلتحق بركب المومنين الصادقين في أيِّ جيل من الأجيال، أو عصر من العصور، ألا وهي محبةُ الإيمان وكُرْهُ الكفر، ومحبةُ التقوى وكُرْهُ الفُسوق، والتزامُ الطاعة لله ورسوله، وعدم التجرُّؤ على عصيانهما، فمن كان على هذه الوتيرة خرج من دائرة «السفهاء» ودخل في عداد «الراشدين». ولعل التعبير «بالراشدين» في هذه الآية، هو السَّنَد الذي استند إليه السلف الصالح في إطلاق لقب «الخلفاء الراشدين» على خلفاء الرسول عليه الصلاة والسلام الأولين، رضي الله عنهم أجمعين، علاوة على الحديث الوارد في شأنهم بهذا اللقب.

وفيما يتعلق بسلوك المومنين بعضهم مع بعض في حالة الاضطرابات والقلاقل أوصَى كتابُ الله بفَضٍّ كل نزاع قد يقع بينهم، على أساس العدل المطلقَ، وفي إطار الأخوة الإسلامية الصميمة، التي تعتبر المومنين كلَّهم إخْوَةً في دين الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ اَلْمُومِنِينَ اَقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتِ اِحْدَيٰهُمَا عَلَى اَلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ الَتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ اِلَىٰ أَمْرِ اِللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ اَللَّهَ يُحِبُّ اُلْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا اَلْمُومِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

ثم عادت الآيات الكريمة مرة أخرى إلى ذكر الآداب السامية التي يجب أن يلتزمها المسلمون في معاملة بعضهم

لبعض، منبهةً إلى وجوب تبادل الاحترام وحسن الظن فيما بينهم، وعدم الوُلُوغ في أعراض الآخرين، سواء كانوا حاضرين أو غائبين، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِالْأَلْقَٰبِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ ٱلظَّنِّ، إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾.

وخُتِمت آياتُ هذا الربع بخطاب مُوجه إلى بني الإنسان عموماً وإلى المسلمين خصوصاً، يتضمن الإشارة إلى أن «الإنسانية» رغم ما فيها من اختلاف في الأجناس والألوان والأديان، تُعتبَر وَحْدة مترابطة فيما بينها، فلا بُدَّ للمسلمين إذَن من التعارف مع غيرهم، ومن التعاون مع كل من يَجْنَح إلى التعاون معهم على ما فيه خير الإنسانية عموماً، وخير الإسلام خصوصاً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا
أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا
بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾
قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ
عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ
عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ

ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَ۟ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَٰبًا ذَٰلِكَ رَجْعُۢ
بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ
حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ
يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾
وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ
بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا
طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ
لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾
أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ
إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ
قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ
سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ
ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾

لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ
ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي
جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ
مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾

الربع الثالث من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قوله تعالى في سورة «الحُجُرات» المدنية: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُومِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَـٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾، ونهايتُه قوله جلّ علاه في سورة (ق) المكية: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهاً ءَاخَرَ فَأَلْقِيَـٰهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾.

كما تحدث كتاب الله في «سورة الفتح» عن المُخَلَّفين من الأَعْراب الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله عام الحُدَيْبِيّة، لظنهم بالله ظن السوء، تحدث كتابُ الله في مطلع هذا الربع من سورة «الحجرات» المدنية عن طائفة أخرى من الأعراب دخلوا في الإسلام، ثم أخذوا يتبجحون ويَمُنُّون على رسول الله، بأنهم انضمُّوا إلى صفوف المسلمين ولم يقاتلوهم، كما قاتلهم غيرُهم من العرب.

وقد فهِم الإمام البخاري من الآيات الواردة في هذا الربع،

بشأن هذه الطائفة من الأعراب أنهم داخلون في عِداد المنافقين، بينما فهمها ابن عباس وإبراهيم النَّخَعي وقتادة على أن القصد منها هو أن أولئك الأعراب لم يكونوا منافقين، وإنَّمَا لَمْ يستحكم الإيمانُ في قلوبهم، وادَّعَوْا لأنفسهم مَقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأُدِّبُوا على ذلك حتى لا يَمُنُّوا على الله ورسوله بشيء، ولو كانوا منافقين بالمرة لَعُنِّفُوا وفُضِحُوا كما عُنِّف غيرُهم في سورة أخرى، وهذا الفهم هو الذي اختاره ابن جرير الطبري في تفسيره وارتضاه ابن كثير، ﴿ قَالَتِ اِلاَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾، فقيل لهم تأديباً: ﴿ قُلْ لَّمْ تُومِنُواْ ﴾، أي: لم تومنوا الإيمان الكامل، ﴿ وَلَـٰكِنْ قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾، أي: استسلمنا وسالمنا، فالإسلام هنا لا يزيد على الاعتراف باللسان، والانقياد بالجوارح، وعصمة الدم والمال، ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ اِلايمَـٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾، أي: ولم يتمكن الإيمان الكامل من قلوبكم بعد، ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنَ اَعْمَـٰلِكُمْ شَيْئاً ﴾، أي: أن الله تعالى ـ رغماً عن أنّ إيمانكم لم يصل بعد إلى درجة الكمال ـ لَا يَنقُصكم من أجوركم شيئاً إذا التزمْتُمَ الطاعة لله ورسوله، فلن تضيع أعمالكم كما تضيع أعمال الكفار. ﴿ اِنَّ اَللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ «غفور» لمن تاب، «رحيم» لِمَن أناب.

ثم وصَفت الآياتُ الكريمة خصال المومنين الكاملين الذين يُضرَب بهم المثل في الإيمان، فقال تعالى: ﴿ اِنَّمَا اَلْمُومِنُونَ ﴾، أي: المومنون الكاملون إيماناً، ﴿ اَلذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَـرْتَابُـواْ ﴾، أي: ثَبَتوا بعد أيمانهم على وتيرة واحدة من

التصديق القلبي الخالص، دون تردد ولا تزعزع ولا اضطراب، فقد يومن الشخص العادي ثم تعرض له عوارض وطوارىء تزعزِعُ إيمانه، وتهُزُّ كيانه، أما المومن الحق فلا يُزعزِع إيمانَه أيُّ شيء، لا في الشدة ولا في الرَّخاء، لَا في السَّراء ولا في الضَّراء، وهذه الآية: ﴿ اَلذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾، واردةٌ على غِرار قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اَلذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اَللَّهُ ثُمَّ اَسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ (فصلت: ٣٠)، فالسر كله في «الاستقامة» إذ عن طريقها ومن خِلالها يبرُز ما ينطوي عليه القلب من عقيدة صالحة وإيمان صحيح.

وقولُه تعالى: ﴿ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنْفسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾، هذه صفة أخرى مميِّزة لكاملي الإيمان، فهم يومنون بأن كل ما يملكونه من نفس ونفيس إنما هو عَطِيَّة من الله وَهِبَةٌ منه، ولذلك فهم لا يبخلون ببذل هِبَاته وَعَطَايَاهُ، بما فيها المُهَجُ والأرواح، ما دامت في سبيله وابتغاء مرضاته.

وَعقَّبَ كتابُ الله على هذه الصفات المثالية لأهل الكمال من المومنين، بما يفيد أن المتصفين بها قولاً وعملاً، والعاملين بمقتضاها سراً وعلناً، هم «الصادقون» في إيمانهم، إذْ تشهدُ بذلك تصرفاتهم وتضحياتهم، كما يشهد به وفاؤُهم وثباتُهم، فقال تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الصَّـٰدِقُونَ ﴾، بخلاف أولئك الأعْراب الذين يَمُنُّون على رسول الله بإعلان إسلامهم، وكونِهم لا يقاتلونه مثل بقية العرب، فهؤلاء لا زالوا في المرحلة الأولى من مراحل الإيمان، وهم يتدرجون في طريقهم إلى بقية المراحل، بقدر ما

تخالطُ بَشاشةُ الإِيمان قلوبَهم يوماً بعد يوم.

ثم خاطب كتابُ الله أولئك «الأَعراب السُّذَّج»، مُبيِّناً لهم أن الحق سبحانه وتعالى ـ الذي يعلم السر وأخفى ـ غَنِيٌّ عن أن يكشِفوا له عما في ضمائرهم، فمَن أحاط بكل شيء علماً، وهو يعلم ما في السماوات ومَا في الأرض، لا يتوقف على تصريحاتهم، ليَطَّلِع على مكنوناتهم، ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

وكشفت الآياتُ الكريمة الستار عن طبيعة الموقف الساذج الذي وقفه أولئك الأعراب، والذي دعا إلى تأديبهم وتهذيبهم حتى لا يعودوا لمثله، فقال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُمْ ﴾، ثم يَتَّجِهُ إليهم خطاب الله على سبيل التنزل، بأنهم على فرض أنهم صادقون في الجمع بين الإِسلام والإِيمان، فإن المِنة في إسلامهم وإيمانهم إنما هي لله ورسوله، إذ هو الذي هداهم إلى طريق الإِيمان أولاً وأخيراً، وذلك قوله تعالى: ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

وَخُتِمَت سورة «الحُجُرات» المدنية بما يؤكد إحاطة علم الله بكل شيء، ولا سيما العلم بغيب السماوات والأرض، بما فيه غَيْبُ السرائر والضمائر، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

والآن فلنقبل على تفسير سورة (ق) المكية، مستعينين بالله جلت قدرته وأول شيء يستلفت النظر في هذا المَقام هو أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه السورة الكريمة يوم الجمعة على المنبر إذا خطب الناس، كما روى ذلك مسلم في صحيحه، وأبو داود والنسائي وابن ماجه في السنن، وقد تلقاها من لسان رسول الله ﷺ وحَفِظَها عددٌ من الصحابة عن هذا الطريق، قال ابن كثير: «والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكِبار كالعيد والجُمَع، لِاشْتَمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور، والمَعاد والقِيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب».

وأولُ ما تتحدث عنه آيات هذه السورة الكريمة، كتاب الله المجيد، الملتَفُّ في حُلل المجد والعظمة، وها هنا نجد الحق سبحانه يُقسِم به، دلالةً على عظيم منزلته عنده، وإرشاداً إلى المنزلة العظمي التى يجب أن يحتلها في قلوب الناس وفي حياتهم اليومية.

وحرف (قٓ) الذي هو أول حرف في كلمة «قرآن» وأول حرف ورد في هذه السورة حتى سميت باسمه، إشارةٌ إلى أن كتاب الله المعجز للبشر يتألف لفظه من نفس الحروف التي ننطق بها، غير أَنه لا يَقدِر على تأليفه المعجز أَحدٌ سوى الله، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنَ امْرِنَا ﴾، (الشورى: ٥٢)، كما أن المادة التي يتكوَّن منها الأَحياء مُلقاة على قارعة الطريق، بحيث يراها الناس ويعيشون معها، ولكنهم لا يستطيعون أَن يُؤلِّفوا

منها ولو كائناً حَيّاً واحداً في أبسط صُوَرِه وأشكاله، لأَنَّ ذلك من صُنع الله وحده.

ويشير كتاب الله إلى تعجب المشركين واستغرابهم من إرسال رسول إليهم من بينهم، أي من البشر لا من الملائكة، ومن العرب، لا من بني إسرائيل، بَعْدَ أن ظَلَّت النبوةُ والرسالة مستمرةً في بني إسرائيل زمناً طويلاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾.

وعَـرَّجَ كتابُ الله على عقيدة «البعث» التي هي عقيدة أساسية في دين الله الذي لا يتبدل، والتي دعا إلى الإيمان بها كافةُ الأنبياء والرسل، وتحدث عن الشُّبَه السخيفة والحجج الواهية، التي يلوكها بألسنتهم مَنْ لا يُومنون بهذه العقيدة الثابتة، ومَرَدُّ شُبَهِهم كلِّها إلى استبعاد الحياة من بعد الموت، نظراً لما يلحق جُثث الأموات من تحلل وفناء، ناسين أو متناسين أن الله الذي أنشأ الحياة قبل الموت هو الذي تكفل بأن ينشىء الحياة بعد الموت، فنشأةُ الحياة بالنسبة إلى قدرته سبحانه وتعالى عملية سابقة أولاً، ومكرّرة ثانياً، وليس فيها ما يُستغرَب ممن هو على كل شيء قدير، وهو بكل شيء عليم، وذلك قوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿أَ. ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُـرَاباً ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾، أي: بعيد الوقوع، ثم يتولّى الحق سبحانه وتعالى الرد عليهم قائلاً: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌ ﴾، وهذا هو الجواب عن القَسَم الذي جاء في مطلع سورة «قٓ» حسبما حكاه

ابن جرير الطبري عن بعض النحاة، كما رَدَّ الحقُّ سبحانه على منكري البعث ردّاً مُفحِماً إذْ قال: ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.

ويعرِضُ كتاب الله بعض آيات الله البارزة في الآفاق، مما يدل على قدرته، وعلمه وحكمته، ويَصِف بالخصوص كيف يُحيِي الله الأرض بعد موتها، مُبَيِّناً أنَّ حَياة الإنسان بعد موته شبيهة بها كل الشَّبه: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَالِكَ الْخُرُوجُ ﴾، فخروج الإنسان من تحت الأرض بعد موته، وبعثُه في الوقت المعلوم، عمليةٌ لا تختلف في جوهرها كثيراً عما يراه الناس في كل وقت دون أن ينتبهوا إليه، إذْ تكون الأرض هامدة قاتمة مَيِّتة من أثر القَحط والجَدب، فينزل عليها المطر من عند الله، وإذا بها تُصبِح مضرِب الأمثال في الخِصب والنَّماء والإنتاج، ﴿ كَذَالِكَ الْخُرُوجَ ﴾.

وأشارت الآيات الكريمة إلى مصير المكذبين بالرسالة، وفي طليعتهم: ﴿ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾، والمراد «بالرَّسِّ» هنا البير المَطوية، غير المبنية، والمراد «بالأَيْكَة» الشجرُ الملتف الكثيف، وسبق ذكر «أصحاب الأيْكة» في الآية الثامنة والسبعين من سورة «الحِجْر» وفي الآية السادسة والسبعين بعد المائة من سورة «الشورى»، وفي الآية الثالثة عشرة من سورة «ص».

واستعرض كتابُ الله حالةَ الإنسان المتمرد على طاعة الله، كيف يكون أثناء حياته، وعند موته، وحين بعثه، ووقتَ حسابه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾، أي: أقرب إليه من العِرق الذي يجري فيه دمه، وتتم بواسطته دورتُه الدموية، ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾، ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾، ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾، ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾.

وأجملَ كتاب الله في إحدى آيات هذا الربع ما يكون عليه المكذبون بالحق في كل عصر وجيل، أفراداً وأُمماً، من اضطراب في الفكر، وتناقض في الرأي، وقلَق في النفس، وحَيْرة في الاتجاه، بسبب أنهم لم يعتصموا بالحق، فتقاذفتهم الأهواء المختلِفة من كل جانب، وتجاذبتهمُ التَيارات المتعارضة من كل فجّ، وذلك قولُه تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾، قال ابن كثير: «والمريج المختلِف المضطرب الملتبس، كقوله تعالى في سورة «الذاريات» التالية: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾. وهذا حال كل من خرج عن جادة الحق، وارتمى في أحضان الباطل، مهما قال أو فعل بعد ذلك فهو باطل، لأنه دخل في تِيه الحَيْرة والغواية، الذي لا تُعرفُ له بداية ولا نهاية.

الربع الأخير من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

قَالَ قَرِينُهُۥ
رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ
وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ
لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾
وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ
حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا
بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾
وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ
هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى
ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾
وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ

مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ
ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ
عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ
وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾
فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾
وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾
قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ
ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم
بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ
ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ
ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ
حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ
أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾
فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ
فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ
بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ
خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ
ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾
قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

الربع الأخير من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب الثاني والخمسين في المصحفِ الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «قٓ» المكية: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾، إلى قوله جلّ علاه في سورة «الذاريات» المكية أيضاً: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

في نهاية الـربع المـاضي تحدث كتـاب الله عن المَلَك المُوَكَّل بتسجيل عمل ابن آدم، وأنه سيشهد على ابن آدم يوم القيامة، بكل ما فعل، إذْ يكون السجِل الذي أعده عن حياته مهيَّئاً حاضراً من غير إبطاء ولا انتظار، ودون زيادة ولا نقصان ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾، فيصدُرُ حكم العلي الأعلى في حقه بما هو أهل له من ثواب أو عقاب.

وفي بداية هذا الربع تحدث كتاب الله عن قرين للإنسان من نوع آخر، ألا وهو «قرين السوء» الذي يُزيِّن له الشر، ويوقِعُه في شِباك الخبال والضـلال، وقرين السـوء الأكبر هـو الشيطان الرجيم، ثم أولياؤه ومساعدوه الأقربون، المجندون تحت لوائه

لإغواء الخلق، من الدُّعاة المفسدين، فهذا القرين الذي يكون من بين قرناء السوء مستشاراً للإنسان، ومحلاً لثقته طيلةَ حياته، هو نفسُه الذي يتبرأ من ابن آدم يوم القيامة أمام الله، مُلقِياً على عاتقه وحده تَبِعةَ أعماله وتصرفاته، متهِماً إياه بأنه هو الذي اختار لنفسه بمحض إرادته الضلالَ على الهدى، والشرَّ على الخير: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَـٰكِن كَانَ فِي ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ﴾، وقد جاء ما يُشبه هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ (إبراهيم: ٢٢).

ثم أشارت الآيات الكريمة إلى ما يُنتظَر أن يقوم يوم القيامة بين الشيطان وضحاياه، من تَلاؤم وتخاصم أمام الله، فيأمر الحق سبحانه بوضع حد للخصام والمَلام، إذ لا محل لهما في ذلك المَقام: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

ويصِفُ كتابُ الله الحالة التي تكون عليها جهنم، وهي تستقبل أفواج المشركين والكافرين، والمُصِرِّين على الذنب والعصيان من العصاة المذنبين، ﴿يَوْمَ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

وينتقِلُ كتابُ الله إلى وصف الجنة التي أُعدت للمتقين، وما يلقَوْنه فيها لدى مَلائكة الرحمن من الثناء العاطر وحسن

الاستقبال، جزاءَ ما قاموا به ومَارَسُوه في حياتهم من صالح الأعمال، ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾، إذْ كل ما هو آت قريب، وفي خلال هذا الوصف نوَّهت الآياتُ الكريمة بالأوصاف التي رَشَّحَت أهلَ الجنة للجنة، وذلك قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾، و«الأواب» هو الذي إذا أذنب بادر إلى الإقلاع عن ذنبه وتاب منه توبة نصوحاً، و«الحفيظ» هو الذي إذا عاهد الله حفِظ العهد، وحافظ عليه من المهد إلى اللحد، ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾، أي: مَن راقب الله وإن كان غائباً عن أعين الرُّقباء، وهذه الآية شبيهة بقوله ﷺ في الحديث الشريف: «ورَجُلٌ ذكَر اللَّهَ تعالى خالياً ففاضت عيناه»، من بين السبعة الذين يُظِلُّهم الله بظله يوم لا ظل إلاّ ظله. ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾، أي: لقيَ الله بقلب سليم يملؤه الخشوع والخضوع.

وقولُه تعالى: ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ إشارةٌ إلى التحية التي يتلقى بها ملائكةُ الرحمن ضيوفَهم من أهل الجنة، عندما يأذنون لهم بالدخول إلى دار الخلود، التي لا يفارقونها ولا يَبْغُونَ عنها حِوَلاً: ﴿ لَهُمْ مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾، أي: مهما اختاروا وجدوا، ومهما طلبوا أُحضر لهم، وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾، كقوله تعالى في سورة يونس (٢٦): ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وقوله جلّ علاه في سورة التوبة (٧٢): ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

وعادت الآيات الكريمة مرة أخرى إلى تذكير المشركين بمصارع الأمم الغابرة التي أُصَرَّت قبلهم على الضلال، فأصبحت

مضرب الأمثال بين بقية الأجيال، ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُواْ فِي الْبِلَادِ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى سابقة: ﴿ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (غافر: ٨٢)، قال قتادة: «نَقَّبُوا في البلاد»، أي: ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمكاسب والمتاجر أكثرَ مما طُفتم. يقال لمن طَوَّف في البلاد «نَقَّبَ فيها». وقولُه تعالى: ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾، أي: لا مَفرَّ لهم ولا لكم من عذاب الله، وكما أن قوتهم، وثروتهم لَمْ تحولا دون قضاء الله وقَدَره، فلن تُفلتوا أيها المشركون من قبضة الله القاهر فوق عباده.

ثمّ عَقَّب كتابُ الله على ما استعرضه من أحوال أهل الجنة وأحوال أهل النار، وعلى ما وصفه مِن مصارع الغابرين، ومواقف المكذبين بالرسالة من السابقين واللاحقين، بما يفيد أن الحكمة في هذا الاستعراض إنما هي تنبيه من له قلبٌ حَيّ وذهنٌ متيقظ، إلى استخلاص العِبْرة والانتفاع بالذكرى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى التذكير بقدرة الله، بديع السماوات والأرض، والتذكير بكونه سبحانه منزَّهاً عن أن يلحقه أيُّ تعب أو إعياء، لا بالنسبة لإيجاد المخلوقات، ولا بالنسبة لإمدادها، لا بالنسبة للنَّشأة الأُولى، ولا بالنسبة للنشأة الآخرة، ويدخل في ذلك دخولاً أوَّليّاً عمليةُ البعث والنشور، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾، أي: ما مسنا تعبٌ ولا نَصَب، وإلى

نفس هذا المعنى يشير قولُه تعالى في سورة (الأحقاف: ٣٣): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقولُه تعالى في سورة (النازعات: ٢٧) ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، وقولُه تعالى في سورة (غافر: ٥٧): ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾.

وقد نبهنا في حديث سَابق إلى أن «الأيام الستة» التي خلق الله فيها السماوات والأرض وما بينهما ليست من جنس أيامنا التي نقضيها فوق هذا الكوكب الأرضي، وإنما هي من الأيام التي أشار إليها قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧)، وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج: ٤)..

واتجه الخطاب الإلّهي إلى الرسول الأعظم عليه السلام داعياً إياه إلى المزيد من الصبر على أذى المشركين، وإلى الالتجاء إلى الله بالعبادة والتسبيح والدعاء: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾.

وخُتِمت سورةُ (قٓ) بنفس الموضوع الذي كان فاتحة لها، وهو موضوع البعث والحياة بعد الموت: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا

ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الذاريات» المكية أيضاً، وفي بدايتها نجد التذكير بنفس البعث والمعاد، والقَسَم من الله على وقوعهما: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا فَالْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا فَالْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾، والمراد «بالذاريات ذَرْوا» الرياح، والمراد «بالحاملات وِقْرا» السُّحُب، لأنها تحملُ الماء، والمراد «بالجاريات يُسْراً» السُّفُن، لأنها تجري في البحر بسهولة، والمراد «بالمُقَسِّمَاتِ أَمراً» الملائكة، لأنها تنزل بأوامر الله الكونية والشرعية وهذا التفسير مروى عن عمرَ بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما.

وتحدث كتابُ الله عن «الخَرَّاصين» المُرتابين الذين يَكذِبون على الله ورسوله: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّٰصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾، وعن المتقين وما ادَّخر لهم الحق سبحانه في دار النعيم، جزاءَ إيمانهم وإحسانهم، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾.

وأَشار كتابُ الله إلى ما لله من آيات ناطقة بقدرته، متجلية في الأرض والسماء والأنفس، فقال تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾.

وخُتم هذا الربعُ بالحديث عن قصة إبراهيم وضيوفه من الملائكة المُكرَمين، وكيف أن إبراهيم الخليل عليه السلام استقبل ضيوفه أحسن استقبال، حتى أصبح عملُه دستوراً في «آداب الضيافة» معمولاً به عند السَّلف والخلَف، وذلك ما يشير إليه قولُه تعالى في هذه القصة: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ ﴾، ثمّ قولُه تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ ﴾، أي: أن إبراهيم جاء لضيوفِه بالطعام بسرعة ودون سابق إشعار، ﴿ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴾ أي أنه أتى بأفضل ما عنده، وهو عجل فَتِيٌّ مشويّ (فَقرَّبَهُ إليهم) أي وضعه بين أيديهم، ثم قال لهم على سبيل العَرْض والتلطُّف، لا على سبيل الأمر والتكلف: ﴿ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾؟.

واشتمل سياق هذه القصة على تبشير الملائكة لإبراهيم بغلام يولَد له: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴾، لكنَّ امرأته استغربت من هذه البشرى، نظراً لكونها تشعر أنها ﴿ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴾ إلاّ أن الملائكة ردُّوا عليها ردّاً يُزيل من ذهنها كلَّ تعجب واستغراب، ﴿ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾، وقد حقق الله لإبراهيم وزوجه هذه البشرى بولادة إسحاق عليه السلام، لأن الأقدار الإلّهية هي التي تكون نافذة الأحكام على الدوام، ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس: ٨٢).

الربع الأول من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ
مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ
رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا
وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ
يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ
وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ
كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ
رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ
وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾
وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا

فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾
وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾
كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ
أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ
فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾
وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن
رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ
ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا
يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾
وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ
مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ
نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾

أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا
تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ
فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ
عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ
عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم
مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم
بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا
لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾

الربع الأول من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «الذاريات» المكية: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، إلى قوله جلّ علاه في سورة «الطور» المكية أيضاً: ﴿يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾.

في بداية هذا الربع يواصل كتاب الله الحديث عن إبراهيم وضيوفه من الملائكة المكرمين، ويبين لنا كيف استفسر إبراهيم ضيوفه عن المهمة التي أُرسلوا لإنجازها في هذه الرحلة المستعجَلة، كما يعرض علينا كتاب الله فحوى الجواب الذي أجابوا به إبراهيم عن سؤاله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، أي: ما شأنكم، وفيم جئتم أيها المبعوثون، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾، والمراد «بالقوم المجرمين» هنا قوم لوط حسبما يؤخذ من قوله تعالى في آية أخرى عن قصة إبراهيم وضيوفه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ

يَـٰإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ (هود: ٧٤، ٧٥، ٧٦). ثم يكشِفُ ضيوف إبراهيم لمُضِيفِهم الكريم، كما في نفس هذه الآية، عن الغَرض الأساسي من بعثهم وإرسالهم إلى قوم لوط، ألَا وهو إنزال العقاب الإلَهي بهم، بِانْتِقاء نوع خاص من الحجارة وقعَ عليه الِاختيار الإلَهي، ورجمِهم به من السماء، فيفعل بهم فعل الطاعون والوباء، وذلك قوله تعالى على لسان ضيوف إبراهيم: ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾.

غيرَ أن الله جلت قدرته، ودقت حكمته، لم يجمع في عذابه بين «المسرفين» و«المومنين»، فيؤاخذ هؤلاء بجرم أولئك، بل نَجَّى من العذاب لوطاً ومن كان معه من المومنين، وذلك قوله تَعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ اَلْمُومِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ اَلْمُسْلِمِينَ ﴾، وقد نصّ كتابُ الله في آية أخرى على أن امرأة لوط - واسمها «وَاغِلة» فيما يرويه المؤرخون - لم تكن من بين الناجين، بل كانت من الهالكين، كما قال تعالى في سورة (العنكبوت: ٣٢): ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا، لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا اَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ اَلْغَـٰبِرِينَ ﴾.

ولا يستغربنَّ أحدٌ اهتمامَ إبراهيم الخليل بقصة قوم لوط، وحوارَه مع ضيوفه في شأن لوط وقومه، فعلاقة إبراهيم الخليل بلوط عليهما السلام علاقة وثيقة جداً، إذْ أن لوطاً هو ابن أخ إبراهيم، وكانَ إبراهيمُ الخليل يحبه حباً شديداً، واشترك معه في رحلته إلى الشام، إلى جانب امرأته «سارة» فاستقر إبراهيم

بفلسطين، واستقر لوط بالأردن، وأرسله إلى أهل «سَدُوم» وما يليها، وكانوا كفاراً يأتون من الفواحش ما لم يسبقهم به أحد من العالمين إذِ استغنى الرجالُ بالرجال والنساء بالنساء، فلما طال تمادِيهم في غيِّهم ولم يَنزَجروا دعا عليهم لوط عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِى عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (العنكبوت: ٣٠)، فأجاب الله دعاءه، وانتصر له بإهلاك مُكذِّبيه، ودَمَّر قُرَى قوم لوط، فأصبحت أثراً بعد عين، كما قال تعالى: ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ (هود: ٨٢).

ثم عقَّب كتابُ الله على ما دار من الحِوار بين إبراهيم الخليل وضيوفه حول مصير قوم لوط، بما يفيد أن العذاب الأليم الذي استحقوه إنما ضرب الله به المَثَل لمن يأتي بعدهم، حتى يكون لغيرهم عبرةً وذكرى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾، وقد أثبت البحث أن المكان الذي كان يعيش فيه قوم لوط قد تحوَّل منذ حلَّ بهم عذاب الله إلى بُحَيْرة خبيثة مُنتِنة يَتجنبها الناس.

ثم أعاد كتابُ الله الكَرَّة بذكر قِصَص الأمم الغابرة التي كذبت الرسل وأعرضت عن رسالات الله، وورد ذلك هنا على وجه الإجمال، بعد ذكرها مفصلة في سُوَرٍ أُخرى، وفي أول القائمة قصةُ «فرعون» وقومه وما أُصابهم من الغرق، وقصة «عادٍ» وما أصاب ديارهم من دَمار بالريح، وقصة «ثمودَ» وما فعلت بهم الصاعقة، وقصة «قوم نوح» وما فاجَأَهم من الطوفان، وذلك قوله

تعالى: ﴿ وَفِى مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾، أي: بحجة قاطعة، ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾، أي: اغتر فرعون بقوته، واعتمد على قومه، ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾، أي: الريح التي تُهلك ولا تُنتج شيئاً، ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾، أي: إلّا قضت عليه بالذبول والفناء، كالجسم المنحل الفاني، ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ مِن قِيَـٰمٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾. وهـذه الآية شبيهـة بقولـه تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَـدَيْنَـٰهُمْ فَاسْتَحَبُّـواْ الْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَـأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَـةُ الْعَذَابِ الْهُـونِ بِمَا كَـانُواْ يَكْسِبُـونَ ﴾ (فصلت: ١٧)، ويتصل بها قولُه تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾ (هود: ٦٥)، ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾، أي: واذكر قوم نوح من قبل بقية الأقوام، لأنهم سبقوهم جميعاً، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَـٰسِقِينَ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى تذكير عباده بوجوب النظر والتأمل في كتاب الكون الأكبر، المفتوحةِ صفحاتُـه لعقول النـاس وقلوبهم جميعاً، بما فيـه من سماء وأرض وأحيـاء، وما فيـه من أنواع وأصناف بلغت في التعدد والتنوع إلى حد يفوق كل إحصاء، وذلك قولُه تعالى: ﴿ وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ ﴾، أي: بنيناها بقوة، ﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا ﴾، أي: جعلناها مستقراً ملائماً للإنسان كأنها الفراش الذي يأوي إليه، ونظراً لكونها مَهداً لحياة الإنسان فقد مَهَّدنا له فيها سبل العيش، ووفَّرنا له فوق سطحها وسائل الحياة

وإمكاناتها، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، أي: أن قدرة الله بلغت غاية الغاية في الإنشاء والإبداع على غير مثال سابق: حتى أنها لم تكتف بخلق جنس واحد، أو نوع واحد، أو صنف واحد، بل انفردت بخلق مختلِف الأجناس والأنواع والأصناف، وشَمِل ذلك جميع المخلوقات، بما فيها الحيوانات والنباتات والجمادات، فهناك على سبيل المثال سماء وأرض، وبر وبحر، وشمس وقمر، وليل ونهار، وضياء وظلام، وحياة وموت، وسعادة وشقاء، وهكذا إلى ما لا نهاية له، حتى «الذَّرّة» نفسها مؤلفة من زَوْج من الكهرباء: مُوجِب وسالِب.

وقولُه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تنبيهٌ على أن استخلاص العبرة، والوصول إلى معرفة الله عن طريق إعمال الفكر في مخلوقاته، هو الثمرة المرجوة من النظر فيها، والتأمل في عجائبها وأسرارها، ولذلك وقع التعقيب على هذه الآية مباشرةً بقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾، والفرار إلى الله معناه التخفُّف من أثقال البشرية، والتحرُّر من أغلالها الوهمية، وفي الطليعة الفرار من عبادة الأوثان، إلى عبادة الرحمن، والفرار من الضلال إلى الهدى، ومن الجهل إلى العلم، ومن العُبودية للأصنام والطواغيت إلى العبودية لله وحده، وبها يتم التحرر الكامل الشامل، ويتحقق الاعتماد الكليُّ في جميع الأمور على خالق الخلق، ورازقهم الذي يُحيي ويميت: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وَذَكَّرَ كتابُ الله بظاهرة غريبة سجلها تاريخ النبوات

والرسالات منذ البداية إلى النهاية، ألا وهي تَصَدِّي طائفة من البشر لمحاربة الرسل، والتشنيع عليهم، والتشهير بهم، ووصفهم بأقبح الصفات، حتى كأن خصوم الرسالات الإلٓهية يتواصَوْن فيما بينهم عَبْرَ الأجيال بنفس الادعاءات، إذ يرددون على ألسنتهم دائماً نفس الاتهامات، وإلى هذه الظاهرة الغريبة يشير قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى اَلذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ اِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ اَوْ مَجْنُونٌ اَتَوَاصَوْاْ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾، وإلى هذا المعنى نفسه يشير قوله تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ (فصلت: ٤٣).

وكَأَنَّ كتابَ الله عندما ذَكَّر خاتِم الرسل عليه الصلاة والسلام بهذه الظاهرة الغريبة التي واجهها جميع الأنبياء والرسل من قبله أراد أن يُهدِّىء من رَوْعه، ويخفف عنه وقعَ الاتهامات التي يوجهها إليه المشركون من قومه، ولذلك أَتْبَعها بدعوته إلى تجاهل ما يوجهونه إليه من الأذى والتعنيف، والإعراض عنه كأنه لم يكن، فقال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنْتَ بِمَلُومٍ وَذَكِّرْ فَإِنَّ اَلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُومِنِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالانسْ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ يُّطْعِمُونِ، إِنَّ اَللَّهَ هُوَ اَلرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ اِلْمَتِينُ ﴾، إشارةٌ إلى أن الحق سبحانه وتعالى متصف بصفة «الغِنَى المطلق»، فهو غنيّ عن خلقه على الدوام، كما أن فيه إشارة إلى أن تحقُّق المخلوق بِكَوْنِهِ مخلوقاً، وبكوْنه محتاجاً على الدوام إلى رعاية خالقه، وإحسان رازقه، كَافٍ لأن يجعله مقبلاً

على الله، يبتغي طاعتَه ويلتمس رضاه، ويرجو نَواله ونُعماه، وإلاّ فكيف يُعقَلُ أن يعرف المخلوق أنه «مخلوق» ثم يتجاهل الله الذي خلقه ورزقه، وأوجده من العدم؟، ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾.

والآن وقد فرغنا من تفسير سورة «الذاريات» المكية نشرع في تفسير سورة «الطُّور» المكية أيضاً، مستعينين بالله. وأول ما يستقبلنا في هذه السورة الكريمة قَسَمٌ من الله عظيم، على أن «الساعة» آتية لا ريب فيها، وعلى أن المَعَاد حَقٌّ بكل توابعه ونتائجه، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالطُّورِ، وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْراً وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ، سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. ومعنى «الطّور» الجبل إذا كان فيه شجر، ومعنى «البحر المسجور» الذي يتأجج ناراً، و«المَوْر» تحرك السماء بأمر الله ومَوْج بعضِها عند قيام الساعة، ومعنى «يُدَعُّون إلى نار جهنم» يُدفعون إليها ويُساقون.

وبعدَما وصفت الآيات الكريمة حالة المكذِّبين بالرسل، وما أعد الله لهم في جهنم من العذاب الأليم، تولت بالشرح والوصف والمقارنة حالة المتقين وهم في جنات ونعيم، وأشارت

بالخصوص إلى ما يتفَضَّلُ به الحق سبحانه عليهم، إذْ يجمعُ شمل المومنين من الآباء والأبناء في مَقام واحد، ويُقِرُّ أعين الآباء، فيُلحِق بهم ما لهم من أبناء، وإن كان بعضُهم أعلى درجة من البعض الآخر عند الله، بالنسبة إلى عمله الصالح وتقواه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَـٰنٍ اَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُمْ مِّن عَمَلِهِمْ مِّن شَيْءٍ﴾.

ولَمَّا أخبر كتاب الله عن «مَقام الفضل» وهو رَفْعُ درجة الأبناء إلى منزلة الآباء، من غير عمل كاف يقتضي ذلك، أخبر عن «مَقام العدل»، وهو أنه لا يؤاخِذ أحداً منهم بذنب الآخر وأَنَّ كل امرىء مُرتَهَنٌ بعمله، لا يُحمَل عليه ذنبُ غيره من الناس، سواءٌ كان أباً أو ابناً، فقال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَـٰتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ (الأنعام: ١١٥).

الربع الثاني من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ
كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾
قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ
إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ
بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ
رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾
أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا
صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾
أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ
خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ

فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ
وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾
أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟
سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ
يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ
ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾
ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾
مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ

نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾
إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ
مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ
الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾
إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن
سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم
مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾

الربع الثاني من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الثاني من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قوله تعالى في سورة «الطور» المكية: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُـؤٌ مَّكْنُونٌ﴾، ونهايتُه قوله تعالى في سورة «النَّجم» المكية أيضاً: ﴿أَمْ لِلإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ فَلِلهِ اِلْآخِرَةُ وَالأولَىٰ﴾.

في بداية هذا الربع يصف كتاب الله نوع الأحاديث التي يتبادلها أهل الجنة فيما بينهم، عندما يستقرون، بفضل الله، في «دار الخلود» فها هم أولاء يُقبلُ بعضُهُم على بعض في مودة وإخاء، ويسأل بعضُهم بعضاً في ثقة واطمئنان وها هم يستعيدون ذِكْرَيَاتهم عما مضى لهم في الحياة الـدنيا، وهـا هم يُحلِّلون حالتهم النفسية والخُلُقية التي كانوا عليها في «دار التكليف» وها هم يستخلِصون النتائج والعِبَر مما كانوا عليه، ومما صاروا إليه، وذلـك ما تضمَّنـه قولُـه تعـالى: ﴿وَأَقْبَـلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اَللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَيْـنَا عَذَابَ اَلسَّمُومِ، إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ أَنَّهُ هُوَ اَلْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

ومعنى قول أهل الجنة: ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أي: كنا في حد ذاتنا، وفيما بين أهلنا ووسَط عشيرتنا، ملتزِمين لتقوى الله، متجنِّبينَ لمعصية الله، خـائفين من حساب الله، ولم نكُن طاغينَ ولا متمرِّدين ولا غافلين، ومعنى قول أهل الجنة: ﴿ فَمَنَّ اَللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقِينَا عَذَابَ اَلسَّمُومِ ﴾، أن الله تعالى تفضل علينا بما آتانا من النعيم المقيم، وبما نَجَّانا منه من العـذاب الأليم. واعترافُهم في هذا المقام «بمنّة الله عليهم» دون «الامتنان عليه» بعَمَلهم، أو باستحقاقهم للجزاء عليه، يَدُلُّ على مبلغ ما هم عليه من أَدَب مع الله، فهم يعتبرون الأعمال الصالحة التي عملوها في «دار الفناء» مُجرَّد توفيق من الله، ويَعُـدُّون الجزاء الحسن عليها في «دار الجزاء» مجردَ مِنَّة من الله، وذلك منتهى الكمال في الأدب، في الدنيا والآخرة.

ومعنى قول أهل الجنة: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ أَنَّـهُ هُوَ اَلْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾، أنهم كانوا على الدوام يطرقون باب الله، دون أن يمَلُّوا من الدعاء والتضرع والابتهال، إذْ كانوا واثقين بأن «الدعاء هو مُخُّ العبادة» كما جاء في الحديث الشريف، بحيث يلتجئون إليه سبحانه في السراء والضراء، والشدة والرخاء، إيماناً منهم بأنه لا ضارَّ ولا نافع سواه، وتجاوُباً منهم مع التوجيه الإلّهي القاطع: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ (النمل: ٦٢)، وهم عندما كانوا يتوجهون بدعائهم، ويتَّجهون فيه إلى الله وحده، لم يكن يُداخلُهم أدنى شك في برِّ الله لهم، ورحمته إياهم، إذ هو سبحانه «البَرُّ الرحيم» بأوسع معاني البر، وأعم وجوه الرحمة.

وانتقل كتاب الله إلى تثبيت قلب الرسول عليه السلام، وحملِه على الصبر إلى النهاية، في سبيل تبليغ الرسالة، دون أن يتأثر بما يوجهه إليه أعداءُ الله من قذف بالكِهانة حيناً، وبالجنون حيناً، فقد حماه الله منهما، وأنعم عليه بأكبر النِّعم، إذِ اختاره سبحانه وتعالى لأمر عظيم، وأكرمه بخُلُق عظيم، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾.

ثم استنكر كتابُ الله ما يُلفِّقُه المشركون أحياناً أُخرى من وصف الرسول عليه السلام بأنه مجرد «شاعر»، على نَمَط ما اعتادوه من الشعراء المغرفين في الخيالات والنَّزَوات والأحلام، وإن كانوا يعرفون حق المعرفة أنَّ كلام الله الذي يُتلَى عليهم ليس من الشعر ولا من النثر في شيء، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾، أي: يزعمون أنه مجرد شاعر، ويرون أنه لا بأس ـ إذا اقتضى الحال ـ بِغَضِّ الطَّرْفِ عنه، في انتظار أن يدرِكَه الموت، فيستريحوا منه ومن شعره، كما كان أمرُهم مع الشعراء الأولين، ثم يرُدُّ عليهم كتابُ الله قائلاً: ﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾، أي: قل لهم يا محمد: انتظروا فإني منتظر معكم. وكأنه يقول لهم: إن الأمر هنا على خلاف ما تظنون، فهو يتعلق برسالة خالدة إلى يوم الدين، يموتون هم جميعاً ولا تموت هي أبداً، وإنَّ الأمر يتعلق بكتاب إلٓهي خالد، قد تكفل الحق سبحانه وتعالى بحفظه في الصدور، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وليس الأمر متعلقاً ـ كما يَدَّعُون ـ «بشعر جاهِليّ» يعيش في ظل الجاهلية، ثم يموت وينتهي مفعوله

إلى الأبد. كما استنكر كتابُ الله ما يدَّعيه المشركون في مناسبات أخرى، مِن أن الوحي الذي تنزَّل على رسول الله ﷺ إنما هو مجردُ «تَقَوُّل» من عنده وافتراءٍ على الله، متحدِّياً لهم أن يأتوا بمثله إذا كان ما يَدَّعُونه حقاً وصدقاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾، وهيهات لهم ذلك، فإن كتاب الله تَسْرِي فيه روح من أمر الله، ومعانيه نابعةٌ من مَعِين علم الله، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحسن في كل شيء صنعاً.

وعرَّج كتابُ الله مرة أخرى على قصة «بدأ الخليقَة»، ومركز الإنسان الحقيقي بالنسبة لبقية المخلوقات، وتحَدَّى المشركين الذي يجهَلون أو يتجاهلون أن الله واحد أحد، وأنه لم يلد ولم يُولَد، وذلك قولُه تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ وقولُه تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

واستغرب كتابُ الله ما عليه المشركون من إعراض عن الرسالة العظمى التي جاءهم بها الرسول عليه السلام، رغماً عن أن هذه الرسالة مجردُ عطية إلَهية، وهِبة ربانية، تَكرَّم عليهم بها الحق سبحانه وتعالى، هدايةً لهم، وأَخذاً بيدهم، ورغماً عن أن القائم بها والداعيَ إليها لا يطلب لنفسه أيَّ أجر عليها، ولا

يُلزِمهم بأداء أيّ مَغْرَم خَفَّ أو ثَقُل، مُقابلَ تبليغها لهم، ونشرها بينهم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾.

وأشار كتابُ الله إلى أن العذاب الذي يسلطه الله على المشركين والمكذِّبين، ومَن لَفَّ لَفَّهم من العُصَاة المذنِبين، والْمُسْرِفين الظالمين، نوعان اثنان:

النوع الأول: «العذاب الأكبر» وهو العذاب الماحِق الساحق، الذي ينتهي بالإبادة والفناء في الدنيا، وبالخلود في جهنم في الآخرة.

النوع الثاني: «العذاب الأدنى» وهو العذاب الذي يراد به مجرد التذكير والتأديب والتَّلَوُّم في الدنيا، عسى أن يُقبل المشركون على الإيمان بالله، وعسَى أن يعودَ العُصاةُ إلى طاعة الله، وعسَى أن ينتهي الطُّغاة عن تعدي حدود الله.

فبالنِّسبة للنوع الأول قال تعالى: ﴿ وَإِنْ يَّرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ اَلسَّمَآءِ سَاقِطاً يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾، أي: إنْ يَرَوا عذاباً نازلاً عليهم من السماء يقولُوا جُحوداً وعناداً إنه سحابٌ مُقبل عليهم بالماء والحياة والبَرَكة، ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ الذِى فِيهِ يَصْعَقُونَ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾.

وبالنسبة للنوع الثاني قال تعالى في نفس السياق: ﴿ وَإِنَّ لِلذِينَ ظَلَمُواْ عَذَاباً دُونَ ذَالِكَ ﴾، وهذا النوع من العذاب يَبْتلى به اللَّهُ الأمم التي انحرفت عن الطريق السَّوِيِّ، ولا يرفعُه عنها إلّا

إذا عادت إلى رشدها، وخرجت من تِيه الغَواية والضلال، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (السجدة: ٢١).

وينتقلُ كتابُ الله من مُحَاجَّة المشركين، والرد على ادِّعاءاتهم الباطلة، ووصفِ ما هم عليه من الجحود والعناد، إلى مُخاطبة الرسول عليه السلام، ودعوتِه إلى الاِستمرار على ما هو عليه من صبر مُزدوج: صبرٍ في أداء الرسالة بكل تَفَانٍ وثبات وإخلاص، وصبرٍ على أذَى المشركين الذي لا ينقطع أبداً، والذي يأخذ كل يوم لوناً جديداً من التقولات والادِّعاءات وحرب الأعصاب، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، أي: أن الله تعالى قد تكفل بأن يعصمك من الناس، وبأن يرعاك بعينه التي لا تنام. وفي هذا الخطاب الإلٓهي الرقيق مُنتهى التأييد والإعزاز والإكرام.

ثم دَعا نبيِّه عليه السلام إلى الاستعانة على ما هو بصدده من أعباء الرسالة العظمى، بالعبادة والدعاء والتسبيح، فذلك أكبرُ مَدد يُمِدُّ الله به أصفياءهُ من خلقه: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ النُّجُومِ ﴾.

وبهذا العرض الواضح نختم سورة «الطّور» المكية، وننتقل إلى سورة «النجم» المكية أيضاً، وأول ما يواجهنا في هذه السورة الكريمة قَسَمٌ من الله عظيم على صدق الرسول في رسالته،

وعلى تصديق الوحي الذي ينزل عليه من عند الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَـٰحِبُكُمْ وَمَـا غَوَىٰ وَمَـا يَنـطِقُ عَنِ الْهَـوَىٰ إِنْ هُـوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾.

ويشير كتابُ الله في إيجاز وإعجاز إلى أول لقاء ونعارف تَمَّ بين رسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام في بداية نزول الوحي، عندما بعثه الله على رأس الأربعين، ورأى جبريلَ على صورته، وذلك قولُه تعالى: ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ ﴾، أي: ذو قوة، والمراد به هنا جبريل، ﴿ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾، أي: على بُعد ما بين القوسين أو أدنى، تعبيـراً عن مُنتهَى القرب منـه، ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْـدِهِ مَآ أَوْحَىٰ ﴾، أي: أوحى جبريلُ إلى عبد الله ورسوله ما أَوْحَـاهُ إليه ربُّه: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾، أي: أن رؤيـة النبي عليه السلام لجبريل الذي نـزل عليه بـالوحي كـانت رؤيةَ مشـاهدةٍ وعِيان، ويقين قاطع، بحيث لا تَقبَل شكّاً ولا جدالاً: ﴿ أَفَتُمَـٰرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾.

ثم أشـار كتاب الله بـالخصوص إلى لقـاء آخـر تَمَّ بين رسـول الله ﷺ وجبريـل عليه السـلام، إِذْ رآه على هيئته التي خلقَه الله عليها ليلة الإسراء والمعراج، وذلك ما يشير إليه قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَـأْوَىٰ، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنَ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾، يستفاد منه معنيان: المعنى الأول أن رؤية النبي ﷺ لجبريل (ع) ليلة الإسراء كانت رؤية حَقيقية ليس فيها أُدنى غلط في المشاهدة، مما قد يَعْتَورُ أعين الناس العاديين حيث يقعُ لهم أَحياناً غَلَط في الرؤية، وخَلْطٌ في النظر بالبصر، والمعنَى الثاني أن رسول الله ﷺ لم يُجاوزْ فِي هذا المقام العظيم ما أُمِرَ به، ولم يتطلع لكشف ما لم يُوذَنْ له فيه، ولم يَسأَل أَكثرَ مما أُعْطِي، فلا زَهْو ولا إلحاح ولا تَطَاوُل. بل كان عليه السلام في منتهى الطاعة ومنتهى الثبات ومنتهى الأدب. قال ابن كثير: «وما أحسن ما قال الناظم:

رأى جَنة المَأْوَى وما فوقَها وَلَوْ رأى غَيـرُه ما قَـدْ رآهُ لَتاهَـا»

وقولُه تعالى هنا: ﴿ لَقَدْ رأىٰ مِنَ ءايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾، تنويهٌ بما أَطْلَعَ اللَّهُ عليه خاتمَ الرسل عليه الصلاة والسلام، من آثار قدرته الباهرة، ودلائل سطوته القاهرة، في العالم العُلْوي الفسيح، وذلك عِلاوةً على ما أوحاه إليه في كتابه المبين، مِن الدلائل القاطعة، والحجج الساطعة. وحكمتُه سبحانه في ذلك كلِّه أن يُزَوِّد رسولَه بأكبر زاد من المعرفة واليقين، وأَن يُعِدَّه لحمل رسالته على أكمل وجه إلى العالَمين.

وانتهى هذا الربعُ بتسفيه معتقدات المشركين ومقدَّساتهم من الأَصنام والأَوثان: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ﴾، وبيَّن كتابُ الله أنهم لا يعتمدون في معتقداتهم الباطلة إلّا على مجرد الظنون والأَهواء والأَماني، وكل

منها لا يصلح أساساً للاعتقاد، ولا سَنَداً للسلوك: ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا اَلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى اَلاَنْفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ أَمْ لِلإِنسَـٰنِ مَا تَمَنّىٰ فَلِلَّهِ اِلاَخِرَةُ وَالأُولَىٰ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم

وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ
اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ
تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا
يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾
الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ
الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ
فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾
أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ
الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾
وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ
إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾
وَأَنَّهُۥ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾
وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ
رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾
وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ
أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾
هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا
مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ
وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا
سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾
وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا
تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾

خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾
مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾

الربع الثالث من الحزب الثالث والخمسين
في المصحف الكريم

عبــاد الله

موضوع حديثنا هذا اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم. ابتداء من قوله تعالى في سورة «النجم» المكية: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى اِلسَّمَـٰوَاتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْئاً اِلَّا مِن بَعْدِ أَنْ يَّاذَنَ اَللَّهُ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيَرْضَىٰ ﴾، إلى قوله تعالى في سورة «القَمَر» المكية أيضاً: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾.

كانت آخر آية في نهاية الربع الماضي هي قوله تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ اِلَاخِرَةُ وَالْاُولَىٰ ﴾، وأول آية تليها في ربع اليوم هي قوله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى اِلسَّمَـٰوَاتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْئاً ﴾، والآيتان مرتبطتان كل الارتباط، فكتاب الله يريد أن يؤكد للجميع، وخصوصاً لمن أشركوا بالله غيرَه، فعبدوا الأصنام والأوثان والشياطين، أو الملائكة، أن جميع ما يُخَيَّلُ إليهم أنهم يتقربون بعبادته، ويتوسلون به، ويُعلِّقون عليه الآمال، من غير الله، لن ينفعهم في الدنيا ولا في الآخرة، ذلك أن الحياة الأولى ـ وهي الدنيا ـ لا تُفلِت من قبضة الله، وأن الحياة الآخرة لا أَمر فيها ولا

سلطان لغيــر الله، ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾، ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ (غافر: ١٦). وما دامَتْ هذه هي الحقيقة الناصعة التي لا حقيقة سواها، فكلُّ ما يُمَنِّي به المشركون أنفسَهم ومَن لَفَّ لَفَّهُم من شفاعة الشفعـاء يوم القيـامة لا يُغنى عنهم من الله شيئاً، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِى شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾، اللهمّ إلاّ إذا أذن الله للشفيع بـأن يشفع، وللمشفوع فيه بأن يناله حظُّ الشفاعة، وذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾، على غرار قوله تعالى في آية الكرسي: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ (سبأ: ٢٣)، قال ابن كثير: «فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف تَرجُون أيُّها الجـاهلون شفاعـةَ هذه الأَصنام والأَنداد عند الله، وهو تعالى لم يَشْرَع عبادتَها ولا أَذِن فيها، بل قد نَهَى عنها على أَلْسِنَة جميع رُسله، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كُتبه» فالأَمرُ إذن متعلِّق بدءاً وختاماً بمشيئة الله ورضاه، وعليه لا على غيره يجب أَن يكون الاعتماد، وإليه لا إلى غيره يلزم أن يكون التوجه. على أَن نفس أولئك المقربين الذين تُعلَّق عليهم آمال الشَّفاعة للمذنبين، لا يسمحُ لهم مقتضَى ما هم عليه من الأَدب مع الله، والمعرفة الكاملة بمَدَى جلاله وعظيم سلطانه، أَن يتقدموا بين يديه، دُون إِذْنه ورضاه، أو أَن يشفعوا فيمن يعرفون أَنهم أعداءُ اللَّهِ، فضلاً عن أن يضمَنوا للمستشفِعين بهم مُسْبَقاً الغفرانَ والرِّضوان، ودخول الجِنان.

وأشارت الآيات الكريمة إلى معتقَد باطل من معتقدات المشركين التي جاء لمحاربتها القرآن، ألا وهو اعتقادهم أن الملائكة إناثٌ وبنات، بناء على مجرَّد الظنون والأوهام، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اَلذِينَ لَا يُومِنُونَ بِالَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ اَلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ اَلُانثَىٰ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ اِنْ يَّتَّبِعُونَ إِلَّا اَلظَّنَّ وَإِنَّ اَلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ اَلْحَقِّ شَيْئاً ﴾.

ثم تَوَجَّه الخطابُ الإلٓهي إلى الرسول عليه السلام، طالباً منه الإعراض عن المشركين الذين أُصروا على معتقدات الشرك، مع علمهم بأنها ضلال في ضلال وخَبال في خبال، ما داموا قد اختاروا لأنفسهم الاستمتاع البهيمي المطلق، بملذات الحياة وشهواتها، وفَضَّلوا عدم التقيد بأَي قيد من قيود الدين والأخلاق، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدِ اِلَّا اَلْحَيَوٰةَ اَلدُّنْيَا ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ اَلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اِهْتَدَىٰ ﴾.

وعادَ كتابُ الله مرةً أخرى للحديث عن الجزاء العادل الذي يناله المحسنون والمسيئون، مُبيِّناً أن كل ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما، بما فيهم الشفعاء والمقرَّبون الذين تُعلَّقُ عليهم الآمال، من طَرَف المقصِّرين المهمِلين لصالح الأعمال، إنما هو مِلْك لله وفي قبضته، وتحت قهره ومشيئته، وإذن فلا مفر للمُسيئين من انتظار العقاب، ولا سبيل لحِرمان المحسنين من انتظار الثواب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَافِي اِلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي اِلَارْضِ لِيَجْزِىَ اَلذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ اَلذِينَ أَحْسَنُواْ

بِـالْحُسْنَىٰ ﴾، فَتَفَرُّدُ الحق سبحـانه وتعـالى بمُلكه وحُكمـه هو الضمانة الوحيدة للجزاء العادل، الذي ينتظره الخلق جميعاً يوم القيامة، على يَدِ أحكَم الحاكمين.

ومن هذا الموضـوع انتقلت الآيات الكـريمة إلى وصف «المحسنين» الذين تنتظرهم «الحُسْنَى» عند الله، فأوضح كتابُ الله أن شأن المحسنين أن يجتنبوا كبائر الإثم، وأن يجتنبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأن يتوبُوا إلى الله توبة نصوحاً، بمجرد ما يقع منهم أدنى تقصير أو تفريط، «فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدمَ» كما قال عليه السلام، وذلك ما يشير إليه قـوله تعالى: ﴿ اَلذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ اَلاِثْمِ وَالْفَـوَٰحِشَ إِلَّا اَللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾.

وعَقَّبَ كتابُ الله على ما وصَف به المحسنين من عباده، بما يفيد أن الإنسان العادي قدخلق ضعيفاً عن مقاومة شهواته ونَزَواته في كل الأوقات، وأنه بحكم ضعفه البشري قد يتعرض لِارتكـاب بعض الذنـوب في بعض الفترات، ودواء ذلـك هـو المبادرة بالإقلاع عن الذنب، وعدم الإصرار عليه، والتوبة منه توبة نصوحاً، وفي هذا السبيل أعفى الحقُّ سبحانه وتعالى عبادَه من ادِّعاءِ ما ليس فيهم، وأعلن أنه لا يرضَى منهم بتزكية أنفسهم وتقديسها، ومدحِها أمامَ الغير بسلوك نهج الاستقامة والتقوى على الدوام، فالجَواد يَكْبُو، والسيفُ يَنْبُو، كما يقول المثل العـربي الشهير، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمُ إِذَ اَنشَـأَكُمْ مِّنَ اَلاَرْضِ وَإِذَ اَنتُمُ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا

أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾.

وانتقل كتابُ الله إلى وصف نموذج من الناس تفيض فيهم عاطفة البر والإحسان، فيبادرون في بعض الأَحْيَان إلى إسداء الخير لمستحِقّيه، وبذلِ المعروف لأَهله، ثم تجِفُّ في قلوبهم هذه العاطفة النبيلة، فينقلبون إلى بُخَلاء أشحَّاء، مُوَسْوَسِين بالتفكير في «اليوم الأسود» الذي يفاجئهم بالعسر بعد اليسر، وبالفقر بعد الغِنى، وأبطل كتاب الله مخاوفَ هذا الصنف من الناس الذين يقبِضون أيديهم بعدما بَسَطوها بالبر والإحسان، مؤكداً لهم أن علم الغيب أمر قاصر على الله، وأنه لا مبرر لخوفهم من المستقبل المظلم، من جَرَّاء مداومتهم على عمل البر، فذلك أمر لا يتفق مع التصديق بوعد الله، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ أَفَرَآيْتَ اَلذِى تَوَلَّىٰ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدىٰ أَعِندَهْ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرىٰ ﴾.

ثم استعرضت الآياتُ الكريمة جملةً من التعليمات الإلٓهية، والعقائد الدينية الإسلامية، التي احتوت عليها صُحفُ إبراهيم وموسى، مما يُعتَبَرُ تراثاً دينياً خالداً مشتركاً بين جميع الأنبياء والمرسلين، وكافة المومنين، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ اَلذِى وَفَّىٰ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرىٰ ثُمَّ يُجْزِيهُ الْجَزَآءَ أَلاوْفىٰ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ اَلْمُنتَهَىٰ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرىٰ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً اَلُاولىٰ وَثَمُوداً فَمَآ أَبْقىٰ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا

هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾، معناه أنه لا تحمل نفسٌ حِمْل أخرى، وإنما تحمل كل نفس وزرَها وحدها، دون أن يُسمحَ للغير بالتخفيف عنها، ولا أن يُسمحَ لها بتثقيل كفة الغير.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾، معناه أن الإنسان كما لا يحمِل وزر غيره، فإنه لا يُؤجَر إلاّ على عمله الخاص، ولا يشاركُ غيرَه فيما يناله الغير من أجر على العمل الذي قام به دونه. قال ابن كثير: «فأما الدعاء والصدقة فهُما مجمعٌ على وصول ثوابهما إلى الميت، ومنصوص من الشارع عليهمَا»، وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ، إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثلاث، من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم يُنتفَعُ به» فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعي الإنسان وكَدِّه وعمله، كما جاء في الحديث: «إنَّ أطيب ما أكلَ الرجلُ من كَسْبِه، وإنَّ ولدَهُ مِن كَسْبه». والصدقةُ الجارية، كالوقف ونحوه هي من آثار عمله، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ (يسۤ: ١٢)، والعلم الذي نشرَه في الناس، فاقتدى به الناس بعده، هو أيضاً من سعيه وعمله، وثبت في الصحيح: «من دَعا إلى هُدى كان له من الأجر مثلُ أُجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً». انتهى ما أورده ابن كثير.

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرىٰ ثُمَّ يُجْزِيهُ الْجَزَآءَ اَلاَوْفىٰ ﴾، معناه أن الإنسان سيُعرَض عليه يوم القيامة كلُّ ما عمله في حياته من خير أو شر، وأنه سينال على سعيه وعمله جزاءه العادل، دون زيادة ولا نقصان، على غِرار قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨)، وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ اِعْمَلُواْ فَسَيَرَى اَللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُومِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَـٰلِمِ اِلْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة: ١٠٥).

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ اَلْمُنتَهىٰ ﴾، معناه أن مآل الإنسان ومصيرَه المحتوم هو الرجوع إلى الله، أَحبَّ أم كره، رضِي أم سَخِط، فلا مأوَى له في نهاية المطاف إلاّ في دار النعيم أو في دار الجحيم، وفي هذا تنبيهٌ للإنسان إلى أن يُفكِّر ويُقدِّر منذ بداية رحلته في هذه الحياة، حتى يلائم سلوكَه مع نهايته المحتومة، ويُكيِّف حياتَه الفانية، بما ينسجم مع حياته الباقية.

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَنَّه هُوَ أَضْحكَ وَأَبْكىٰ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيا وَأَنَّهُ خَلَقَ اَلزَّوْجَيْنِ اِلذَّكَرَ وَالانُثىٰ مِن نُّطْفَةٍ اِذَا تُمْنىٰ ﴾، إشارةٌ إلى جُملة من عجائب صنع الله في خلقه، ولا سيما ما في خلق الإنسان وتكوينه من أسرار ظاهرة وباطنة، لم يصل الإنسان نفسُه حتى الآن إلى تحديدها، واستكناه حقيقتها، رغماً عن مرور القرون الطويلة على حياته فوق سطح الأرض.

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرىٰ ﴾، إشارةٌ إلى

النجم الذي هو أُثقل من الشمس بعشرين مرة، والذي تبلغُ قوة نوره خمسين ضِعْفاً من نور الشمس، وقد كان لهذا النجم من يَرْصُده ويعبُـده من دون الله فبَيَّنَ الحقُّ سبحانـه أن «الشِّعْرَى» ليست إلاّ جزءاً بسيطاً من مخلوقاته، وأنه هو «رب الشعرى» ورب كل النجوم صغيرها وكبيرها، بـل ربُّ السماوات والأرض ومـا بَينهما: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ (البقـرة: ٢٥٥)، والحديثُ عن «الشعرى» في هذه السورة الكريمة مناسب لاسمها الذي هو «سورة النجم» التي نفسرها، فقد تصدرَ مطلعَها قَسَمُ الله العظيم على صدق رسوله، إذ قال: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَٰحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴾، إشارةٌ إلى ما سلف من الأخبار عن الأقوام التي هلكت في سالف الزمان كما فسره أبو مالك الغِفاري، وقال قتادة ومحمد بن كعب وأبو جعفر: إنه إشارةٌ إلى رسول الله ﷺ الذي افتتحت به هذه السورة في أولها، تأكيداً لأنه عليه السلام لَيسَ بِدْعاً من الرسل، وأنه نذير من بين «النُّذُر» الذين أرسلهم الله إلى خلقه على التتابع، لهدايتهم إلى سَواء السَّبيل.

كما أشارت الآيات التاليـة إلى قرب السـاعة بعـد ظهور الرسالة المحمدية، وذلك أَمر لا غرابة فيه، ما دامت الرسـالة المحمدية هي آخر الرسـالات الإلٓهية إلى الخلق، فـلا رسالـة بعـدها، ولا رسـول بعد الـرسـول الـذي جـاء بهـا، رُوي أَن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلي ومَثَلُ الساعـة كهاتين»، وفـرق عليه

السلام بَيْنَ أُصبُعيه الوسطى والتي تلي الإبهام. وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴾، على غرار قوله تعالى في السورة الآتيـة: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾.

وقولُه تَعالى: ﴿ لَيْسَ لَهَا من دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أي: لا يكشف هولها وخَطبها إلاّ الحق سبحانه وتعالى، أَوْ لا يكشف عن وقت حلولها سوى الله، وكلا التفسيرين صحيح.

وسَجّلَ كتابُ الله ما يُوحِي به إعراضُ المشركين عن القرآن العظيم، من التعجب والاستغراب، فبدلاً من أن يتعظوا به عند سمـاعه، وتقشعِـرَّ جلودهم، وتخشع قلوبهم، يضحكـون منه، ويعرضون عنه، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَمِنْ هَـٰذَا الْحَدِيْثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَـٰمِدُونَ فَاسْجُدُواْ لِلَّهِ وَاعْبُدُواْ ﴾.

والآن فلْنُلق نظرة على سورة «القمر» المكية أيضاً، وسنجد بدايتها مرتبطة أُوثق ارتباط بالآيات الختامية لسورة «النجم» السابقة عليها في الترتيب، ومنسجمةً معها كل الانسجام، فقد سبق لنا في نهاية سورة «النجم» قولُه تعالى: ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾، وها هي سورة «القمر» تبتدىء بقوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحِيمِ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾، مما يؤكد نفس المعنى ويقويه.

وقولُه تعالى: ﴿ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾، يشير إلى ظاهرة كونيـة تعرّض لها القمر في الماضي، وسيتعرض في المستقبل لِما هو أَخطرُ منها وأكبر، وذلك عند قيام الساعة، على غرار قولِه تعالى

في سورة (القيامة: ٧، ٨، ٩، ١٠)، ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ يَقُولُ ٱلإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾، وقوله تعالى في سورة (الإنشقاق: ١، ٢): ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾، والإتيانُ «بإنشقاق القمر» في سياق الحديث عن «اقتراب الساعة»، دليل واضح على ما بينهما من ارتباط وثيق، فما علينا إلّا التصديق بآيات الله الشرعية والكونية، ولله في خلقه شؤون.

وإثباتُ القرآن «لإنشقاق القمر» دليل على أن ما أصابه سَيُصيب غيرَه من بقية الكواكب، ولا سيما عند قيام الساعة، وفي ذلك رَدٌّ قوي وحجة بالغة على «الدهريّين ـ الماديين» الذين ينكرون «أن الساعة آتية»، بدعوى أن العالم لا بداية له ولا نهاية، وأنه سيظل على حاله مهما طال الزمان، وسيبقى فيه ما كان على ما كان. قال فخر الدين الرازي: «إن مُنكِر خراب العالم ينكر انشقاق السماء وانفطارَها، وكذلك قولُه في كل جسم سماويّ من الكواكب، فإذا انشق بعضُها ثبت خلافُ ما يقول به، وأنَّ خراب العالم جائز»، وما قاله الرازي من جواز خراب العالم هو ما يثبته العِلم الحديث بمختلف فروعه في هذا العصر، مؤكداً أن لِلعالَم بداية ونهاية. وذلك ما سبق إلى إثباته كتابُ الله الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢).

وأخيراً استنكر كتابُ الله ما عليه المشركون من تجاهل لآيات الله التي تتعاقب أمام أنظارهم يوماً بعد يوم، دون أن

ينزجروا عن غيِّهم، أو يتراجعوا عن ضلالهم المبين، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾، ثم قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ اَلْاَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ اِلنُّذُرُ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ خُشَّعاً اَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ اَلْاَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى اَلدَّاعِ يَقُولُ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

الربع الأخير من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم

فَدَعَا
رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾
وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ
عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾
وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ
نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾
كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ
إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا
بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾
إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ
فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ
فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ
نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾
وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ
النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾
أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾
أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ
الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾
إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ
وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾
وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا

أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي
الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي
جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

الربع الأخير من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب الثالث والخمسين في المصحف لكريم، وبدايتُه قـوله تعـالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ اَلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾، ونهايتُه قوله جلّ علاه: ﴿ إِنَّ اَلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾.

لا نزال نتذكرُ أن كتاب الله ـ في نهاية الربع الماضي ـ أعاد إلى الأذهان قصة نوح وقومه حيث قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾، وفي بداية هذا الربع يتوالى الحديث عن نفس القصة، إذْ يبينُ كتابُ الله أن نوحاً عليه السلام، بعد جهود متواصلة وتضحيات متوالية، وصل إلى مرحلة قَطَع فيها كل رجاء وأمل في إصلاح حال قومه، أو إنقاذهم من الضلال الذي هم فيه، فلم يجد نوح عليه السلام بُدّاً من أن يُعلن أمام ربه عجزَه عن إصلاحهم، ويستنجدَ عليهم بقوة الله القاهر فوق عباده، وذلك قوله تعالى هنا حكايةً عن نوح: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾، وعِلْمُ الله الذي أحاط بكل شيء لم

يفاجئه يأْس نوح من قومه، ولا طلبُه النصرَ عليهم من الله، فقد كان دعاءُ نوح مجردَ سبب، لأَن ينالَ قومُ نوح من العذاب الأليم ما هم أهل له. وما أَسْرَعَ ما وقع انتصارُ الله لدينه ولنبيه، بتسليط طُوفانٍ عارم على قوم نوح، اشتركت فيه السماء والأرض على السواء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَآءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾. ونجّى اللَّهُ نوحاً من عذاب الطوفان على ظهر سفينة كانت تكلؤُها عنايةُ الله، وتحمِيها من كل خطر، كما قال تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾، و«الدُّسُر» مساميرُ السفينة أو أَضلاعُها. ثم قال تعالى: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾، أي: تجري بأمرنا وتحت حفظنا. وقوله تعالى: ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾، إما أن يكون المراد به رِعَايَةَ الله لنوح، وحَمْلَهُ ومَن آمن معه في «سفينة النجاة» إكراماً له من الله، وإنقاذاً له من كفران قومه به وبرسالته، وإمَّا أَن يكون المرادُ به عذابَ الطوفان الذي سلطه الله على قوم نوح، جزاءً لهم على كفرهم وعنادهم، وسوء معاملتهم لنوح عليه السلام.

وأشار كتابُ الله إلى أن الحكمة في عرض مثل هذه القصة على المشركين والكافرين هي تذكيرُهم بما وقع للأَقوام والأُمم من قبلهم، حتى يَعودوا إلى رشدهم، ويتجنَّبوا الوقوع تحت ضَرَبات السَّوْط الإلٓهي الذي يُمهِل ولا يُهْمِل، وتعريفُهم بأَن عاقبة الصلاح واحدة، وعاقبة الفساد واحدة، إِذْ «ما جرى على المِثْل يَجري على المُماثِل». وذلك ما يشير إليه قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ

ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١١).

ثم أورد كتابُ الله قصة عاد مع هود عليه السلام وما حل بهم من العقاب الإلّهي الشديد، وقد كانت مَنازلهم فِي جنوب جزيرة العرب، إذْ سلط الله عليهم ريحاً عنيفة في منتهى البرودة، فأخذت تقتلعهم من الأرض حتى تُغَيِّبَهم عن الأبصار، ثم تنكُسُهم وتُلقِي بهم على رءوسهم، فيسقطون صَرْعى وهم جثث هامدة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾.

واتجه الخطابُ الإلّهي إلى كل من يسمع القرآن ويُتلَى عليه من الناس، مذكِّراً أربعَ مرات في هذا الربع، بأن هذا الذكر الحكيم الذي أكرم الله به البشر قد جعله الله مُيسَّراً للفهم، ميسَّراً للحفظ، ميسَّراً للتلاوة، بحيث يكفِي أن يُنصِت إليه الإنسان، وأن يَفتح له عقله وقلبه، ليُدرك أثَره في نفسه ومشاعره، وفي حياته كلِّها دون إبطاء، وذلك ما يشير إليه قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، ومعنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، فيما نقله الإمام البخاري تعليقاً عن مَطَر الوَرَّاق: «هل من طالِب علمٍ، فيعانَ عليه؟».

وأشارت الآيةُ الكريمة في هذا السياق إلى قصة ثمود مع

صالح عليه السلام، وقد كانت منازلهم في شمال جزيرة العرب، وما واجهوه به من السَّفَه والتحدي والعناد، وعدم الطاعة والانقياد، وما ابتلاهم الله به من أمر «الناقة» التي قاسَمَتْهم الماء: يومٌ لها ويومٌ لهم، فضاقوا بها ذَرْعاً ولم ينقادوا لأمر الله، ولم يصبروا على ابتلائه، وذلك قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ. أَ ۟لْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ فَنَادَوْاْ صَـٰحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿ فَنَادَوْاْ صَـٰحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾، إشارةٌ إلى عاقر الناقة الذي كان أشقَى واحدٍ في قومه، وإليه يشير قوله تعالى في سورة (الشمس: ١٢): ﴿ إِذِ ٱنبَعَثَ أَشْقَيٰهَا ﴾، وهو أحد الرهط المفسدين الذين يشير إليهم قوله تعالى في سورة (النمل: ٤٨): ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾، أي: أنهم بادوا عن آخرهم ولم يبق منهم باقية، كما يقع للزرع والنبات عندما يَيْبَسُ ويحترق وتذروه الرياح.

وانتقلت الآياتُ الكريمة إلى التذكير مرة أُخرى بقصة لوط، حيث سلَّط اللَّهُ عليهم ريحاً تحمل حجارة من طين، فاقتلعت

قراهم، وقضت عليهم القضاء المبرم، جَزاءَ تمردهم على الله، وانحرافهم عن الفِطْرة التي فطر الله الناس عليها، بممارسة الشذوذ الجنسي البغيض، حتى وصل بهمُ الأمر إلى مراودة ضيوف لوط عليه السلام، ومحاولة الاعتداء عليهم أنفسهم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً اِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَـٰهُمْ بِسَحَرٍ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ وَلَقَدَ اَنْذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِالنُّذُرِ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾. ثم تعرض كتابُ الله لقصة فرعون وقومه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ اَلنُّذُرُ، كَذَّبُواْ بِئَايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

ووجَّه كتابُ الله بعدَ ذلك كله إلى المشركين عدةَ أسئلة كلها تقريع واستنكار: هل يعتبرون أنفسهم خير مِن كل مَن سبقهم من الأقوام والأمم، التي عاقبها الله أشد العقاب على كُفرها وعنادها؟.

هل إن عند المشركين صَكّاً إلَهياً مسجَّلاً في الكتب المنزلة من عند الله يعطيهم حَصانة دائمة، وبَراءة قاطعة من كل عقاب وعذاب؟.

هل يعتقدون أن لهم من القوة والمَنَعة ما يتقون به الخذلان والهزيمة، وما يقف في وجه القوة الإلَهية التي لا تُغلَب ولا تُغالَب؟.

وإلى ذلك كله يشير قوله تعالى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾. وردَّ الحقُّ سبحانه على المشركين رَدّاً مُفحِماً فقال: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾.

وتحدث كتاب الله عن مصير المجرمين الذين أصروا على الشرك والكفر، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾.

وأكَّد كتابُ الله مرة أُخرى ما للحق سبحانه من حِكَم بالغة في خلقه، ومن أسرار باهرة في صُنعه، وما لقدرته من سرعة الإبداع والإنجاز، والتنفيذ والقضاء، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴾.

وعَقَّبَ كتابُ الله على ما سبق من قِصَص الرسل مع أقوامهم، وما عاقب به مُكذِّبيهم، فقال تعالى مخاطباً لمشركي قريش، الذين هم ورثة أولئك المكذبين: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾.

وخُتِمَ هذا الربع من كتاب الله بما أعده الله للمتقين من عباده، فقال تعالى منوِّهاً بهم، ومُمتنّاً عليهم بمغفرته ورضوانه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾.

الربع الأول من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾
الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾
وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾
وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ
وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾
وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾
خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ
مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾
رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾
مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ
ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ
مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟
مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا
بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ
مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾
فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ
إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾
يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾
ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ
تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ
زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ
بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ
إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾
كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾
هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾
فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾
فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾
فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ
مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ
إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ

عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

الربع الأول من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في فاتحة سورة «الرحمّان» المكية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَـٰنُ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ خَلَقَ الانسَـٰنَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ إلى قوله تعالى في ختام نفس السورة: ﴿ تَبَـٰرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَـٰلِ وَالاِكْرَامِ ﴾.

تتضمن هذه السورة الكريمة امتنان الله على خلقه، بإنزال القرآن عليهم وتعليمه لهم، وامتنانَه سبحانه بخلق الإنسان، وما منحه من المنطق والبيان، ثم تستعرض السورة آيـاتِ الله الناطقة، ونِعَمه السابغة، التي بثها في العالم العُلْوي والعالم السُّفْلي، من شمس وقمر، ونجم وشجر، وسماء وأرض، وما خلقه من جِن وإنس، ومشرِق ومغرِب، وماء أُجاج وماء عَذْب، وتُعَقِّبُ السورة على ذلك كله بمشهد الفَناء المطلق لجميع الخلائق، ومشهـد البقاء المطلق لوجود الخالق.

فقولُه تعالى: ﴿ الرَّحْمَـٰنُ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ ﴾، امتنانٌ من الله على عباده بنزوله، وتيسير حفظه وفهمه، وهدايتهم باتِّباع تعاليمه،

وإسعادِهم بتطبيق شرائعه، وتهذيبهم بالتخلق بأخلاقه.

وقولُه سبحانه: ﴿ خَلَقَ ٱلإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾، امتنـانٌ على الإنسان بخلقه في أحسن تقويم، وتزويدِه بالنطق والفهم والإدراك السليم، على غـرار قـولـه تعـالى في آيـة أخـرى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَـٰرَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ (النمل: ٧٨).

وقولُه تعـالى: ﴿ اَلشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَـانٍ ﴾، إشارةٌ إلى تسخير الله لهما بالخصوص لخير الإنسان. نعم، إنَّ هنالك من النجوم ما هو أكبر وأعظم، ولكن ليست له علاقة مباشرة بحياة الإنسـان، ولا تأثيـر مبـاشـر على سـطح الأرض «كـالشِّعْـرَى» و«السماك الرامـح» و«سهيل» وإن كـان نورهـا أقوى من نـور الشمس أضعافاً مضاعفة، أما «الشمس» فهي أهمّ شيء بالنسبة للإنسان ولحياته، إذْ لولا ضوءُ الشمس وحرارتها وجاذبيتها لَمَا أمكن للإنسان أن يعيش على سطح الأرض، فضلاً عن النبات والحيوان، اللذين تتوقف عليهما حياة الإنسان، وكذلك الشأن في «القمر» فرغماً عن كونه تابعاً صغيراً للأرض يُعتبرُ ذا أثر قويٍّ فى حياتها، وحياة الإنسان المستقر فوقها، وقد ربَط اللَّهُ بالقمر حركة المَدِّ والجَزْر في البحار، وهذه الحركة الدائمة هي التي عليها في فن المِلاَحَة المَدار.

وقولُه تعالى: ﴿ وَالنَّـجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾، إشارةٌ إلى خضـوع جميع الكـائنات لمكـوِّنهـا ومبـدِعهـا، وإلى سلطة الله

المبسوطة على جميع خلقه، فالكل مرهون بربوبيته، بحيث لا يتخلف عن مشيئته أيُّ مخلوق، جَلّ شأنه أو صغُر، في الأرض أو في السماء، والكل ينشأ وَينمو ويفنَى طِبقاً للسنن الثابتة، التي رسمتها للجميع قدرةُ الله وحكمتُه وعلمُه، وذلك على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اَللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي اِلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي اِلْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ اَلنَّاسِ ﴾ (الحج: ١٨).

وقولُه سبحانه: ﴿ وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ اَلْمِيزَانَ ﴾، تنبيهٌ للإنسان على استجلاء عظمة الله وبالغ قدرته، من خِلال هذا الفضاء الواسع المُترامِي الأَطراف، الذي تَسبَح فيه ملايين الملايين من النجوم، على اختلاف أصنافها وأحجامها وأبعادها، دون أن يصطدمَ بعضُها ببعض، ودون أن يصيبها خَلل أو فتور، و «الميزان» الذي وضعه الله لهذا الكون هو تقديره المُحكَم الذي لا يختل، القائم على أساس التناسق والتناسب والانسجام والتكامل.

وقولُه تعالى: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى اِلْمِيزَانِ وَأَقِيمُواْ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ الْمِيزَانَ ﴾، تنبيهٌ للمومنين إلى أنهم ينبغي أن يتخلقوا بخُلُق الله، وأن يستمدوا من سُنن الله الثابتة في خلقه منهاج سلوكهم في حياتهم، بالنسبة لأنفسهم وبالنسبة لبقية الناس، وذلك أن يقيموا حياتهم على أساس من الحكمة والعدل، وحسن التقدير والتدبير، حتى لا يلحقها خلل كبير أو صغير.

وقولُه سبحانه: ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْاَنَامِ فِيهَا فَٰكِهَةٌ

وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾، إشارةٌ إلى ما أَنعم الله به على الإنسان من تمهيد للأرض، كَيْ يسهل عليه الاستقرار فوقها، ويستطيع الانتفاع بخيراتها وثمراتها، ولو لم تكن الأرض ممهدة كالفِراش لَاستحال عيشُ الإنسان فوقها بالمرة، ويكفي أَن نَتخيل منطقة بُرْكَانِية أو زَلْزالية في حركة دائبة تنفُث الرُّعْبَ، واللهَب، لنُدرِكَ استحالة العيش فيها، وتعذُّرَ الحياة بين جَنَباتها، ولنُقَدِّر ماذا يكون عليه الإنسانُ من شقاء سَرْمَدِيّ وتشرُّد أَبدِيّ.

وقولُه تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾، إشارةٌ إلى شروق الشمس وشروق القمر، وغروب الشمس وغروب القمر، وذلك بمناسبة ذكرهما والامْتِنان بهما في الآية السابقة: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾، ويمكن أن يُفْهَمَ من «الْمَشرقَيْن» مَشرِق الصيف ومشرق الشتاء، ومن «المغرِبَين» مغرب الصيف ومغرب الشتاء، كما جاء في آية أخرى قولُه تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ (المعارج: ٤٠)، إشارة إلى اختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم، بالإضافة إلى ما يتضمنه الشروق والغروب في حد ذاتهما من المنافع والفوائد للإنسان وبقية الأحياء.

وقولُه سبحانه: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾، إشارةٌ إلى ما أَقامته القدرة الإلَهية من حاجز حصين يفصل ماء البحر المالح عن الماء العذب المستودع في الأنهار، رغماً عن اتصالهَا بالبحَار، فلا مَاء البحر ينقلب حلواً، ولا ماء

النهر ينقلب ملحاً، إذْ بينهما برزخ إلّهي غيرُ منظور، يَحُول دون تجاوز كلٍّ منهما لِحَدِّه المقدور.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَأَاتُ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلَـٰمِ﴾، إشارةٌ إلى الفُلْكِ التي تمخَرُ البحار، والتي لولا تسخيرُ الله لها لَمَا استطاعت ـ وهي فوق الماء وبين الأمواج ـ أن يقِرَّ لها أيّ قرار.

وقولُه سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَـٰلِ وَالإِكْرَامِ﴾، إشارةٌ إلى تفرد الحق سبحانه بالبقاء، وإلى اختفاء أشباح الخلائق وظِلالها عندما يدُق ناقوسُ الفَناء.

وقولُه تعالى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنس إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنَ أَقْطَارِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾، إشارةٌ إلى الحصار الإلّهي المضروب من حول خلقه، أقوياءَ وضعفاءَ، أغنياءَ وفُقراء، مرءوسين ورؤساء، فلا سبيل لهم إلى الإفلات من قبضة الله، ولا مَفرَّ من الوُقوع بين يديه، والانتهاء في نهاية المَطاف إليه. وإذا أصبح في إمكان الإنسان أن يجول بين بعض ﴿أَقْطَارِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، وَداخلَها فإنّ ذلك لا ينفي أنه عاجز كل العجز عن أن يتجاوزها ويفارقها ويخرج منها بالمرة، وذلك هو «النفاذ منها».

وانتقلت الآيات الكريمة إلى الحديث عن قيام الساعة، وما يبرُز فيها من ظواهر كونية خارقة للعادة: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾، وإلى الحديث عن مصير المُجرمين من

خصوم الرسالات الإلٓهية، وما يَلقَوْنه من العذاب الأليم: ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُوخَذُ بِالنَّوَٰصِى وَالاَقْدَامِ ﴾، وعن مصير المتقين، الصادقين الراشدين، وما ينالونه من النعيم المقيم، ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَٰنِ ﴾، ﴿ هَلْ جَزَآءُ الِاحْسَٰنِ إِلَّا اَلِاحْسَٰنُ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَآلَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، الذي تكرر في سياق هذه السورة إحدى وثلاثين مرة، معناه كما قاله مجاهد وغيره: «بِأَيِّ النعم يا معشر الثَّقَلَيْن من الإنس والجن تكذبان»، أن النعم ظاهرةٌ عليكم، وأَنتم مغمورون بها، فكيف تستطيعون إنكارَها وجحودَها.

وخُتِمت سورةُ «الرحمان» بتمجيد اسم الله وتقديس جلاله وعظَمته، فهو سبحانه أَهلٌ لأَن يُشكَر ويُذْكَر، فلا يُنسَى ولا يُكفَر، وذلك قولُه تعالى في ختام هذه السورة الكريمة، «وختامُها مسك»: ﴿ تَبَٰرَكَ اَسْمُ رَبِّكَ ذِى اِلْجَلَٰلِ وَالِاكْرَامِ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾
إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾
وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾
وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ
مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾
يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن
مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾
وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾
جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا
سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ

مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾
وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ
مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾
عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾
وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾
فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ
عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ
ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾
ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾
فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ
شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا
تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ
ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾
عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ

عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم
مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ
نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ
نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ
أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا
فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ
أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً
وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

الربع الثاني من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثاني من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه فاتحةُ سورة «الواقعة» المكية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾، ونهايتُه قوله تعالى في نفس السورة: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ، فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾.

موضوعُ سُورة «الواقعة» المكية التي نفتتح بها هذا الرُّبُع هو وَصْفُ يوم القيامة، ذلك اليوم الذي تُحيطه هَالَة من الرَّهبة والجلال، ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ ﴾ (الحج: ٢)، ثم عَرْضُ قضيةِ «النشأة الآخرة» على وجه يُبطل شُبَه المشركين والمكذِّبين. وبذلك يطابقُ موضوعُ السورة نفسَ الاِسم الذي سُمِّيت به، إذْ لفظ «الواقعة» هنا مرادف في معناه ليوم القيَامة، وإنما سمي يَومُ القيامة «بالواقعة» لتحقُّق وقوعه، رغماً عن جدَل المجادلين، وشكِّ الشاكين، وذلك معنى قوله تعالى:

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَـاذِبَةٌ ﴾، قال قتادة: «أي ليس فيها ارتداد ولا رجعة، فلا صارف يَصرفها، ولا دافع يدفَعُها»، وهذه الآيةُ على غرار قوله تعالى في آيـة أخرى: ﴿ اسْتَجِيبُـواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَنْ يَّأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اَللَّهِ ﴾ (الشورى: ٤٧)، قال ابن جرير: «الكاذبة» هنا مصدر، كالعاقبة والعافِية.

وقولُه تعالى: ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾، معناه أنها تَخفِض أقواماً وترفَع آخرين، قال محمد بن كعب: «تَخفِض رجالاً كانوا في الدنيا مرتفِعين، وترفَع رجالاً كانوا في الدنيا مَخفُوضِين». وقال السّدّي: «خَفَضتِ المتكبِّرين، ورفعت المتواضعين»، وذلك لأن القِيَم المتعارَف عليها بين الناس كثيراً ما يَكون ميزانها مُختَلاً، فلا يستقيم ميزانُ القِيَم على الوجه الصحيح إلَّا بَيْنَ يَدَي الله.

وقولُه تعالى: ﴿ اِذَا رُجَّتِ اِلَارْضُ رَجّاً وَبُسَّتِ اِلْجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثّاً ﴾، إشارةٌ إلى ما يَعتري الأرض عند قيام الساعة من الاضطراب والحركة والاهتزاز طولاً وعرضاً، كقولِه تعالى في آية أخرى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ اِلَارْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ (الزلزلة: ١)، وقوله تعالى أيضاً: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ اَلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحج: ١). كما أن فيه إشارةً إلى ما يعتري رواسِيَ الجبـال الصلبة من نَسْف وتَفتُّت يجعل الجبالَ عبارة عن فُتاتٍ طائر في الهواء، كالهَباء الذي يطير من النار إذا اضطرمت، والشَّـرَر الذي يقع منها فلا يبقى له أيُّ أثر.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى تحديد الأصناف التي سيكون

عليها الناس يوم القيامة، وتصنيفهم درجاتٍ على أَساس جديد، وبينتْ أنهم سينقسمون باعتبار أَعمالهم والجزاء عليها فقط، لا باعتبار الغِنَى والفقر، ولا بحسب القُوة والضعف، ولا على أَساس الرياسة والتَّبَعِية، ولا على أَساس فوارق الجنس واللون، مما تعارف عليه البشر فيما بينهم، فالناس يوم القيامة وأَمام ربهم لا يخرُجون عن ثلاثة أقسام: القسم الأول هُمُ «السابقون»، والقسم الثاني هم «أصحاب المَيْمَنَة»، والقسم الثالث هم «أصحاب المَشْأَمَة»، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجاً ثَلَٰثَةً فَأَصْحَٰبُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَٰبُ الْمَشْئَمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ الْمَشْئَمَةِ وَالسَّٰبِقُونَ السَّٰبِقُونَ﴾، على غرار قوله تعالى في سورة (فاطر: ٣٢): ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. قال ابن عباس: «وكنتم أزواجاً ثلاثة»، أي: أَصنافاً ثلاثة. وقال مجاهد: «وكنتم أزواجاً ثلاثة»، أي: فِرَقاً ثلاثة. وقال عثمان بن سراقة: «وكنتم أزواجاً ثلاثة»، أي: اثنان في الجنة وواحد في النار.

و «السّابقون» إنما أُطلق عليهم هذا الوصف، لأنهم سابقون بين يدي الله عزّ وجلّ: ﴿أُوْلَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِى جَنَّٰتِ النَّعِيمِ﴾، فهُم أَخصُّ وَأَحظَى وأَقرب من «أصحاب اليمين» الذين يَلُونهم في المنزلة، وعلى رأس السابقين الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ثم الصِّدِّيقون والشهداء والصالحون، وأَلحقَ ابنُ كثير بالقسم الأَول، وهم «السابقون» جميعَ الذين

بادَرُوا إلى فعل الخيرات، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿سَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ (آل عمران: ١٣٣)، وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الحديد: ٢١)، فمن سَابَقَ في هذه الدنيا وسَبَق إلى الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاءَ من جنس العمل، وكما تَدِين تُدان.

وستأتي الإشارة إلى هذه الأقسام الثلاثة مرة أخرى في آخر هذه السورة الكريمة، تأكيداً لما ورد في أولها، مما يدل على الأهمية الخاصة التي يُولِيها كتابُ الله لهذا التقسيم الشامل والعادل.

وقولُه تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، إخبارٌ من الله تعالى عن هؤلاء السابقين المقرَّبين، وأنهم بالنسبة إلى غيرهم كثرةٌ في الأولين، وقلة فِي الآخِرين اختارهُم الله، وآتاهم من الرعاية والعناية، ما أعانهم على أن يخترقوا الصفوف، ويكُونُوا في طليعة الطليعة إخلاصاً وصلاحاً، وعزماً وصبراً وطاعةً وتَقوَى.

والمراد في هذه الآية «بالأولين» الأممُ الماضية، «وبالآخِرين» الأمةُ الإسلامية، فيما رُوِي عن مجاهد والحسن البصري، وهذا التفسير اختاره ابن جرير. ورجَّح ابن كثير أن المراد «بالأولين» صَدْرُ هذه الأمة الإسلامية، و«بالآخِرين» الذين يَلُونهم من بعدهم إلى يوم الدين، ونسَبَ إلى ابن سيرين القولَ

بأن الجميع من هذه الأمة. ثم عقَّبَ ابنُ كثير على ذلك بقوله: «ويحتمل أن تعُمَّ الآيةُ جميع الأمم، كل أمة بحَسَبها، ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «خيرُ القرون قَرْني، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يلونهم» الحديث.

ووصَفَ كتابُ الله مآل «السابقين» المقرَّبين، وما ادَّخرَ لهم الحقُّ سبحانه من مختلِف العطايا، وميَّزهم به من المزايا في جنات النعيم، وعقَّب على ذلك بما يفيد أن الله تعالى قد صَدَقهم وعدَه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وأنهم أثناء إقامتهم في دار الخلد، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا﴾.

ثم انتقل كتاب الله إلى وصف مآل «أصحاب المَيْمَنة» الذين يَلُون السابقين المقرَّبين في المنزلة، فقال تعالى: ﴿وَأَصْحَـٰبُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ الْيَمِينِ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ أي: جماعةٌ كثيرة من الأولين، وجماعةٌ كثيرة من الآخرين، مِمَّا يُفيد أن عدد «أصحاب اليمين» أكثر من عدد «السابقين» المقرَّبين.

ومن «أصحاب اليمين» ينتقل كتاب الله إلى وصف ما ينتظر «أصحاب المَشْأَمَة» من عذاب أليم، وسَمُوم وحَميم، فقال تعالى: ﴿وَأَصْحَـٰبُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ الشِّمَالِ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ

وَظِلٍّ مِّنْ يَّحْمُومٍ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾.

ويُذَكِّرُ كتابُ الله في نفس السياق بما كان عليه «أَصحابُ الشِّمال» في حياتهم من الغفلة والتَّرَف، وما كانوا يمارسونه من الكَذِب والزور، وما كانوا يُنكِرونه من البَعث والنشور، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَالِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى اَلْحِنثِ اِلْعَظِيمِ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَـٰماً اِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ ءَابَآؤُنَا اَلاَوَّلُونَ ﴾، ثم يُبادر كتابُ الله بالرد على دعواهم الباطلة قائلاً: ﴿ قُلِ اِنَّ اَلاَوَّلِينَ وَالاَخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾.

ويعودُ كتابُ الله إلى مُخاطبة «أَصحاب المشأمة» وهم يتلقّون عذاب الله في جهنم، فيواجهُهم قائلاً: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا اَلضَّالُّونَ اَلْمُكَذِّبُونَ ءَلَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا اَلْبُطُونَ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ اَلْحَمِيمِ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ اَلْهِيمِ ﴾، ويُعقِّب كتابُ الله على ذلك كلّه بقوله: ﴿ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ اَلدِّينِ ﴾ إشارةً إلى أن هذا النوع من المآكل والمشارب هو ضيافتُهم المفضلة يوم حسابهم، تدشيناً لعذابهم، وإنهُ لَعذاب دائم لا راحة بعده أبداً.

وعادتِ الآياتُ الكريمة إلى عَرْض جملة من آيات الله الكونية البارزة في خلقه، ووَصْفِ طائفةٍ من نِعَمه السابغة، التي يتقلبُ فيها الإنسان ليلَ نهارَ صباحَ مساءَ دون أن يحسُب لها حِساباً:

- فهذه آية «الحياة» والنشأة الأُولى التي أكرم الله بها الإنسان: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾.

- وهذه آية «الموت» في انتظار النشأة الآخرة، التي يُجازَى فيها الإحسان بالإحسان: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

- وهذه آية «الزرع» الذي منه يقتات الإنسان: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾، حتى إذا ما وقع ذلك، وأصبح الزرع حُطاماً يئستم وحِرْتم وقال بعضكم لبعض: ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾.

- وهذه آية «الماء» الذي يُروَى به الإنسانُ والنباتُ والحيوان: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾.

- وهذه آية «النار» التي لولا أن الله أنعم بها على الإنسان لَما استطاع أن يتقدم خطوة واحدة في مَيدان الحضارة والصناعة والعُمران: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾.

وعقَّبَ كتابُ الله على آية «النار» التي ننتفع بها في هذه الدنيا بما يشير إلى نَارِ الله المُوقَدة، التي تَطَّلِع على الأفئدة، في

الدار الآخرة، فقال تعالى: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً ﴾، أي: تُذَكِّرُكُم بالنار الكُبْرى، كما قال مجاهد وقتادة. رَوَى البخاري من حديث مالك، ومُسلمٌ من حديث أَبِي الزِّناد أن رسول الله ﷺ قال: «نارُ بني آدمَ التي يُوقِدُون جُزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم، فقالُوا يا رسول الله: إنْ كَانَتْ لَكافية. فقال: «إنها قد فَضَلَتْ عليها بتسعة وستين جزءاً».

وأَشارَ كتابُ الله إلى ما في النار من منافع وفوائد لجميع البشر، فقال تعالى: ﴿ وَمَتَـٰعاً لِّلْمُقْوِينَ ﴾، أي مَتاعاً للمستَمْتِعِين، من الناس أجمعين. قال ابن كثير: «وهذا التفسير أَعمُّ من غيره، فإنّ الحاضر والباديَ من غَنيٍّ وفقير، الجميع مُحتاجونَ إلى النَار للطَّبخ والاصْطِلاء والإضاءة، وغير ذلك من المنافع».

وانتهت الآياتُ الكريمة في هذا السياق بتمجيد الله وتقديس اسمه الأَعظم، بعد أَن استعرضت آثار قدرته في الأَكوان، وما تفضل به سبحانه وتعالى على الإنسان، من نِعَم سابغة تُقَوِّي في القلب روح الإيمان، وتستوجب الطاعة والإذعان، وتستحق مُضاعفةَ الشكر والامتنان. وذلك قولُه تعالى في ختام هذا الربع من كتاب الله الكريم: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم

فَلَآ أُقْسِمُ
بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾
إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾
تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ
رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ
تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن
كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ
مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ
أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ
مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ

اِ۬لسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَيٰ كُلِّ شَےْءٖ قَدِيرٌۖ ﴿٢﴾
هُوَ اَ۬لَاوَّلُ وَالَاخِرُ وَالظَّٰهِرُ وَالْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَےْءٍ عَلِيمٌۖ ﴿٣﴾
هُوَ اَ۬لذِے خَلَقَ اَ۬لسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضَ فِے سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ اَ۪سْتَوَيٰ عَلَي
اَ۬لْعَرْشِۖ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِے اِ۬لَارْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ اَ۬لسَّمَآءِ
وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمُۥٓ أَيْنَ مَا كُنتُمْۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌۖ ﴿٤﴾
لَّهُۥ مُلْكُ اُ۬لسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِۖ وَإِلَي اَ۬للَّهِ تُرْجَعُ اُ۬لُامُورُۖ ﴿٥﴾ يُولِجُ اُ۬ليْلَ
فِے اِ۬لنَّهَارِ وَيُولِجُ اُ۬لنَّهَارَ فِے اِ۬ليْلِۖ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ اِ۬لصُّدُورِۖ ﴿٦﴾
ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَالذِينَ
ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمُۥٓ أَجْرٞ كَبِيرٞۖ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُومِنُونَ بِاللَّهِ
وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُومِنُواْ بِرَبِّكُمْۖ وَقَدَ اَخَذَ مِيثَٰقَكُمُۥٓ إِن كُنتُم
مُّومِنِينَۖ ﴿٨﴾ هُوَ اَ۬لذِے يُنَزِّلُ عَلَيٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ
لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ اَ۬لظُّلُمَٰتِ إِلَي اَ۬لنُّورِۖ وَإِنَّ اَ۬للَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞۖ ﴿٩﴾
وَمَا لَكُمُۥٓ أَلَّا تُنفِقُواْ فِے سَبِيلِ اِ۬للَّهِ وَلِلهِ مِيرَٰثُ اُ۬لسَّمَٰوَٰتِ
وَالَارْضِۖ لَا يَسْتَوِے مِنكُم مَّنَ اَنفَقَ مِن قَبْلِ اِ۬لْفَتْحِ وَقَٰتَلَۖ أُوْلَٰٓئِكَ
أَعْظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ اَ۬لذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۖ وَكُلّاٗ وَعَدَ
اَ۬للَّهُ اُ۬لْحُسْنَيٰۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٞۖ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا اَ۬لذِے يُقْرِضُ

اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾
يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم
بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا
انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا
فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن
قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ
فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ
جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ
وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

الربع الثالث من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «الواقعة» المكية: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾، إلى قوله عزّ وجلّ في سورة «الحديد» المدنية: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُوخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَيكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَيكُمْ، وَبِيسَ الْمَصِيرُ ﴾.

أول ما يُفتتَح به هذا الربع قَسَمٌ من الله تعالى: ﴿ بمَوَاقع النجوم» على أن القرآن الكريم إنما هو تنزيل من عند الله، نَزَّله على رسوله الصادق الأمين وليس كما يزعمُ المشركون ومَن لَفَّ لَفَّهم، شِعْراً أو سِحْراً أو كِهَانة، أو مِن أَساطير الأولين، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِي كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾.

والمراد «بمواقع النجوم» مَنازِلُها ومَطالُعها ومَشارقُها، وقد كان أَغلبُ الذين عَاصَروا هذا الخطاب الإلّهي عنـد نزولـه لا

يَعرِفون عن النجوم ومواقعِها الشيءَ الكثير، وتَبَعاً لذلك لا يستطيعون أن يُقدِّرُواْ قَسَم الله بها كاملَ التقدير، إذْ لم تكن لديهم مَراصد عظيمة، ولا آلاتٌ دقيقة لرَصْدِ النجوم وتتبع حركاتها في الأجواء البعيدة، ولكنَّ خطاب الله موجّه إلى كل عصر وجيل، والعصر الذي نعيش فيه أصبح يعرف عن النجوم ومواقعها ما يجعل الإنسان مبهوتاً حائراً أمام قدرة الله وحكمته، ويستطيع أن يُقدِّر تقديراً أوْفَى قَسَم الله العظيمَ، الذي أقسمه «بمواقع النجوم»، ومن ذلك أن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التي لا تُحْصَى وهي «مجموعة المجرّة» التي تنتمي إليها الشمس تبلغ ألف مليون من النجوم، وهذه النجوم منها ما يمكن أن تراه العين المجرَّدة، ومنها ما لا تراه العين إلّا بالأجهزة الفَلَكِية والمَجاهر، ومنها ما لا تراه العين ولو عن طريق الأجهزة الفلَكية، وإنما تُحِسُّ به الأجهزة وحدَها دون أن تراه، وما من نجم نجم إلّا وهو مُنَسَّقٌ بقدرة الله - في آثاره وتأثيراته - مع بقية النجوم والكواكب، فلا اصطدامَ في الفضاء الواسع بين نجم وآخر، ولا تَطاوُلَ من أيِّ نجم على المَجال المغناطيسي الخاص بغيره من النجوم، بل الكُلُّ يَسير طِبقاً لتدبير الله وتقديره نحو هَدَفه المرسوم، إلى ميقات يوم معلوم، فمَن عرف أسرار الأفلاك وعجائبَ النجوم أدرك إلى أيّ حَدٍّ كان قَسَم الله عظيماً «بمواقع النجوم»، وأن ذلك القَسَم يُعَدُّ أكبرَ تزكيةٍ لخاتم الأنبياء والمرسلين، وأصدقَ شاهد على صحة الوحي المُبين، وهكذا كلَّما مرت الأيام، وتقدمت معارف البشر، ازداد بُرهان القرآن وضوحاً، وازداد نورُه توهجاً، وازدادت عقيدة الإيمان نصراً وفَلَجاً.

وقوله تعالى: ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾، نفيٌ قاطع لمزاعم المشركين والكافرين الذي ادَّعَوا أنه قد تنزلت به الشياطين، إذ لا يَتصورُ عاقل أن كتاب الله المَصُون في علمه، والمحفوظ بحفظه، يُمكن أن تسطوَ عليه الشياطين من قريب أو بعيد، وهي على ما هي عليه من الرِّجْس والخَبَث والشرّ والطرد من رحمة الله، وإنما تتنزَّلُ بكلام الله على رسله الملائكةُ الأبرار الأطهار، فهذه إحدى المَهامّ السامية الموكولة إليهم، والمقصورةِ عليهم، ولذلك جاء التعقيب المباشِر بقوله تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وإلى هذا المعنى ينظر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ (الشعراء: ٢١٠، ٢١١، ٢١٢).

ثم وجَّه كتابُ الله الخطابَ إلى المشركين المكذِّبين بالنشأة الآخرة والبعث والنشور، يستغربُ تكذيبَهم لما يَقُصُّه عليهم الحق سبحانه في كتابه المبين، ويستغربُ جحودَهم لنِعَم الله الظاهرة والباطنة، دون أيِّ اعتراف بمنته عليهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾، أي: مكذِّبون غير مُصدِّقين، ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾، أي: بَدلاً من أن تشكروا الله، تكذِّبون كلامَ الله.

وتساءلَ كتابُ الله عمّا ذَا سيفعلون عندما تبلغُ الروح حُلوقَهم حين الاِحتضار، وهم في منتهى العجز والحَيْرة والجَزَع والاضطراب والذهول، ينظرون ذلك المشهد الرهيب، دون أن

يستطيعوا لشبح الموت ولا لسَكَراتِها رَدّاً، وملائكة الرحمان حاضرةٌ لذلك المشهد قريبةٌ منه، لكنها لا تقع عليها أنظار البشر المحدودة، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَـٰكِنْ لَّا تُبْصِرُونَ ﴾.

ويُواصِلُ كِتابُ الله تقريع المشركين وإحراجَهم بالسؤال، عندما يستفسرهم هل أنتم قادرون على إرجاع الروح إلى مَقرِّها الأول، بعد أن بلغت الحُلْقوم وهي في طريقها إلى مفارقة الجسد بالمَرَّة؟. هل في إمكانكم أن تحجزوا الروح في مكانها فلا تَدَعُوها متُفلِتُ من صاحبها، وتَحُولُوا بينها وبين ما هي ذاهبة إليه بأمر الله، من حساب وجَزاء عند الله؟. هذا وأنتمْ حولَها مَبهُوتُون مقهُورون، وعن رَدِّها عاجزون، وذلك قولُه تعالى: ﴿ فَلَوْلَا إِن كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنْتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾، ومعنى «غيرَ مَدِينِين» أي غيرَ محاسَبين كما قال ابن عباس، من «الدِّين» بمعنى الجَزاء:

وعادتِ الآياتُ الكريمة إلى الحديث عن الأَصناف الثلاثة الذين ينقسم إليهم البشر يوم القيامة، دون أَيِّ اعتبار خاصّ في التقسيم والتصنيف، ما عدا اعتبارَ العملِ الذي قاموا به في الدنيا، والجزاءِ الذي استحقوه في الآخرة. وذلك قوله تعالى عن «السابقين» المقرَّبين: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّـٰتُ نَعِيمٍ ﴾، وقولُه تعالى عن «أصحاب المَيْمَنَة»: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصْحَـٰبِ الْيَمِينِ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنَ أَصْحَـٰبِ الْيَمِينِ ﴾، وقولُه تعالى عن «أصحاب المشأمة»: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ

اَلضَّآلِّينَ فَنُزُلٌ مِّن حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾.

وخُتمت سورة «الواقعة» المكية بما يؤكد أَنَّ ما جاء به كتابُ الله من حقيقة البعث والنشور والنشأة الآخرة هو عَين الحق ومنتهَى اليقين، وأَنَّ ما خالفه من المعتقدات الباطلة هو الضلال المبين، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ اَلْعَظِيمِ ﴾.

والآن فلننتقلْ لِسورة «الحَديد» المدنية، مستعينين بالله، سائلين منه الهداية والتوفيق، وقد أُطلق عليها هذا الاسم، أَخذاً من قوله تعالى في آيتها الخامسة والعشرين: ﴿ وَأَنزَلْنَا اَلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾.

وأولُ ما نلاحظه في هذه السورة الكريمة أَنها بدأت بتنزيه الله وتقديسه، والتوجه إليه بالتسبيح والتعظيم، على غرار ما جاء في خاتمة سورة «الواقعة» السابقة، ففاتحة سورة «الحديد» في غاية التناسب والتناسق مع تلك الخاتمة، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى اِلسَّمَـٰوَاتِ وَالاَرْضِ ﴾.

والفَرْق الوحيد بين خاتمة سورة «الواقعة» المكية وفاتحة سورة «الحديد» المدنية أنَّ تلك الخاتمة تتضمن أَمراً للرسول عليه الصلاة والسلام ـ ولجميع المومنين عن طريقه ـ بتسبيح الله وتعظيمه، وهذه الفاتحة تتضمن الإخبار بأن جميع المخلوقات في الأرض والسماوات تَدِين لله بالطاعة، وتعترف له بالعبودية، وتلتزم

السير بموجب السُّنن التي سَنَّها لتسيير الكون، لا تتخلَّفُ عن أمره، ولا تتصرَّف على غير مُراده، وذلك بالنسبة إليها هو منتهى «التسبيح» والتنزيه.

وقولُه تعالى في نفس السيَاق: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، إشارةٌ إلى الصفة التي جعلت الحق سبحانه هو وحده المستحِق لأن يكون منزَّهاً معظَّماً مُطَاعاً من كافة خلقه، فهو سبحانه الذي خضع كلُّ شيء لعِزّته، وهو الذي تَجَلَّى في تقديره وتدبيره وتشريعه بالغُ علمِه وحكمَتِه.

واستعرضت الآيات الكريمة بعد ذلك جملة من أسماء الله وصفاته، ومظاهر قدرته، ليزداد الذين آمنوا إيماناً، وليُعيدَ المشركون النظرَ فيما هم عليه من جحود وعِناد، وذلك قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، إلى قوله جلّ علاه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. ونقَلَ البُخاري في صحيحه تفسير معنى «الظاهر والباطن» عن يحيى حيث قال: «الظاهر على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء علماً»، والمراد بيحيى هنا يحيى بن زياد الفَرّاء صاحب كتاب «معاني القرآن». وقال ابن كثير: «قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَاكُنتُمْ﴾، أي: رقيبٌ عليكم، شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم، من برّ أو بَحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو في القِفار، الجميع في عِلمه على السواء، وتحت بصره وسمعه، فيسمع كلامكم، ويرى مكانكم، ويعلم سركم

وجهركم كما قال تعالى: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ (الرعد: ١٠)».

ثم وجَّهَ كتابُ الله خطابه إلى المومنين، داعياً إياهم إلى البذل في سبيل الله، والإنفاق مما رزقهم الله، مذكِّراً لهم بأن الرزق رزقُه، والمالَ مالُه، وإنما هو وَديعة بين أيديهم استخلفهم فيها، ليُبَلِّغوها إلى أهلها، وليَصرفُوها في الوجوه المشروعة لصرفها، وذلك قوله تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾، وقولُه تعالى أيضاً: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

وتحدث كتابُ الله عن الحالة التي يكون عليها المومنون في دار النعيم، وما أكرمهم الله به من نور يسعى بين أَيديهم، وبأَيمانهم، كما وصف كتاب الله الحالة التي يكون عليها المنافقون والكافرون في دار الجحيم، حيث يلتمسون النور دون جَدْوَى، فلا يجدون بين أَيديهم ولا مِن حولهم إلاّ ظُلُمات، بعضُها فوق بعض، فقال تعالى في وصف المومنين السعداء: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

وقال تعالى في وصف المنافقين والكافرين الأشقياء: ﴿ يَوْمَ

يَقُولُ الْمُنَـٰفِقُونَ وَالْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلذِينَ ءَامَنُواْ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُواْ نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُ من قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾.

وبيّنَ كتابُ الله ما يصيب المنافقين من خَيْبة وحسرة، وما يحاولونه من التطفل على المومنين السعداء والسير في ركابهم، وما يسمعونه من تقريع وتوبيخ، جزاءً وِفاقاً: ﴿ يُنَادُونَهُمُ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمُ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الاَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ امْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ فَالْيَوْمَ لاَ يُوخَذُ مِنكُمْ فِـدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الـذِينَ كَفَرُواْ مَـأْوٰيكُمُ النَّـارُ هِىَ مَـوْلَيٰكُمْ وَبِيسَ الْمَصِيـرُ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الرابع والخمسين
في المصحف الكريم

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ
مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ
عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾
ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟
ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ
عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٥﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا
لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ
وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ
فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ

وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ
ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ
فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾
مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى
كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾
لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ
وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾
لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ
لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ
وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ
إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ
وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوٓءَةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا
بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ

ٱلذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا
عَلَيْهِمُۥٓ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا
ٱلذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمُۥٓ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ٢٧
يَٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُوتِكُمْ
كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِۦ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٨ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ
ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ
بِيَدِ ٱللَّهِ يُوتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ٢٩

الربع الأخير من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قولـه تعالى: ﴿ أَلَمْ يَانِ لِلذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اِللَّهِ وَمَانَزَلَ مِنَ اَلْحَقِّ ﴾، ونهايتُه قوله جلّ علاه: ﴿ وَأَنَّ اَلْفَضْلَ بِيَدِ اِللَّهِ يُوتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ اِلْعَظِيمِ ﴾.

يتحدثُ كتاب الله في مطلَع هذا الربع عن المومنين الذين أكرمهم الله بما أُنزل عليهم من الذكر الحكيم، وبما هداهم إليه من الحق المبين، ومع ذلك لا يزالون متقاعسين عن الاستجابة لنداءاته، بعيدين عن التجاوب معه، مُخِلِّينَ بِتطبيقه في حياتهم اليـومية، فـلا قلوبُهم تخشع لـذكر الله، ولا نفـوسُهم تستشعـر عظمة الله ولا جوارحُهم تأْتمر بأمر الله.

وفي معـرض هذا العتـاب الإلَهي الـرقيق الـرفيق يُـذَكِّـر كتابُ الله الغافلين عنه من المومنين، بما وقع فيه أهل الكتاب قبلَهم من الغفلة عما أُنزل إليهم، والتهـاون بحقه، والإهمـال لشأنه، ونسيان تعاليمه، وتحريف كَلـمه عن مواضعه، ونقضِهم

الميثاق الذي وَاثَقُوا اللَّهَ به وعاهدوه عليه، منبِّهاً للمومنين من هذه الأمة المحمدية إلَى أن لا يسلكوا مسلك أهل الكتاب قبلهم، فيتخذوا القرآن «مهجوراً» لأن ذلك سَيؤدي بهم إلى أسوأ العواقب ديناً ودُنيا، وذلك قولُه تعالى: ﴿ أَلَمْ يَانِ لِلذِينَ ءَامَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ اَلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَالذِينَ أُوتُواْ الْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الاَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾، وقد بين كتاب الله في غير ما آية، ماذا صدر من أهل الكتاب، وماذا عوقبوا به من العقاب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ اَلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (المائدة: ١٣).

ثم نبَّه كتابُ الله إلى أنه إذا وقع المومنون في غفلة عن كتاب الله المنزَل لهدايتهم، وطال عليهم الأَمَدُ وقست قلوبُهم، كما طال الأَمَدُ على أهل الكتاب قبلهم وقست قلوبُهم، فإن باب التوبة يَظَلُّ مفتوحاً في وجوه المومنين، وفي إمكانهم أن يعودوا إلى الله، ويرجِعوا إليه تائبين خاشعين، وبذلك تلين قلوبُهم لذكر الله، ويعتصمون من جديد بحَبْل الله، وتُشرِقُ عليهم شمس الإيمان بضيائها وحرارتها وجاذبيتها، ويعود كتابُ الله بين أظهرهم حَيّاً مذكوراً، بعد أن تركوه في فترة الغفلة مَهْجُوراً، وإلى هذا المعنى يُلَوِّحُ قولُه تعالى في نفس السياق: ﴿ اَعْلَمُوٓاْ أَنَّ اَللَّهَ يُحْيِـي اِلَارْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، وإذا كانت الأرض تَحيا بفضل الله بعد موتها، فتزخَرُ بالخيرات والثمار، وتصبحُ مضرب المثل في الخصب والنَّماء والازدهار،

فإن القلوب القاسية لا تَقِلُّ عنِ الأرض الميِّتة استعداداً للخير والصلاح، وفي إمكانها أن تَلِينَ أيضاً بذكر الله بعد قسوتها، وأن تحيا بهدايته بعد موتها، وأن يَنْجلىَ بنوره الصَّـدَأُ عن مِرآتها، وأن يعود إليها الإشراق والتألق الذي تمتاز به قلوبُ المومنين حقاً، المعتصِمِين بكتاب الله، والملتزمين لرضاه.

وانتقل كتاب الله مرة أخرى إلى الحَضِّ على الإنفاق في سبيل الله، والتنويه ببذل المال ابتغاءَ مرضاته، وهذا أُصل أساسي من أصول الإسلام، لا تقوم بدونه أُسرة ولا أمة ولا دولة، والتنويهُ به يتكرر في غير ما آية وفي غير ما مناسبـة، إذ المالُ قِـوام الأعمال، ولولا أَن المسلمين الأولين من سلفنا الصالح رضي الله عنهم استجابوا لله وَلِرَسـوله، ولم يبخَلوا بأموالهم ولا بأنفسهم في سبيل الملة والأمة، لما ارتفع للإسلام لِواء، ولما ملأت دعوتُه الخافِقَيْن، وبلغتْ رسالتُه المشرقيْن والمغربَيْن، وذلك ما يشيرُ إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾، وهو تأكيد قويّ لما سبق في الربع الماضي، عند قوله تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُمْ مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾، وعند قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلذِي يُقرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَـٰعِفُهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾، فقد تعهد الحقُّ سبحانه لمن أَنفق في سبيله بالأجر على مـا أنفق، والخَلَف عما أنفق، ووصف سبحانه في الربع الماضي نوعَ الأَجر أولاً بأنه «أجر كبير» ووصفَه ثانياً بأنه «أجر كريم»، وكرر وصفه في هذا الربع أيضاً بأنه «أجر

كريم». ولينفقَ المومنُ في سبيل الله عن سخاء وطواعية، ولا يبخلَ بما استخلفه الله فيه يكفيهِ أن يتذكر وعد الله له على ما أنفقه «بالأجر الكبير والكريم» الكبير مرة، والكريم مرتين. وأجرٌ يَصِفُه الغني الكريم نفسه «بالكِبَر والكَرَم» أجَلُّ من أن يُوصَف، وأكبرُ من أن يُقدَّر، فما عليك أيها المومن إلّا أن تُنفق في سبيل الله، وأن تقول كما قال رسول الله: «أنفِق بلالاً، ولا تخْشَ من ذي العرش إقْلالاً»، ﴿ فَاصْبِرِ اِنَّ وَعْدَ اَللَّهِ حَقٌّ ﴾ (الروم: ٦٠)، ولا تكن ممن يبخلون أو يَدْعُون الناس إلى البخل، فقد ذَمَّهُمُ الحقُّ سبحانه وأعلن سُخْطه عليهم، وأنَّه غَنِيٌّ عنهم وعن عَطائهم، فقال تعالى في نفس هذا الربع: ﴿ اِلذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَامُرُونَ اَلنَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَّتَوَلَّ فَإِنَّ اَللَّهَ اَلْغَنِيُّ اَلْحَمِيدُ ﴾.

وبيّن كتاب الله أن في إمكان المومن في أيّ عصر وفي أيّ جيل أن يبلغ أعلى درجات الإيمان التي بلغها السابقون الأولون، وهي درجة «الصديقية» متى آمن بالله ورسوله إيماناً قوياً يُهيمِن على حياته، ويقوده في جميع خطواته، بحيث تصبح حركاتُه وسكناتُه انعِكاساً حقيقيّاً لعقيدته، ومرآةً صادقة لدخِيلة نفسه، وذلك ما يشيرُ إليه قولُه تعالى: ﴿ وَالذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾.

وبعد ما بينت الآيات الكريمة فيما سبق فضل الإنفاق في سبيل الله ونوهت ببذل المال في وجوه الخير النافعة للإسلام والمسلمين، انتقلت إلى بيان ما في التضحية بالنفس، وبذل

المهج والأرواح، والشهادة في سبيل الله، من أجر عظيم، ونُور عميم، بالإضافة إلى ما ينالُه الإسلام على أيدي جنوده وشهدائه من الفتح المبين، والعز والتمكين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾، وقد نزلت في نفس المعنى عدة آيات قرآنية، ووردت عدة أحاديث نبوية.

ولعل تسمية هذا النَّمط الرفيع من المومنين باسم «الشهداء» جاءت من أنهم أعطوا الدليل بتضحيتهم، وبذل أرواحهم في سبيل دينهم، على صدق إيمانهم، وحماسِهم لعقيدتهم، وبذلك جاوزوا العَتَبة، وأصبحوا فوق متناوَل الشُّبُهات، كما أنهم بتضحيتهم بأنفسهم أعطوا الدليل أيضاً على أن العقيدة الإسلامية إذا خالطت بشاشتُها القلوبَ تفعلُ بمعتقديها الأعاجيب، وترفعُ نفوسَهم إلى درجة عليا من السمو والإيثار والتفاني والإخلاص، بحيث يهونُ عليهم في سبيلها كلُّ غال ورخيص، ويجودون من أجلها بالنفس والنفيس، ثم ذكرت الآياتُ الكريمة في هذا السياق ـ على وجه المقارنة ـ ما يكون عليه الكافرون والمكذِّبون يوم القيامة من العذاب الأليم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِئَايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَحِيمِ ﴾.

واتجهَ خطابُ الله إلى البشر عموماً، والمومنين خصوصاً، ليُعَرِّفَهم بحقيقة طالما غَفَلوا عنها وهم يرونها كل يوم، ألا وهي أن الحياة الدنيا بجميع علائقها ومتعلقاتها حياة عابرة لا ثبات لها ولا استقرار، وهي سائلة، مثل الزمن الذي تتمُّ فيه، دون أن يقر لها قرار، ومهما طالت حياة الإنسان فحياته عبارة عن «يوم

مكرّر»، وإذا أدرك الإنسانُ رغباتِه اليوم فسيفتقر إلى نفس الرغبات التي تتجدد له غداً، بحيث يظَل طيلةَ حياته أسيراً لشهواته ورغَباته، في دَوَّامَة لا تفتُر ولا تنقطع، حتى إذا أقبل عليه نذيرُ النُّقْلة إلى الدار الآخرة وجد نفسَه فارغ الوفاض، باديَ الإنفَاض، ولم يتزود بأي زاد، وأصبحت حياتُه التي قضاها في الدنيا - بالنسبة إلى حياته المقبلة - عبارةً عن فراغ شامل، وإفلاس كامل، إذ لم يَدَّخِرْ من الدار الفانية للدار الباقية، لا قليلاً ولا كثيراً. وهذا ما يحرص كتاب الله على لَفْتِ الأنظار إليه، حتى تكون حياة الناس متوازنة متكاملة، فيها للدنيا نصيب، وفيها للآخرة نصيب. فقال تعالى: ﴿ اِعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا اَلْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى اِلَامْوَٰلِ وَالَاوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ اَعْجَبَ اَلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرِيٰهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰماً ﴾.

فقوله تعالى هنا: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾، أي: كمَثَل مطر نزل من السماء بعد اليأس والقُنوط الناشىء عَن الجَدْب والجفاف. وقوله تعالى: ﴿ اَعْجَبَ اَلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾، أي: اعجب الزرَّاع ما أنبته الغيث، و«الكافر» هنا بمعناه اللغوي هو الزارع، وفي اختيار هذا التعبير هنا تلميح إلى شدة اهتمام الكفار وإعجابهم بالحياة الدنيا، فهم أكثرُ الناس حرصاً عليها، وميلاً إليها. وقولُه سبحانه: ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرِيٰهُ مُصْفَرّاً ﴾، أي: بعد ما كان النبات خَضِراً نَضِراً يصبح مُصْفَرَّ اللون وقت الحَصاد. وقولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰماً ﴾، أي: يصير يابساً متحطماً، وكذلك شأن الحياة على سطح الأرض في أطوارها المختلفة، وشأن الإنسان نفسه فوقها،

فالإنسان في أول عمره وعنفوان شبابه يكون غضّاً طريّاً ليّن الأعطاف، بهيّ المنظر، ولا يكاد يدخل في طور الكهولة حتى تتغير طباعه، ويفقد بعض قُواه، ثم يكبُر فيصير شيخاً ضعيف القُوى قليل الحركة، يُعجزه الشيء اليسير. قال ابن كثير: «ولما كان هذا المَثَل دَالاًّ على زوال الدنيا وانقضائها، وأن الآخرة كائنةٌ لا مَحالة، حذَّر من عذابها، ورغَّب فيما فيها من الخير»، فقال تعالى: ﴿ وَفِى اَلْاَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اَللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾، أي ليس في الآخرة إلّا هذا أو هذا، فإمَّا العذابُ الشديد، وإمّا المغفرةُ والرضوان، فليَخْتَر العاقلُ لنفسه ما يشاء. ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا اَلْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴾، أي: إنما هي متاع مهما طال فهو فانٍ، فلا ينبغي للعاقل أن يَركَن إليها، ويَقصُر اهتمامه عليها، فضلاً عن أن يخادع نفسه ويعتقد أنه لا دارَ سواها، ولا مَعادَ وراءَها.

وانتقل كتابُ الله إلى تبيين عقيدة أساسية في الإسلام تجعل المومن بها أقرب إلى الرِّضَى والاغتباط، بما يعتورُه في حياته من عُسْر ويُسْر، وشدة ورخاء، بحيث لا يصيبه أيُّ ذهول أو حَيرة، أمام أحداث الحياة ومفاجآتها المتنوعة. «فما أصابَ المومِنَ لم يكن ليُخطِئه، وما أخطأه لم يَكن ليُصِيبَه»، ما دامت القدرة الإلَهية من وراء الإنسان، ولها الكلمةُ الأولى والأخيرة في كل شأن وفي كل آن، وذلك ما يتضمنه قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى اِلْاَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾: أي: من قبل أن نخلق الخليقة،

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾، لأنه سبحانه كما يعلم ما كان وما يكون، يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون، ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾، أي: لكيْ لا تحْزنوا وتأسَفوا على ما فاتكم، إذ لو قُدِّرَ شيء لكان: ﴿ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾، أي: لكيلا تفخَروا على غيركم بما أَنعم الله به عليكم، فلا تتخذوا نِعَم الله أَشَراً وبَطَراً، وفَخْراً وزَهْواً، إذ مرجعُهَا قبل كل شيء إلى فضل الله وإحسانه، لا إلى مجرد سعيكم وكَدِّكم، كما قد يُخيَّل إليكم: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾، أي: أنه سبحانه لا يحب كل متكبر فخور على غيره، قال عكرمة: «ليس أَحدٌ إلاّ وهو يَفرَح ويحزَن، لكن اجعلوا الفرَحَ شكراً، والحُزنَ صبراً».

وأَوضح كتابُ الله مرة أخرى حكمة الحق سبحانه في إرسال الرسل وإنزال الكتب، وأَنها لا ترمي إلاّ إلى شيء واحد وهو إسعاد الإنسان بالهدايَة والإرشاد، وإقامة ميزان العدل والمساواة بين العباد، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾.

و«الكتاب» هنا إشارةٌ إلى سِجِلِّ الوحي الإلَهي المتضمِّن للشرائع والأحكام، و«الميزان» هنا رمز إلى العدل الإلَهي الذي أَرسل الله به ولإقامته جميعَ الرسل والأنبياء، وكما جاء «الميزان» هنا معطوفاً على «الكتاب» لأنه هو هدفُه الأسمى وغايتُه الأخيرة، فقد جاء «الكتاب والحُكم» و«الكتاب والحكمة» متعاطفين في عامَّة القرآن، تأكيداً لتلازم الشريعة الإلَهية مع الحكم بها بأسلوب حكيم، وإقامة العدل على أساسها السليم. وذكْرُ القرآن الكريم

«للميزان» في هذا السياق بصفته «رمزاً للعدل» هو السبب الذي نبّه غير المسلمين إلى أن يقتبسوا منه هذا الرمز، ويجعلوا صورة «الميزان» رمزاً للعدالة في أختامهم ومنشوراتهم الخاصة بالقضاء.

وأشار كتابُ الله إلى ما أنعم به على البشر من خلق معدن «الحديد» وتسخيره لحاجاتهم المدنية والعسكرية، فقال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا اَلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾. أمَّا ما فيه من «البأس الشديد» فيتجلى في ردعه للمعتدين، وفي فصله الحاسم بين المتنازعين وأمّا ما فيه من «المنافع للناس» فشيء يفُوق العَدّ، ويتجاوز القياس، وما من حِرفة وصِناعة صناعة إلاّ وللحديد فيها سَهْمٌ كبير، وللحديد في تطورها وازدهارها أكبر تأثير.

وقولُه تعالى في نفس هذا السياق: ﴿ وَلِيَعْلَمَ اَللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾، تلميحٌ إلى الجهاد بالسلاح في سبيل الله، حمايةً لنشر دِينه، ودفاعاً عن دعوته، مما يقوم به المسلمون بين الحين والحين، حفظاً لوجودهم وكيانهم، وضماناً لنفوذهم وسلطانهم على بلدانهم، وعَقَّب كتابُ الله على ذلك، بما يفيد أن قوة الله وعزته لا تفتقرَانِ إلى نصرة أحد ولا إلى تأييده، لا بسلاح ولا بغيره، وأن مَردَّ النصرة والدفاع في الحقيقة إنما هو نفسُ الدعوة الإسلامية وأهلُها، الذين يجب أن يكونوا على أُهبة الدفاع عن عقيدتهم وسيادتهم دائماً، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اَللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾.

وأشار كتابُ الله إلى ما وقع من تحريف للرسالات الإلَٰهية،

وخَاصَّةً على أيدي أهل الكتاب، مُبيِّناً أنه إلى جانب العدد القليل الذي اهتدى منهم قد وُجدَ فيهم كثير من المنافقين: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، ﴿فَئَاتَيْنَا الذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

ثم اتجه الخطاب الإلآهي في ختام هذا الرُّبُع إلى المومنين، مبشِّراً لهم برحمة الله وغفرانه، ومُعَرِّفاً بما خصهم به من رعايته ورضوانه، فقال تعالى: ﴿يَٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اَللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِ يُوتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ اَلْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُوتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

الربع الأول من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ
يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنكُم
مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ
لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾
وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا
فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ
بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا

عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ
ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن
ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ
ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ
ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ
لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ
بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ
لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ
وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ
وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ
وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ
صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾
ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ
وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾

الربع الأول من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم

عبــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم، إبتداءً من قوله تعالى في فاتحة سورة «المجادلـة» المدنيـة: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾، إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿ فَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

في مطلع هذا الربع، وهو فاتحةُ سورة «المجادلة»: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾، تنـاول كتابُ الله بالتهذيب والتشذيب عادة من عادات «الجاهلية» التي كانت شائعة بين العرب، وكانوا يُطلقون عليها اسم «الظِّهار»، وهي من جملة العادات السيئة التي كان فيها عُدوان على حقوق المرأة، فقد كان الرجل «الجاهلي» إذا غضب على امرأته اعتبرها مثل أُمه، فحرّم على نفسه مِساسَها كحِرْمة مِساس أُمه عليه سواء بسواء، وقال لها تعبيراً عن قصده: «أَنتِ عليَّ كظهر أُمّي» وبذلك تصبح علاقته

الزوجية معها منقطعة حسب العرف «الجاهلي» لكنها بالرغم من تحريمها عليه تبقى «معلَّقة» دون طلاق، بحيث لا يمكن لها أن تتزوج من غيره، فلا هي حلٌّ له في رأيه حتى تستمر علاقتها الزوجية معه قائمة، ولا هي مطلَّقة منه حتى تكون حرة في نفسها، وتبحث عن زوج آخر.

ولأوّلِ ما صدَر هذا العملُ من أَحد الأزواج المسلمين رفعت زوجتُه المسلمة شكوى به إلى رسول الله ﷺ تستفتيه في أمرها، وتسأله الفصل في نزاعها مع زوجها، وبمناسبة وقوع هذه الحادثة التي هي الأُولى من نوعها في المجتمع الإسلامي الناشىء نزل كتاب الله مُبَيِّناً حكم الله فيها خصوصاً، وفي شأن «الظهار» عموماً، وابتدأت الآيات الكريمة بالإشارة أولاً إلى الشكوى المرفوعة إلى رسول الله، وإلى الحوار الذي دَار بينه وبين الزوجة المشتكية حول ظروف الحادثة وملابساتها، وما قد يترتب عليها من آثار، وقد حفظت دواوين السنّة اسم الزوجة واسم زوجها، فهي خَوْلَة بنت ثَعلبة، وهو أَوس بن الصامت، وكان لهما صِبْية صغار، وكان قد تقدم به السن وساء خلُقه في معاملة زوجته، فلما اشتد به الغضب قال لها: «أنتِ عليَّ كظهر أمي»، فقالت له: «والله ما أراك إلاّ قد أَثِمت في شأني، لَبِست جِدَّتي، وأَفنيتَ شبابِي، وأَكلت مالي، حتى إذا كبِرَتْ سِنّي، ورَقَّ عَظمي، واحتجْتُ إليكَ فارَقتَني»، ولما ذهب عنه الغضب قال لها: «ما أَكْرَهَنِي لذلك»، ثم أَقبل عليها وحاول مِساسها من جديد، فقالت له: «والذي نفسُ خُوَيْلَةَ بيده ـ تشير إلى اسمها بصيغة التصغير والدَّلال ـ لا تخلصُ

إلي وقد قلتَ ما قلتَ، حتى يحكم الله ورسوله بيننا بحكمه»، فقال لها: «اذهبي إلى رسول الله ﷺ فانظُري هل تجدين عنده شيئاً في ذلك». وهذه الواقعة هي التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَـٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾، وفي هذه الآية دليل على مبلغ عناية الله بهداية خلقه وإرشادهم، وإصلاح ما فسد من أحوالهم، وعلى تمام رعايته للمظلومين، ونصرته لهم، برفع الظلم الواقع عليهم ولو من أقرب الأقربين.

وبيّنَ كتابُ الله في الآيات التالية حكم الشريعة الإسلامية في «الظهار»، وخلاصة الحكم الشرعي فيه: أَنّ «الظهار» يستلزم تحريم مِساس المرأة على الزوج، وتحريم جميع أنواع الاستمتاع، إلّا أَن مجرد «الظهار» لا يُعتبرُ في الإسلام نوعاً من أنواع الطلاق ولا قائماً مقامه، نعم، إن رغبة الزوج في مِساس زوجته والاستمتاع بها بعد ظهاره منها، وعوْدَته إلى ما حرمه على نفسه بالظهار، لا بد أن تسبقه «كفارة» يُكفر بها الزوج، عن الإثم الذي وقع فيه بالإقدام على إعلان الظهار.

وهذه الكفارة مُطالَب فيها بالترتيب والتدريج، فتبدأ أولاً بتحرير رقبة من الرقّ، وذلك في حق الزوج القادر على العتق، بحيث لا يسمح الشرعُ له بمِساس امرأته إلّا بعد تحرير تلك الرقبة، فإن لم يكن بيده من المال ما يستطيع به إنقَاذَ رقبة من الرق وتحريرَها، وجب عليه صيام شهرين على التتابع والتوالي، بحيث يلزمه أن يصوم ستين أو ٥٩ يوماً دون أي فصل بينهما ولا

انقطاع، وبعد انتهاء صومه طيلة شهرين كاملين يباح له الاِتصال بزوجته التي كان قد ظاهر منها، فإن كان عاجزاً عن تحرير رقبة من الرق، وعاجزاً عن صيام شهرين متتابعين لعذر يقبله الشرع، لم يبق أمامه إلّا مخرج واحد من الوَرْطة التي تورط فيها، وهذا المخرج هو القيام بإطعام ستين مسكيناً مقابل ما عجز عنه من صيام ستين يوماً. قال الزمخشري: «فإن قلت: هل للمرأة أن تُرافِع المظاهِر إذا امتنع مِن الكفارة؟ قلت: لها ذلك ـ وعلى القاضي أن يجبره على أن يُكفِّر وأن يحبسه، ولا شيء من الكفارات يُجبَر عليه وَيُحْبَسُ إلّا كفارةُ الظهار وحدها، لأنهُ يضر بالمرأة في ترك التكفير والامتناع من الاستمتاع، فيلزم أيضاً حَقُّها».

وفي نفس الوقت الذي شرع فيه كتاب الله هذه الحدود والقيود للظهار، حتى لا يُقبِل عليه المسلمون كما كان الأمر في «الجاهلية»، نادَى كتاب الله بتسفيه رأي أولئك الذين يعتقدون أنهم بمجرد ما يُشَبِّهون زوجاتهم بوالداتهم تصبحُ زوجاتُهم في حكم الأمهات فعلاً، مبيِّناً أن أُمهاتِهم على الحقيقة وفي هذا المقام هُنَّ النساءُ اللاتي ولَدْنَهم، لا غيرهن من النساء، أما في غير هذا المقام فإن «المرضعاتِ» ملحقاتٌ بالأمهات، لأنهن لمَّا أرضعْن دخلنَ بالرَّضاع في حكم الأُمهات، وكذلك أزواج رسول الله ﷺ «أمهات المومنين» لأن الله حرم نكاحهن على الأمَّة، فدخلْن بذلك في حكم الأُمهات، كما نادَى كتاب الله باعتبار «صيغة الظهار» التي تعارفها العربُ في الجاهلية صيغة

منكرة وزوراً من القول في نظر الإسلام، إذْ أنَّ أم الزوج هي التي ولدته، ولا يُعقَل أن تُصبِح الزوجة أمّاً للزوج بمجرد كلمة يَفُوهُ بها، تعَسُّفاً واعْتباطاً، وهي ليست أمّاً له في الحقيقة، ولا داخلة في حكم الأمهات، وهذه المعاني في جملتها هي التي تضمنتها الآيات الكريمة التالية حيث قال تعالى: ﴿ الذِينَ يُظَّهَّرُونَ مِنكُمْ مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمُ إنُ امَّهَـٰتُهُمُ إلَّا آلَـٰئِى وَلَدْنَهُمْ وَإنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِّنَ اَلْقَوْلِ وَزُوراً، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ وَالذِينَ يُظَّهَّرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَّتَمَآسَّا ذَالِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَـامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَّتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَالِكَ لِتُومِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِـهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَـٰفِـرِينَ عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴾. وجاء في «موطأ» الإمام مالك رحمه الله ما نصه: «قال مالك في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَالذِينَ يُظَّهَّـرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾، قال: سمعت أن تفسير ذلك أن يتظاهر الرجلُ من امرأته، ثم يُجمِع على إمساكها وإصابتها، فإن أجمع على ذلك فقد وجَبت عليه الكفَّارة، وإن طَلقها ولَمْ يُجْمِع بعد تظاهره منها على إمساكها وأصابتها فـلا كفارة عليـه، قال مالك: فإن تزوجها بعد ذلك، أي بعد طلاقِهِ لها دون كفارة، لم يَمسَّها حتى يُكفِّر كفارة المُتظاهر».

وبعدما بينت الآيات الكريمة حدود الله في شأن «الظهار»، ووضعت بذلك حداً للهوى والتعسف واستبداد الأزواج بزوجاتهم، مما كان شائعاً في «الجاهلية» قبل الإسلام، عقَّبَ كتابُ الله بما

يفيد أن الذين لا يَقِفُون عند الحدود التي حدَّها لهم الشرع إنما يَجنُون على أنفسهم جناية كبرى، فسيعاقِبهم الحق سبحانه بالخِزْي والهوان، جزاءَ تمردهم على الشريعة واسْتِنْكَافِهم عن الانقياد لنُظُمها، وعدم اعترافهم بسلطتها. وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى مَزِيدٍ من الوصف لعلم الله الشامل الكامل، إذ لا يغيب عن علمه شيء، فهو يعلم السر والنجوى، «السر» المكتوم الذي يحتفظ به كل واحد منهم دون أن يُطلِع عليه الغير و«النجوى» التي يكشف بعضُهم خِلالها عما في نفسه للبعض الآخر، لكن في تَسَتُّر وحَذَر، وإذا كان الناس يَنسَون أعمالهم ولا يتذكرونها في أغلب الأحيان، فإن الله سبحانه يُحْصِي عليهم أنفاسهم، ويسجل لهم أعمالهم، وينبِّئهم بما عَمِلوا مَتى حلَّ موعد الحساب والجزاء، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَيٰهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَيٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا ﴾، أي: وملائكتنا، ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (الزخرف: ٨٠).

وتحدث كتاب الله عن طائفة من المنافقين والكافرين يفضِّلون الاجتماع في غفلة عن الأنظار، بدلاً من أن يجتمعوا على مرأى ومسمع من الناس وذلك بُغيةَ التآمر في اجتماعاتهم الخاصة، وأشار إلى النهي الذي وُجِّه إليهم من قبل حتى لا يَعقِدوا مثل هذه الاجتماعات التي يُبَيِّتُون فيها الشر والأذى للإسلام والمسلمين، لكنهم بالرغم من النهي الذي وُجِّه إليهم عادوا لما نُهُوا عنه، من التناجي فيما بينهم بما فيه «ضرر خاص» وهو المعبر عنه هنا «بالإثم»، وبما فيه «ضرر عام» وهو المعبر عنه هنا (بالعدوان)، وأكبر عدوان هو ما يتآمرون عليه من معصية الرسول، وعدم التنفيذ لأوامره، والخروج على تعليماته، وهذا المعنى هو ما يشير إليه قوله تعالى في خطابه لنبيه عليه السلام: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى اَلذِينَ نُهُواْ عَنِ اِلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِالاِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾.

ووصَفَ كتابُ الله ما تنطوي عليه نفوس طائفة من المنافقين، وما يَبرُزُ على ألسنتهم من عبارات السخرية والتعريض، وعدم التوقير الواجب لمقام الرسالة، وما تُحَدِّثهم به أنفسهم عند ذلك، من أنه لو كان الرسول رسولاً حقاً لَعُذِّبوا في الحين، جزاءَ ما يقولونه في حقه من الأقوال الخارجة عن حدود الأدب ومقتضيات الإيمان، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اِللَّهُ وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اَللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِيسَ اَلْمَصِيرُ ﴾.

ووجَّهَ كتابُ الله خطابه إلى المومنين، داعياً إيَّاهم، عندما

يجتمعون للتناجي فيما بينهم في اجتماعات خاصة، إلى أن يتجنبوا في أحاديثهم كل ما فيه ضرر فرديّ أو جماعي، وأن يتناجوا فيما بينهم بالبر والتقوى دون الإثم والعدوان، وأن يستبعدوا من مذاكراتهم كلَّ ما تُشَمُّ منه رائحة التمرد وعَدَم الامتثال، وكلَّ ما يؤدي إلى معصية الرسول، فطاعةُ الله وطاعةُ رسوله دعامتان أساسيتان من دعائم العقيدة الإسلامية، ورُكنان من أركان الدولة الإسلامية، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا اَلذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِالاِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُواْ اللَّهَ اَلذِىَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

ونبَّهَ كتابُ الله إلى أنه لا ينبغي للمومن أن يناجي آخر فيُسِرَّ إليه بالحديث، ما دام حَاضراً معهما مومنٌ ثالث لا يعرِف ما يدورُ بينهما، وقد يتأذى من حديثهما الذي يَجهَل فحواه، إذ تُوَسْوِس إليه نفسه أن الحديث الذي هو نجوى بين الاثنين، ويتسارَّان به فيما بينهما، يتضمن استهزاءً به، أو تآمراً عليه، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا اَلنَّجْوىٰ مِنَ اَلشَّيْطَـٰنِ لِيُحْزِنَ اَلذِينَ ءَامَنُـواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْئاً اِلَّا بِإِذْنِ اِللَّهِ وَعَلَى اَللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ اِلْمُومِنُونَ ﴾، وفي مثل هذا المعنى قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان دون الثالث إلّا بإذنه، فإن ذلك يُحزِنه». وهذا النص انفرد بإخراجه مسلم في صحيحه.

وبدلاً من استعمال «الشعر» وسيلة لقضاء الحاجات، حسبَما كان متعارفاً عند العرب، لأنه من أفضل ما عندهم، فكان الرجل يُقدِّمه أمام حاجته «يَستمطِر به الكريم، ويستنزِلُ به اللئيم» على

حَدِّ قول عمر بن الخطاب، جاء كتابُ الله بنمَط جديد يتفق مع روح الإسلام وأهدافه الإنسانية السامية، فخاطب المومنين الذين يرغبون في مُناجاة الرسول والتحدث إليه في شؤونهم الخاصة أن يتقربوا إلى الله قبل لقاء الرسول، بتقديم الصَّدَقات إلى الفقراء المسلمين، ثم يَأتُوا إليه وقد ازدادُوا طُهراً وصفاء، أما الذين لا يملكون ما يتصدقون به على الفقراء، لكونهم من نفس الفقراء، فلا حَرَج عليهم في لقائه ومناجاته دون تقديم أية صدقة، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ ﴾، أي: أردتم ذلك، ﴿ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوِيٰكُمْ صَدَقَةً، ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾، ثم وسَّع اللَّهُ عليهم ولم يضيق، فقال تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمُ أَن تُقَدِمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَـوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَٱللَّهُ خَبِيـرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ولعل من بين أسرار هذا التوجيه الإلآهي الحكيم ما كان عليه المسلمون من التزاحم على لقاء رسول الله، ورغبةِ كلِ فرد في الاختِلاء به والاستئثار بوقته واهتمامه، لقضاء الحاجات، وتلقِّي التوجيهات، الأمر الذي لوْ لَمْ يوضَع له حَد لأصبح من الصَّعْب عَلَيْه القيامُ بالمهامِّ الكبرى التي تستلزم تكريس وقته لأدائها أولاً بأول، وذلك لخير الجماعة الإسلامية جمعاء، فلما تلقَّى المسلمون هذا التوجيه الإلآهي كان لهم بمنزلة «الفِطام». وكان فيه نوع من التخفيف على رسول الله، حتى يستطيع التفرغ للقيام بمهام الرسالة الجسام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

الربع الثاني من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا
قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ
عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ
سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ
اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم
مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ
يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ
فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ
هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي
الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾
لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ

كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾
هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ
الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم
مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ
الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا
يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ
الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا
قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا أَفَاءَ
اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ
دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا
نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾
لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ
فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ
ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ
يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ
حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾
وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا
ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

الربع الثاني من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثاني من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قوله تعالى في سـورة «المجادلـة» المدنيـة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى اَلـذِينَ تَوَلَّـوْاْ قَوْمـاً غَضِبَ اَللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُمْ مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى اَلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ونهايتُه قوله جلّ علاه في سورة «الحشر» المدنية أيضاً: ﴿وَالذِينَ جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اَغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا اَلذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاً لِّلذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وكتاب الله في مطلع هذا الربع يحذِّر الرسول عليه السلام من طائفة المنافِقين، ويبين له ما هم منطوون عليه من موالاة اليهود الذين لا يضمرون أيّ خير للعرب، لا للعرب المسلمين، ولا حتى للعرب المنافقين الذين يمالئونهم في الباطن. ويهتك كتابُ الله الستر عن أسلوب التضليـل والتدْجيـل الذي يستعمله «المنافقون» تقليداً لليهود لجلب المومنين الصادقين إلى صفهم والتأثير عليهم، ولا سيما ما يُقسِمُون به من الأَيْمَان المغلظة،

تأييداً لدعاويهم، وتدعيماً لأكاذيبهم، ويبين كتابُ الله أن الأَيْمَانَ المغلَّظة التي يحلفونها إنما هي ستار كثيف يُخفون به مقاصِدَهم، وسلاح خفيف يحمون به أنفسهم، حتى لا تفتضح نياتُهم، ولا تنكشف عوراتهم، وحتى تستمر أحكام الإسلام الظاهرة جارية عليهم، باعتبار أنهم «مسلمون». وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

ثم يتحدث كتاب الله عن المصير السيء الذي ينتظر «المنافقين» يوم القيامة، وأن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم في الآخرة من الله شيئاً، إذْ لا يستطيعون فِدْيَةَ رقابهم بالمال، ولا يستطيعون نصرة أنفسهم بالرجال، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْئاً أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾.

وحيث أن من عَاشَ على شيء مات عليه، وحيث أن المنافقين قد تمكَّن النفاقُ من قلوبهم، واعتادوا الحَلِف بالأَيْمَان الكاذبة وهم على قيد الحَيَاة في الدنيا، واتخذوا من أَيْمَانهم الفاجرة وقايةً يتقون بها سطوة الإسلام وسلطانَه، فإنهم سيواصلون نفس الخطة وهم في الآخرة، وسيحلفون أمام الله على الكذب، كما كانوا يحلفون عليه أمام رسوله والمومنين، جهلاً منهم بأن الله يعلم السر والنجوى، وظناً منهم أن ذلك سيُنجيهم من عذاب الله،

مثل ما أنجاهم كذبُهم في الدنيا من متابعة الناس، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَٰذِبُونَ﴾.

ونظراً لأن البشر على اختلاف أجناسهم إنما هم فريقان: فريق يدعو إلى «الحق» ويسعى في الصلاح، وفريق يدعو إلى «الباطل» ويسعى في الفساد، فقد اعتنت الآيات الكريمة هنا بتحديد الفروق الواضحة والسِّمات المميِّزة التي يتميز بها الفريق الأول وهو «حزب الله» عن الفريق الثاني وهو «حزب الشيطان»، وذلك ليَعرِف المومنون عن بيِّنة، في جهة من يجب أن يضَعوا ثقتَهم، وفي يد من يجب أن يضَعوا أيديهم:

ـ فأما «حزب الشيطان» الذي يقود الشيطانُ خطواته، ويوحِي إلى أهله زخرف القول غروراً، فهو الذي اسْتَحْوَذ عليه الشيطان استحواذاً تاماً، بحيث أنساه ذكر الله بالمرة، فلا هو يومن بالرسل ورسالاتهم، ولا هو يومن بالكُتُب المنزلة وشرائعها، ولا هو يومن بالآخرة وعذابها، بل هو يتحدى أوامر الله ونواهيه تحدياً صارخاً، فينتهك الحرمات، ويتعدى الحدود، ويحاولُ أن يقف في وجه كل شيء له علاقة بتوجيه الله وهدايته، ويعمل كل ما في وسعه جاهداً لطمس معالم الوحي والدين، بين البشر أجمعين، وإلى هذا الحزب الضال المُضل مِنَ البشر يشير قوله تعالى: ﴿اَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَٰنُ فَأَنسيٰهُمْ ذِكْرَ اَللَّهِ أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَٰنِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اَلشَّيْطَٰنِ هُمُ الْخَٰسِرُونَ﴾.

ـ وأما «حزب الله» فهو الذي شرح الله صدره للإيمان، وحَبَّبه إليه، وأقرَّه في قلبه، وأيّده بروح منه، وثبّتَه بالقول الثابت، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وألْقى في قَلْبه محبة المومنين بالله ورسولُه ومودَّتَهم، وعداوةَ غيرهم إلى الأبد، ولو كان هذا الغير من أقرب الأقربين. وإلى حزب الله من الهادين المهتدين، الذين هم النبراس المضيء في الدنيا والدين، يشير قوله تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَآدَّ اَللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمُ أَوَ اَبْنَآءَهُمُ أَوِ اِخْوَٰنَهُمُ أَوْ عَشِيرَتَهُمُ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الاِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا اَلَاَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ اَللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اَللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

ومما يجب التنبيه إليه ما جاء في سياق التفرقة بين حزب الله وحزب الشيطان من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اَلذِينَ يُحَآدُّونَ اَللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى اِلاَذَلِّينَ كَتَبَ اَللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِىَ إِنَّ اَللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾، فهذه الآية «تتوعَّدُ حزب الشيطان» بأن مصيره المحتوم هو الخزي والذل والهوان، مهما تطاول على الله وجاهره بالشَّنآن والعدوان. كما أنها «تَعِد حزب الله» الذي يرعاه الله، ويتصدَّرُه «أُولو العزم» من الرسل، بالغَلَبة على حزب الشيطان والنصر عليه، لا في الآخرة وحدها، ولكن حتى في الدنيا قبلها، طبقاً لصريح قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ اِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالذِينَ ءَامَنُواْ فِى اِلْحَيَوٰةِ اِلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الاَشْهَـٰدُ ﴾ (غافر: ٥١)، وقد صدق الله وعده لحزبه فعلاً، فغلب الإيمان

على الكفر، وانتصر التوحيد على الشرك في رقعة واسعة من العالَم، وأظهر اللَّهُ دينه الحنيف على كثير من المعتقدات الزائفة، والتقاليد الباطلة، التي كانت قبل ظهوره سائدةً في جميع أطراف الأرض، فآمنت بالله ورسوله، ودانت بدين الله، مِآتُ الملايين من البشر، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، وها هو مَدُّ الإسلام، لا يزال في امتداد مستمرّ على الدوام، رغماً عما تَعرَّض له المسلمون عَبْر الأجيال والقرون من بطش وضغط، ومكر سيء، وكَيْدٍ خَفي، يُلاحقُهم به أعداءُ الإيمان، في كل مكان. أما مَوْجَات الكفر والإلحاد التي تتصاعد في بعض الفترات وفي بعض الأجيال، وفي بعض البقاع، فإن مآلَها دائماً إلى تقهقر وتراجع، أمام تيار الإيمان الصاعد، الذي يُمِدُّهُ كلَّ يوم مَدَدٌ جديد من العلم بأسرار الكون، والمعرفة بعجائبه، والاكتشافات الحديثة لآفاقه الواسعة، وبذلك كله تتحقق الغَلَبة لله ولرسله في الدنيا كما هي مُحقَّقة في الآخرة.

وقولُه تعالى في التعقيب على هذا المعنى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾، إشارةٌ إلى أن «قوةَ» الله التي لا تُعادلها قوة، وإلى أن «عِزته» التي لا يلحقها ضَيْم، هما أكبرُ ضمان لحزب الله في صراعه مع حزب الشيطان، وما دام الأمرُ كذلك فمَن تمسك بحبل الله، وانضمَّ إلى حزب الله، كان أقوى من كل قويّ، وأعزّ من كل عزيز، إذْ أنه يَأوِي إلى ركن ركين، ويعتمد على سَنَد متين.

والآن فَلْننتقل إلى سورة «الحشر» المدنية أيضاً، وقد سميت «سورة الحشر» أخذاً من قوله تعالى في الآية الثانية منها: ﴿ هُوَ

الَّذِي أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾، وهذه السورة الكريمة تشير إلى يهود «بَني النَّضِير»، وجلائهم عن المنازل التي كانوا يسكنونها، والحصون التي كانوا يتحصنون بها خَارِجَ «المدينة» على أَميال منها من الناحية الشرقية، وذلك بعدما حاصرهم رسول الله والمومنون سِتَّ لَيَالٍ، على رأس ستة أشهر من «غزوة أُحُد» أوائلَ السنة الرابعة من الهجرة، فنزلوا واستسلموا، على أساس الكفِّ عن دمائهم، والجَلاء عن منازلهم وحصونهم، وأَنَّ لهم ما أَقَلَّته إبِلُهم وحملته من الأموال والأمتعة، فاحْتَملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، إلاّ «الحَلْقة» وهي السلاح الكثير، فلم يَسمَح لهم بحمله معهم، واتجه فريق من بَنِي النَّضِير إلى «خَيْبَر»، واتجه فريق آخر إلى «أَذْرِعات» من أعالي الشام.

والسبب المباشر لحصار «بَنِي النَّضِير» ونزولهم على «الجلاء» فيما يذكره أصحاب المغازي والسِّيَر هو أَنهم تواعدوا مع رسول الله على أن يخرج إليهم في طائفة من أصحابه، وأن يخرج إليه منهم طائفة من أَحْبارهم، حتى يلتقي الفريقان ويسمعوا منه، فيومنوا به إن صَدَّقَه أحبارهم، فلما حَلَّ الموعد غدا عليهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «إنكم لا تُومَنُون عندي إلاّ بعهد تُعاهِدُونَنِي عليه»، فأَبَوْا أن يعطوه عهداً، رغماً عن مُهادنته لهم منذ هجرته إلى المدينة، وما أَعطَوه له من العهد والذمة إذ ذاك، وبهذه المناسبة خلا بعضهم ببعض، فقالوا: «إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، وكان رسول الله مستنداً إلى

جَنب جدار من بيوتهم، فهل من رجل يَعْلُو على هذا البيت فيُلْقِي صخرةً على محمد فيُرِيحَنا منه؟» وانتدبوا لِذلك واحداً منهم، فصعد أَشقاهُم ليُلقِي الصخرة على رسول الله ﷺ، ورسولُ الله في نفر من أَصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي، فأَوحى الله إلى رسوله بما أراد القوم من اغتياله، وقفَل وَحْدَهُ راجعاً إلى المدينة، ولما أَقبل عليه أصحابُه أَخبرَهُم بخيانة «بَنِي النَّضِير» ونقضهم للعهد الذي عاهدوا عليه الرسول، ومحاولتهم لِلغدر به وهو بين أظهرهم، وأمر رسولُ الله ﷺ بالتهَيُّؤ لحربهم والمسير إليهم، ولما أَعدُّوا العُدَّة سار إليهم بالكتائب حتى نزل بهم، فتحصنوا في الحصون، وبعد مُضيّ مدّةِ الحصار الإسلامي المضروب على حصونهم طلبوا الصلح، وسألوا رسول الله أَن يَحقِن دماءَهم ويُجلِيهم عن ديارهم، فصالحهم على ذلك، وتم جلاء «بَنِي النَّضِير» عن منازلهم التي كانوا بها خارج المدينة، ولم يُسلِم منهم بهذه المناسبة إلّا رجلان أَسلما على أموالهما فأَحرزَاها، وهما يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب. وإلى هذه الواقعة تشير الآيات الكريمة الواردة في «سورة الحشر»، وكان ابنُ عباس يطلق عليها أيضاً «سورة بني النضير».

وقد ابتدأت هذه السورة بما يفيد خضوعَ جميع المخلوقات، في الأرض والسماوات، لعزة الله وجلاله، وتنزيهَها لخالقها عن كل نقصٍ أو عجز، واعترافَها بحكمته وكماله، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

ثم شرعت الآيات الكريمة في وصف حصار «بَنِي النَّضِير» وجلائهم، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، وفي هذه الآية إشارةٌ إلى أن الوضع المادي الذي كان عليه «بنو النَّضِير» من المال والسلاح والحصون كان يوحي إليهم بأنهم في عز ومَنَعة، بحيث لا يستطيع أن يطاولهم أحد، فضلاً عن أن ينتصر عليهم: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، كما كان هذا الوضع نفسه يوحي إلى الجماعة الإسلامية الناشئة بأن الاستيلاء على «بَنِي النَّضِير» يحتاج إلى تضحيات جُلّي، إن لم يكن في حكم المتعذِّر بالمرة، ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾، فلما فتحوا أبواب حصونهم وخرجوا منها مستسلِمين، يَعرِضون بأنفسهم على رسول الله ﷺ أن يكُفَّ عن قتالهم، وأن يُجلِيهم عن ديارهم، كان ذلك أمراً إلهياً خارقاً للعادة، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، إذْ لم يكن هذا المصير الذي انتهوا إليه بعد سِتّ ليالٍ من حصارهم منتظَراً، لا عِند المسلمين، ولا عند «بَني النَّضِير» أنفسهم، وقد كان في الإمكان أن يطول الحصار أسابيع وشهوراً. وإذَنْ «فالرُّعْب» الذي ألقاه الله في قلوبهم، والهزيمةُ التي استولت على نفوسهم، هما العاملان الأساسيان في خروج «بَني النَّضِير» من حصونهم، واستسلامهم للرسول والمومنين، ورضاهم بالجلاء عن «المدينة» عاصمة الإسلام الأولى، وفي هذا الإطار من الظروف والملابسات نستطيع أن نفهم المراد بقوله تعالى في هذا

السياق: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ هُوَ ٱلَّذِي أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ﴾، في وصف «بَنِي النَّضِير» وهم يتأهبون للجلاء عن ديارهم، إشارةٌ إلى ما قاموا بهدمه من مبانيهم، وما قاموا بنقضه من سقوفهم، وما قاموا بقلعه من أخشاب أبوابهم، وما قاموا بحَمله من مختلف الأمتعة والرياش التي كانت بمنازلهم، وبذلك خرَّبوا بيوتهم بأيديهم وتركوها خراباً يَبَاباً.

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَيْدِى ٱلْمُومِنِينَ ﴾، إشارةُ إلى ما قام به المسلمون أثناء حصارهم «لبني النضير»، فقد كان المسلمون إذَا ظهروا على دَرْب أو دار هدموا حِيطانها ليتسع المكانُ للقتال.

وقوله تعالى: ﴿ فَاعْتَبِرُواْ يَـٰأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ تعقيبٌ على ما في هذه الواقعة الفريدة من نوعها من مختلِف العظات والعِبَر، فهي درس عملي أعطاه الإسلام للمشركين، وللمنافقين، وللكافرين من أهل الكتاب على السواء.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَّشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، إشارةُ إلى «الفيء» الذي آل إلى المسلمين من أموال «بني النضير»، وفي حكمه كلُّ ما يؤول إلى المسلمين من هذا النوع، والمراد «بالفيء» كل مال أُخِذَ من الكفار أثناء الجهاد من غير إيجافِ خيل ولا رِكاب، أي:

من غير مبارزة ولا مصاولة، ولا ركض بخيل أو جِمال. والشأن في هذا النوع أن يُرَدَّ على المسلمين، ويُصرَفَ في وجوه البِرّ والمصالح العامة.

ثم بين كتابُ الله «مَصارِف الفيء» الذي يؤول إلى المسلمين أثناء جهادهم في سبيل الله، والوجوهَ التي ينبغي أن يُصرف فيها فقال تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾، معناه كما قال ابن كثير: «جعلنا هذه المصارف لمال الفيء، كي لا يَبْقى مأْكَلَةً يتغلبُ عليها الأغنياء، ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون من الفيء شيئاً إلى الفقراء».

وللزيادة في بيان من يستحق الأخذ من مال «الفيء» ضرب كتابُ الله المثَل «بفقراء المهاجرين» الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، وبهذه المناسبة نوَّه «بالأنصار» الذين آووهم وآثرُوهم على أنفسهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾، إلى آخر الآية.

وقوله تعالى: ﴿ وَالذِينَ جَآءُو مِن بَعْدِهِمْ ﴾، إلى آخر الآية إشارةٌ إلى قِسم ثالث يستحق فقراؤهم أن يُصرَف إليهم من «مال الفيء»، ما دام الجهاد قائماً في سبيل الله. فبالإضافة إلى فقراء المهاجرين وفقراء الأنصار هناك فقراء المومنين التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، على غرار قوله تعالى في سورة التوبة (١٠٠): ﴿ وَالسَّٰبِقُونَ اَلاَوَّلُونَ مِنَ اَلْمُهَٰجِرِينَ وَالاَنْصَارِ وَالذِينَ اَتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾، والمراد «بالتابعين لهم بإحسان»، كما قال ابن كثير: «المتبعون لآثارهم الحسنة، وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية»، ﴿ رَبَّنَا اَغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا اَلذِينَ سَبَقُونَا بِالاِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا
وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾
لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ
وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ
أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ
أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ
شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ

قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيَ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦
فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ
وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ
إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ
ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمُۥٓ أَنفُسَهُمُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩
لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ لَوَ اَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ
جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ
ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١
هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ
هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣
هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ
لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم
بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ
أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ
وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ
أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ
تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ
بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي
إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا
حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ
لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾
رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾
لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ
فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾

الربع الثالث من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم

عبـاد الله

مـوضوع حـديث اليوم تفسيـر الربـع الثالث من الحـزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «الحشر» المدنية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾، إلى قوله جلّ علاه في سورة «الممتحنة» المدنية أيضاً: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

في بداية هذا الربع تناول كتابُ الله وصف الدَّوْر السافل الذي قام به «المنافقون» في قصة «بَنِي النَّضِير»، حيث شجعوهم على نقض عهد رسـول الله ومخـالفتـه، والتـآمـر عليـه وعلى المسلمين، ووعَدوهم بالنجدة والنُّصْرة إذا تعرَّضوا لاصطدام مع القوة الإسلامية الفتيّة، فأَطْلَعَ اللَّهُ رسولَه على هذه المؤامرة عن طريق الوحي المبين، وذلك قوله تعالى مخاطِباً لنبيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ

لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾، وقد كان عبدُ الله بنُ أُبَيّ ابنِ سَلُول وعصابته من المنافقين بعثوا إلى يهود «بني النضير»: «ان اثبتُوا وتَمنَّعوا، فأنّا لن نُسلِمكُمْ، إن قُوتِلتُم قاتَلْنا معكم، وإن خرجتُم خَرَجْنَا مَعكم»، فتربَّص «بنو النضير» ذلك، وانتظروا نصر المنافقين لهم أثناء فترة الحصار الإسلامي، لكنّ الله قذف في قلوب المنافقين الرُّعب فلم ينتصروا لليهود، وقذف في قلوب «بنِي النَّضِير» الرعب فاستسلموا للمسلمين، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾، وبيّن كتاب الله السر في فشل يهود «بني النضير» وحلفائهم وإخوانهم من المنافقين، وهو أنهم يخافون الخلق أكثر مما يخافون الخالق فقال تعالى مخاطباً رسوله والمومنين: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾.

ووصفت الآياتُ الكريمة ما عليه يهود «بَنِي النَّضِير» ومن لفَّ لَفَّهم من الجُبن والهلَع، فهم لا يقدرون على مواجهة «كتائب» الإسلام الفتية، ومبارزتها وجهاً لوجه في الفضاء الطلق، وإنما يتَستَّرُون ويَتَتَرَّسُون بالحصون والجُدُر، ليقاتلوا من ورائها، وهم في مأمن من المفاجآت والمغامرات، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعاً اِلَّا فِى قُرىً مُّحَصَّنَةٍ اَو مِنْ وَّرَآءِ جُدُرٍ ﴾، ثم يكشف كتاب الله عن سِرٍّ دَفِين يتبينُ من خِلاله مقدارُ ما بين المنافقين وكفار أهل الكتاب من التضامن والتعاون، وأن تحالف الفريقين إنما هو تحالف مصالح وأغراض إن اتفقت حيناً اختلفت

أحياناً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَالِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾.

وأعاد كتابُ الله إلى أذهان المومنين ما أصاب كفار قريش «يوم بدر»، مشيراً إلى أن العاقبة كانت عليهم إيضاً لَا لَهم، فمَا أصاب «بَنِي النَّضِير» إنما هو تتمة لما أُصاب كفار قريش من قبل، وذلك قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴾.

وشبَّهَ كتابُ الله موقفَ «المنافقين» الذين شجعوا يهود «بَنِي النَّضِير» على نقض العهد، والتآمر على حياة الرسول عليه السلام، والذين وعدوهم بالنصرة والتأييد، ثم أُخلفوا وعدهم وأسلموهم لسوء العاقبة، بموقف الشيطان من الإنسان، عندما يغريه بالكفر فيغترّ به، ويكفر تحت تأثير إغرائه، حتى إذا كان يوم القيامة تبرأ الشيطان منه براءةَ تامة، وَتَنَصَّل من تَبعة عمله كل التنصل، وذلك قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَٰنِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنْكَ إِنِّىَ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَٰلَمِينَ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِى اِلنَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَالِكَ جَزَٰؤُاْ الظَّٰلِمِينَ ﴾.

واتجه الخطاب الإلَهي إلى المومنين يُناديهم بأحب الصفات إليهم، داعياً إياهم إلى تقوى الله، مكرراً أمره بالتقوى في هذا السياق مرتين على التوالي، و«تقوى الله» تقتضي أن يَقِي المومنُ نفسَه من عذاب الله وسخطه، وذلك بالتزام الصلاح والاستقامة،

وسلوك الطريق السويِّ، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي، «فَالْغَدُ» الذي هو عبارة عن الحياة القادمة والدائمة مهما كان بعيداً فهو قريب، والتزودُ له أمر تقضي به الحكمة والرُّشْد، ويستلزمهُ حسنُ التدبير، وسلامةُ التفكير، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾.

وتحدث كتابُ الله من جديد عن رُوحانية القرآن الكريم، وكونه «روحاً من أمر الله» يُشِعُّ من خلال كلماته كلَّ ما لله من صفات الكمال، ومظاهر القدرة والحكمة والجلال، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

وخُتِمت سورة «الحشر» بعقد نفيس من أسماء الله الحسنى يُذَكِّر المومنين بجملة من مظاهر ربوبيته، وآثار ألوهيته، في الآفاق وفي أنفسهم: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُومِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾، ثم يكون «مسك الختام» تسبيحاً لله وتنزيهاً، على لسان جميع المخلوقات في الأرض وفي السماوات، وكما ابتدأت سورة «الحشر» هكذا: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا

فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، تنتهي بنفس المعنى هكذا: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وبذلك انسجمت البداية مع النهاية.

ولننتقل الآن إلى سورة «الممتحنة» المدنية، مستعينين بالله معتمدين عليه، وأُطلق عليها هذا الاسم، أخذاً من قوله تعالى في الآية العاشرة منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ الْمُومِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾، وأولُ ما يستقبلنا من هذه السورة الكريمة نداءٌ من الله إلى فريق خاص من المومنين، يُحذِّرهم فيه من أن يتخذوا أعداءه أولياء، أو يُلقوا بالمودة إلَى مَن كفروا بالحق، وألْجأُوا الرسولَ والمومنين إلى الخروج من «مَنزِل الوحي الأول» مُبيِّناً لهم أن «رابطة العقيدة» هي الرابطة التي يجب أن يرْعوها حق رعايتها، وما عَداها من الأواصر والروابط العائلية أو المالية يجب إخضاعه لهذا الاعتبار قبل أي اعتبار آخر، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُومِنُواْ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰداً فِى سَبِيلِى وَابْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَآ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَّفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾.

ثمّ بيّن كتابُ الله لهذا الفريق من المومنين الذين كانوا لا يزالون على شيء من السَّذاجة والبَساطة أنهم لو سَقطوا في أيدي مشركي قريش لنَكَّلُوا بهم شر تنكيل، ولفعَلُوا بهم أقبح الأفاعيل، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنْ يَّثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً

وَيَبْسُطُواْ إِلَيْكُمُ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾.

وكشفَ كتابُ الله السرَّ في تحذيره لهذا الفريق من المومنين، فقد كانوا لا يزالون متأثِّرين بروابط القَرابة والرَّحِم التي تربطهم بأقربائهم من مشركي مكة، وكانوا يَحِنُّون إليهم ما بين الحين والحين، فقال تعالى مخاطِباً لهم: ﴿لَن تَنفَعَكُمُ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ يَوْمَ اَلْقِيَـٰمَةِ يُفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

وضرَب كتابُ الله المثلَ لهذا الفريق من المومنين ببَراءة إبراهيم الخليل من قومه هو ومَن آمن معه ورمْيه برابطة القَرابة معهَم عَرضَ الحائط، عندما أُصبح الأمرُ يتعلق بعقيدة التوحيد والإيمان بالله فقال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمُ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَٰهِيمَ وَالذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمُ إِنَّا بُرَءَآؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اِللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَٰوَةُ وَالْبَغْضَآءُ اَبَداً حَتَّىٰ تُومِنُواْ بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اَللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾، وكان استغفارُ إبراهيم لأبيه قبل أن يستيقِنَ إصرارَ أبيه على الشرك، مصدَاقاً لقوله تعالى في سورة التوبة (١١٤): ﴿ وَمَا كَانَ اَسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾.

وخُتم هذا الربُع بما يؤكد نفس الغرض ونفس التوجيه، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمُ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ اَلاٰخِرَ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اَللَّهَ هُوَ اَلْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾.

الربع الأخير من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم

عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم
مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ
لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا
إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ
فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ
وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا
جَاءَكُمُ الْمُومِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ
عَلِمْتُمُوهُنَّ مُومِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ
يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا مَا
أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ
شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ

أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ وَاتَّقُوا۟ اللَّهَ الَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾
يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ الْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ
بِاللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ
بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى
مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ الْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ
أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى
سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا
زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾
وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى اسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا

جَآءَهُم بِالْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَٰمِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ
لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ الْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾
هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِۦ
وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم
مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ
لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً
فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ
وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ أَنصَارَ
اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت
طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

الربع الأخير من الحزب الخامس والخمسين
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الأخير من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قوله تعالى في سورة «الممتحنة» المدنية: ﴿ عَسَى اَللَّهُ أَنْ يَّجْعَـلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اَلذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُمْ مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، ونهايتُه قوله جلّ علاه في سورة «الصّفّ» المدنية أيضاً: ﴿ فَأَيَّدْنَا اَلذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُـواْ ظَـٰهِرِينَ ﴾.

في بداية هذا الربُع عاد كتاب الله إلى فتح بـاب الأمل والرجاء في وجه فريق من «المهاجرين» كانوا يُعانُون بعض القلق النفسي من مقاطعة أهلهم وعشيرتهم الذين لا زالوا على شركهم بمكة، فبعدما أَمَرَهُم الله تعالى بعداوة المشركين والبراءة منهم ولو كانوا من ذوي الأرحام ومن أَقرب الأقربين إِسْوَةً بإبراهيم الخليل عليه السلام الذي تبرأ من أَبيه نَفسِهِ، أَشارت الآيةُ الكريمة إلى أن الأَمل في إنقاذهم لم ينقطع، وإلى أَنَّ الرَّجاء لا يزال معقوداً على هدَاية الله لهم إلى الحق، فهو سبحانه قادر على أن يشرحَ صدورهم للإيمان، فيدخلوا تحت طاعة الإسلام، ويعمَلُوا تحت

لوائه، وإذ ذاك يجمعُ الله شمل الجميع في ظل الإسلام الحنيف، ولا يبقى أيُّ مبرِّر لعداوتهم، ولا للبراءة منهم، بل تصبح مودتُهم واجبة، بمقتضى رابطة العقيدة الإسلامية المشتركة، التي هي أقوى رابطة بين المسلمين، وذلك ما يشير إليه قولُه تعالى في مطلع هذا الربع: ﴿ عَسَى اَللَّهُ أَنْ يَّجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اَلذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى تقعيد قاعدة أساسية في معاملة المسلمين لغيرهم من أهل الملل الأخرى، ألا وهي معاداةُ من اعتدى على المسلمين أو تضامَن مع المعتدِي عليهم، ومسالمةُ مَن لم يعتد على المسلمين ولم يتضامن مع المُعتدِي عليهم. ويُعتبرُ «معتدياً على المسلمين» كل من قام باعتداء على ديارهم، بعدَ مَا سالَمَهم، أو خانَ عهدهم بعد ما عاهدهم، أو حال بينهم وبين أن ينشُروا عقيدتهم، أو منَعهم من أن يُطبِّقوا شريعتهم، ويمارسوا شعائرهم، وإلى هذه القاعدة الأساسية في الإسلام يشير قوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَيٰكُمُ اللَّهُ عَنِ اِلذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي اِلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمُ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمُ إِنَّ اَللَّهَ يُحِبُّ اُلْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَيٰكُمُ اَللَّهُ عَنِ اِلذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي اِلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمُ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَّتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ﴾.

والآن فلنتحدث عن «آية الامتحان» التي بها سميت هذه السورة المدنية الكريمة سورة «الممتَحنة».

لقد تضمن «صلح الحُدَيْبِيَّة الذي انعقد بين المسلمين وكفار

قريش قبل فتح مكة بسنتين فَقرةً فيها شيء من الغموض، يقول نصها ما يأتي: «على أنه لا يأتيك منّا أحد وإن كان على دينك إلاّ رَدَدْتَهُ إلينا»، وبينما رسول الله ﷺ لا يزالُ بأسفل الحُدَيْبيَّة عَقِب عقد الصلح بينه وبين قريش أقبل عليه نساءٌ مسلمات، ممَّن كنَّ مقيمات بمكة يرغبْنَ في مفارقة أزواجهن المشركين، ويطلبْنَ الهجرةَ إلى المدينة مع إخوانهن المسلمين، فأنزل الله على نبيه «آية الامتحان» تَسْتَثْنِي النساءَ المسلمات من تلك الفقرة الغامضة التي تضمنها «صلح الحديبية» حتى لا يقع رَدُّهن إلى أيدي المشركين، نظراً لحُرمة الإسلام التي يتمتعْن بها من جهة، ورقتهن وضعفهن من جهة أخرى، وتبيَّن بذلك أن «شرط الردّ إنما كان في الرجال لا في النساء» وأن الشيء الوحيد الذي يُردّ إلى الأزواج المشركين إنما هو صداقُ زوجاتهم المسلمات اللائي فارَقْنَهم وأرِدْنَ الهجرة مع رسول الله إلى «المدينة» وذلك حتى لا يقع عليهم خسْرَانٌ مزدوج: خسران الزوجة وخسران المال، كما طالب كتابُ الله المشركينَ بنفس الشيء إذا جاءتهم امرأةٌ من طَرَف المسلمين أن يرُدّوا صداقَها إلى زوجها المسلم، وذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُومِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُومِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، أي: أن المسلمات من الآن فصاعداً أصبحنَ حراماً على المشركين، كمَا أن المشركين أصبحوا حراماً على المسلمات: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾، أي: ادفعوا إلى المشركين الذين كانوا أزواجاً للمسلمات المهاجرات ما أنفقوا عليهن من الأَصْدِقة، ويُنَفَّذ لهم

ذلك من «بيت المال»، ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾، أي: لا حرج عليكم في الزواج بأولئك المسلمات المهاجرات، المفارِقات لأزواجهن المشركين إذا دفعتم لهنّ صداقاً من عندكم وانقضت عدتُهن: ﴿ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾، أي: حرامٌ عليكم أيُّها المسلمون أن تتزوجوا بالمشركات من الآن فصاعداً، كما أن استمرار زَواجكم بالمشركات اللاتي سبق تزوجُكم بهن أُصبح حراماً، وهذه دعوة صريحة إلى فراقهن: ﴿ وَسْئَلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ﴾، أي: طالِبوا المشركين بما أنفقتم من صداق على زوجاتكم إن ارتدت إحداهن وذهبت إليهم بمحض اختيارها، كما أن للمشركين أن يُطالِبوكم بما أنفقوا من صداق على زوجاتهم المسلمات اللاتي هاجرْنَ مع المسلمين وهذه المطالبة تقوم على أساس المعاملة بالمثل: ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾، أي: هو حكم الله يحكم به في «صلح الحديبية» فلا رَدّ للمسلمات بعد الآن إلى أزواجهن المشركين، طبقاً لحكم القرآن، قال ابن كثير: «فعلى هذه الرواية تكون الآيةُ مخصِّصةً للسنة، وهذا من أحسن الأمثلة لذلك».

ونبّه القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري إلى أن الوضع الخاص الذي عالجه «صلح الحديبية» للتبادل بين المشركين والمسلمين على الأساس الذي قررته هذه الآية، إنما كان «مخصوصاً بذلك الزمان، وفي تلك النازلة خاصة بإجماع الأمة» (والله عليم حكيم).

أمَّـا الطريقةُ التي كان يَتِمُّ بها امتحان المومنات المُهَاجِرات الـلاتي يفارقْن أزواجهن من المشـركين، رغبةً في الهجـرة مع المسلمين، فهي فيمـا وصفـه قتـادة: «أن يُسْتَحْلَفْنَ بـاللَّهِ مَـا أخرجَكُـنَّ النشوز، وما أَخرَجَكُنَّ إلاّ حُبُّ الإسلام وأهلِه، وحِرصٌ عليه»، فإذا قلنَ ذلك قُبِل منهُن، وفيما وصفهُ عكرمة يُقالُ لها: «ما جاءَ بكِ إلاّ حبُّ اللَّهِ ورسولِه، وما جاء بكِ عشقُ رجلٍ منا، ولا فرارٌ من زوجِك»، فإذا قالت ذلك قُبِلَ منها. وفيما وصفه مجاهد: «أن يُسألْنَ عما جاء بهن، فإن كان بهنَّ غضبٌ على أزواجهن، أو سخطة، أو غَيْرةٌ، ولَمْ يُومِنَّ أُرْجِعْنَ إلى أزواجهن».

وتحدث كتاب الله عن حالة ما إذا لم يكن بين المسلمين والمشركين أيُّ عهد خاص، وذهبت امرأة من طرف المسلمين إلى المشركين، ورَفضَ المشركُ الذي تزوجهـا أن يرُدّ إلى زوجهـا المسلمِ السابق مَا كان قد دَفَعه زوجها المسلم من صَداق، فهنا يقوم المسلمون أنفسهم بتعويض أخيهم المسلم عن المهر الذي كان قد دفعه لها، وذلك إمَّا من الفَيْء، أو من الغنيمة، أو مما فضل بـأيدي المسلمين من مهـور أزواج المشركين، وإلى الحكم بتعويض المسلمين لأخيهم المسلم عن مهر زوجته التي ذهبت إلى الكفار يشير قوله تعالى مخاطباً للمومنين: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنَ اَزْوَاجِكُمْ إِلَى اَلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَئَاتُواْ الـذِينَ ذَهَبَتَ اَزْوَاجُهُم ﴾، أي: من المومنين، ﴿ مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ﴾، أي: مثل ما انفقوه على أزواجهم من قبل، قال الزُّهْري في بيان سبب نزول هذه الآية: «إن المومنين أَقرُّوا بحكم الله، فأَدَّوْا ما أُمِرُوا به من

نفقات المشركين التي أنفقوا على نسائهم، لكنَّ المشركين أبَوْا أن يُقِرُّوا بحكم الله فيما فَرَض عليهم من أداء نفقات المسلمين، فقال الله تعالى للمومنين به: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنَ اَزْوَاجِكُمْ﴾ الآية، وعقَّبَ كتاب الله على هذه الأحكام بما يفيد وجوب تطبيقها والعمل بها في الظروف الخاصة التي شُرعت فيها، فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ اَلذِيَ أَنتُمْ بِهِ مُومِنُونَ﴾ قال ابن عطية: «هذه الآية كلها قد ارتفع حكمها»، وكلمة «فعاقبتم» في هذه الآية هي من قولهم: «عاقبَ الرجلُ صاحبَه في كذا» أي: جاء فعلُ كلٍّ واحد منهما يَعْقُب فعل الآخر.

وبمناسبة الحديث عن حرص المسلمات على مفارقة دار الشرك والالتحاق برسول الله ﷺ في «دار الهجرة» وما نصَّ عليه كتاب الله من امتحانهن لمعرفة الأسباب الحقيقية التي دفَعَتْهُن إلى القيام بالهجرة جاء كتابُ الله بآية «المبَايَعة» التي تُحدِّد شروطها، فكان رسول الله ﷺ يمتحِنُ بهذه الآية مَن هاجر إليه من المومنات، قالت عائشة رضي الله عنها فيما رواه البخاري: «فَمَن أقرَّ بهذا الشرط من المومنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتُكِ كلاماً، ولا وَالله ما مسَّتْ يدُه يدَ امرأة في المبايعة قط، ما يُبايعهن إلّا بقوله: قد بايعتُكِ على ذلك»، وهذا لفظ البخاري في الصحيح. وإلى هذه المبايعة وشروطها يشير قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا اَلنَّبِيٓءُ إِذَا جَآءَكَ اَلْمُومِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَاتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ

لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾، يعني من جاءك منهنّ يبايع على هذه الشروط فبَايِعْها على أن لا يُشرِكْنَ بالله شيئاً الآية.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَا يَسْرِقْنَ ﴾، أي: لا يسرِقْن أموال الغير، وللزوجة إذا كان زوجُها مُقصِّراً في نفقتها أن تأكل من ماله بالمعروف، في حدود ما جرت به العادة بالنسبة لأمثالها، وإن كان ذلك من غير عِلمه، عملاً بقوله ﷺ لهند بنت عُتْبة التي اشتكت إليه شُحَّ زوجِها وتقصيرَه في نفقتها: «خُذِي من ماله بالمعروف ما يكفيكِ ويكفي بنيكِ»، أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ ﴾، أي: لا يقتلْن الأولاد بعد ولادتهم كما كان يفعل بعض أهل «الجاهلية» وكذلك الأمر بالنسبة للجنين، فلا يسوغ لهن التسبب في قتله بالإجهاض ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾، أي: لا يُلْحِقْن بأزواجهن، ولا يَنسُبْنَ إليهم أولاداً غير أولادهم. روى أبو داود في سننه عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أيُّما امرأةٍ أدخَلَتْ على قومٍ مَن لَيس منهم فليست من الله في شيء، ولن يُدخِلَها اللَّهُ الجنة، وأيُّما رجلٍ جَحَدَ ولدَه وهو ينظر إليه احتجب الله منه، وفضَحهُ على رءوس الأولين والآخرين».

وقولُه تعالى في ختام شروط البيعة: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾، أي: لا يعصِينَك فيما أَمرْتَهُن به من معروف ونهيْتَهُنَّ عنه من منكر. قال ميمون بن مَهران: «لم يجعل اللَّهُ طاعتَه لنبيه إلّا في المعروف، والمعروف طاعة».

ومن المناسب أن نقف وقفة خاصة عند هذا الشرط الذي يعتبر أحد قواعد الدستور الإسلامي الخالد، فهو يستلزم بالأَصالة طاعة الرعية لإمامها، ويستلزم بالتَّبَع استجابةَ الإمام لرغبة رعيته فيما يأْتَمِرَان به معاً، من معروف يتفق مع أحكام الشريعة وأصول الملة وشعائر الدين، فالإمامُ المسلم والأمة الإسلامية إنما يُنظِّمان علاقاتِهما بمقتضى شريعة الله، إذ لا حكم عليهما لسواه، ومصدر السلطات بالنسبة للمسلمين هو شرع الله الذي جاء به الرسول، وإمامُ المسلمين نائِبٌ عنهم في حراسته والحِفاظ عليه، فإذا عَرَض لهم أمر لا نصَّ عليه فيما جاء به الرسول استنبَطوا له حكماً شرعياً يوافِقُ ما جاء به.

وفي مثل هذا السياق يستدل كثير من الناس بقوله تعالى في سورة «الحشر» من الربع الثاني في هذا الحزب[7]: ﴿وَمَا ءَاتَيٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَيٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ﴾، فيحملون هذه الآية على معنى أنه مهما أمركم الرسول بأمر فافعلوه، ومهما نهاكم عن أمر فاجتنبوه، كما فسرها ابن كثير، اعتماداً على تأويل عبد الله بن مسعود، بينما هذه الآية وردت بالأَصالة في موضوع توزيع «الفيء» الذي أَفاءه الله على المسلمين بعد جلاء بني النَّضِير، وما حصل من التأثر عند بعض الأنصار، بعدما وزَّع

رسولُ الله ﷺ الفَيْ على فقراء المهاجرين، فعاتبَ اللَّهُ مَن تأثَّر منهم من ذلك التوزيع، وأَمرَهم بقبول أيِّ نصيب يُعطيه لهم الرسول من الفَيْء إن أعطاهم، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا ءَاتَيٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾، أي: خذوا ما أعطاكم، كما أمرهم بعدم مطالبته بالفيء إن لم يُعطهم شيئاً، وهذا هو معنى: ﴿ وَمَا نَهَيٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ ﴾، إذ «الإمامُ» مفوَّض في توزيع الفيء تمام التفويض، وذلك قطعاً لكل نزاع في هذا الشأن، وإلى مثل هذا المعنى ومثل هذا الموقف أشار قوله تعالى في سورة (التوبة: ٥٨): ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّآ إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الصَّفّ» المدنية، وإنما أطلق عليها هذا الاسم، أخذاً من قوله تعالى فيها: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾، وهذه السورةُ تبتدىء بتسبيح الله وتنزيهه، على لسان العالم العُلْويّ والعالَم السُّفْلى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾، ثم يتجهُ الخطاب فيها إلى فريق من المومنين يَعِدُون ولا يَفُونَ بوعدهم، ويقولُون ولا يلتزمون بقولهم، فينكِر عليهم كتابُ الله هذا الموقف المتناقض: ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾. وبيَّنت الآياتُ الكريمة، للذين كانوا يتمنَّون الجهاد في سبيل الله قبل أن

يفرض عليهم، أَنَّ الوقت قد حان لتحقيق أُمنيتهم، فما عليهم إلاّ أن يبادِروا للتضحية والفداء: ﴿ إِنَّ اَللَّهَ يُحِبُّ اَلذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾.

وأشار كتابُ الله إلى موسى وعيسى عليهما السلام، ووقوف قومهما منهما موقف الـزَّيْغ والعناد: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ اَللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾، وسجل كتاب الله بشارة عيسَى لبني إسرائيل برسول يأتي من بعده، ويكون هذا الرسول سيحمل اسم «أحمد» وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، كما تحدثت الآيات الكريمة عن الهُـدَى ودين الحق المرسَل بهما إلى العالَمين.

ووجَّه كتابُ الله الدعوةَ إلى المؤمنين ليكونوا أنصاراً لله كما كان الحواريون أنصاراً لله، وأمرهم بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ووعدَهم على ذلك بالفوز العظيم، وبنصر من الله وفتح قريب: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اَللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ اِلْمُومِنِينَ ﴾.

وخُتِم هذا الربع بوعدٍ من الله لا يتخلف، عما سيؤول إليه أمر الإسلام والمسلمين من ظهور وانتشار، في مختلف القارّات والأقطار، ﴿ فَأَيَّدْنَا اَلذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَـٰهِرِينَ ﴾.

الربع الأول من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ
الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ
آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾
ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾
مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا
بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ
لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ
أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ
الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ

عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ
وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ
ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ
كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا
قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ
إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ
أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ
فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡ وَإِن يَقُولُواْ
تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ
عَلَيۡهِمۡ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤
وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ
رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٥

سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن
يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾
هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ
حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ
لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

الربع الأول من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في فاتحة سورة «الجمعة» المدنية: ﴿ بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَنِ اِلرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى اِلسَّمَوَاتِ وَمَا فِى اِلْاَرْضِ اِلْمَلِكِ اِلْقُدُّوسِ اِلْعَزِيزِ اِلْحَكِيمِ ﴾، إلى قوله جلّ علاّه في سورة «المنافقين» المدنية أيضاً: ﴿ وَلِلَّهِ اِلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ وَلَكِنَّ اَلْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وفاتحة هذا الربع التي هي بداية «سورة الجمعة» تنطق بحقيقة كونية رائعة، أَلَا وهي اعتراف جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، عُلْويّها وسُفْلِيّها، بألوهية الحق سبحانه وتعالى وربوبيته، وبعبوديتها له، وافتقارها إليه، إِذْ هو سبحانه «مالك» أمرها، والمتصرف فيها على الحقيقة في كل حين، وهو سبحانه المتصف بجميع صفات الكمال، «والمقدس» عن النقائص والمنزه عنها على اختلاف أنواعها، وهو سبحانه «العزيز» الذي يخضع له، ويضطر إلى طَرْقِ بابه، والتمرُّغ على أَعتابه، أَشدُّ الخلق

سطوة، وأكثرهم قوة، فضلاً عن الضعفاء والمستضعَفين، وهو سبحانه «الحكيم» في جميع تصرفاته الكونية، وكافة أحكامه الشرعية، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

ثم تحدث كتابُ الله ممتَنّاً على المسلمين الأولين، الذين اختارهم الله لتلقي رسالة الإسلام ونقلها إلى العالَمين، فبعد ما كانوا محرومين من نور الله، يعيشون في صحرائهم منعزلين على هامش الحياة، وبعدما ظلوا فترة طويلة «أُمِّيين» محرومين من الوحي والرسالة، أكرمهم الله برسالة سيدنا محمد عليه السلام، وأنزل الله عليه «الذكر الحكيم» ليكون دستور الإنسانية وقانونها العام، وبيّنَ الحق سبحانه أنّ كتاب الله إنما أنزله ليؤدي مهمتين اثنتين في وقت واحد، فهو من جهة: كتابٌ يُعلِّم الإنسانية ما لم تكن تعلم، إذ ينقذها من الجهل والضلال، وهو من جهة أخرى: يُزَكِّي الإنسانية، إذ يُهذب أخلاقها ويطهرها من تقاليد الجهالة والفساد، وبذلك كانت مهمة القرآن الكريم مهمة مزدوجة: مهمة تعليمية تثقيفية، ومهمة أخلاقية تربوية، وبفضله تكونت المدرسة الإسلامية المثالية، الجامعة بين تثقيف الفكر وتهذيب النفس، على أساس من التناسق والتكامل والانسجام، وذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

ولا بد من لفت النظر إلى حكمة يتضمنها قوله تعالى هنا:

﴿ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ﴾، فقد جاء اللفظ الدال على التزكية «ويزكيهِم» مقدَّماً، بينما اللفظ الدال على التعليم «ويُعلِّمهم» جاء مُؤخَّراً، والسر في ذلك ـ والله أعلم ـ أنَّ الإسلام يهتم بتربية النفس وتهذيب الأخلاق في الدرجة الأولى، ويهتم بتثقيف العقل وتوسيع معلوماته في الدرجة الثانية، بحيث إذا خُيِّر الإنسانُ بين علمٍ واسع مع خُلُقٍ فاسد، وعلمٍ محدود مع خُلُقٍ فاضل، كانت الأولوية لمكارم الأخلاق ولو مع قليل من العلم، لا لكثرة العلم مع فساد الأخلاق، إذْ فساد الأخلاق يُضيِّع ثمرة العلم، ويجعل صاحبه أخطر من الجاهل بالمرة.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ الْكِتَـٰبَ وَالْحِكْمَةَ ﴾، إشارةٌ إلى ما أكرم الله به هذه الأمة، فقد آتاها (الكتاب)، وبالكتاب أخرجها من «الأمية»، كما آتاها (الحكمة)، وبالحكمة أخرجها من «الجاهلية».

وقولُه تعالى: ﴿ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾، امتنانٌ خاص على العرب، فبفضل رسول الله وخاتم رسله أصبحت الأمة العربية ذات مكانة خاصة بين الأمم، وبفضل الإسلام الذي كان العرب أول من حمل لواءه قام العرب بدور بارز في تاريخ الإنسانية يَغبِطهم عليه أكثرُ الأمم، وبفضل القرآن الكريم الذي نزل «بلسانٍ عربي مبين» أصبحت اللغة العربية لغة الدين والعلم والحضارة في دنيا الإسلام الواسعة.

ثم أشار كتاب الله إلى الأجيال الإسلامية القادمة بعد الجيل الإسلامي الأول من عرب وعجم، ومن كافة الأمم، وهي

الأجيال التي ستتلقى شُعلة الإسلام من أيدي العرب، لتُنير بها أرجاء العالَم عَبر القرون، فقال تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾. قال مجاهد: «هم الأعاجم وكُلّ من صَدَّق النبيَّ ﷺ من غير العرب». وأشار ابن كثير إلى الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي في شأن نزول سورة «الجمعة» على رسول الله، وفيها هذه الآية، ثم قال: «ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية، ودليل على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس، ولهذا كتب كُتُبَه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ، وَإلى اتِّباع مَا جَاء به».

وعقَّبَ كتابُ الله على هذا الموضوع كله بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾، فهو سبحانه ذو «العزة» التي لا تضام، و«الحكمة» التي لا ترام، وهو المتفضل على خلقه، يمنح فضله لمن يشاء، فَنُبوة سيدنا محمد ﷺ، من فضل الله عليه، واختيارُ المسلمين الأولين لحمل الرسالة وتبليغها إلى غيرهم من الأمم، من فضل الله عليهم، وتقديرُ الله في أزله هدايةَ الأجيال القادمة من مختلف الشعوب، ودخولَها في الدين الحَنيف، من فضل الله عليها، ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

وضَرَبَ كتابُ الله المَثَل للمسلمين بما وقع لبني إسرائيل، حيث أنزل الله التوراة على نبيهم موسى عليه السلام، وبدلاً من أن يحافظوا عليها، ويعملوا بمقتضاها، ويتفادَوْا تحريفها، ضيَّعوا

أمانتها، ولم يحملوها على الوجه المطلوب، بل حرفوها وأوَّلوها طِبقاً للهَوَى المتَّبع والرأي المرغوب، وكتابُ الله بذكره لِلتوراة وما أصابها من الإهمال، وإشارته إلى العوامل التي قضت على كثير من أحكامها بالإبطال، يريد أن يحَذِّر المسلمين من الوقوع في نفس الغلط وارتكاب نفس الهفوة، بالنسبة للقرآن الكريم، ويريد أن يحضهم على التمسك بكتاب الله وشريعته قولاً وفعلاً، وعلى حمل أمانته باستمرار، وحفظه والمحافظة عليه جيلاً بعد جيل، وذلك قولُه تعالى: ﴿ مَثَلُ اَلذِينَ حُمِّلُواْ التَّوْرِيٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ اِلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بيسَ مَثَلُ الْقَوْمِ اِلذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَٰتِ اِللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى اِلْقَوْمَ اَلظَّٰلِمِينَ ﴾.

ومن هنا اتَّجهَ الخطاب الإلّهي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، يُلَقِّنُه ما ينبغي أن يرُدَّ به على بعض دعاوى اليهود، فقد كانوا يفخَرون على غيرهم بأن الله يخُصُّهم بالحب والموالاة دون بقية الناس، وهذه الدعوى تقتضي أن يحرصوا على مفارقة الحياة الدنيا بسرعة، وأن يحبوا الموت العاجل، رغبةً في لقاء الله، حتى يتمتعوا في الآخرة برضوان الله، لكنهم على العكس من ذلك يَفِرُّون من الموت، ويكرهون لقاءها والتعرض لها، بسبب ما قدمتْه أيديهم من السيئات، وهم «أحرص الناس على حياة»، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰأَيُّهَا اَلذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمُ أَنَّكُمُ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ اِلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتَ اَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّٰلِمِينَ قُلِ اِنَّ اَلْمَوْتَ اَلذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ

الْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

وانتقل كتابُ الله إلى تقعيد قاعدة أساسية من قواعد الإسلام، وتأصيل أصل عظيم من أصول الدين، ذلك أنَّ الدين الإسلامي دين توازن وتوسط واعتدال، لا يُرجِّح جانبَ الروح على حساب المادة، ولا جانبَ المادة على حساب الروح، بل يُعطِي لكلا الجانبين حقَّهما المشروع، ويَحُضُّ المومن على أن يعمل لينال في الدنيا حسنة، ويعمل لينال في الآخرة حسنة. وهذا المعنى واضح كل الوضوح فيما دعا إليه كتاب الله من إيقاف البيع عند النداء لصلاة الجمعة، والسعي إلى ذكر الله مع جمهرة المومنين المصلين، ثم ما دعا إليه من الانتشار في الأرض، وابتغاءِ فضل الله عند الانتهاء من صلاة الجمعة، وبذلك جمعَ كتابُ الله بين مصلحة المومن المادية وحاجته الروحية، دون إجحاف بأيِّ واحد منهما، فقال تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُواْ الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُواْ فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُواْ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، ولذكر «الجمعة» وصلاتها في هذه الآية سميت السورة «سورة الجمعة»، والمراد بقوله تعالى هنا: ﴿ فَاسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾: أي تأهَّبوا لصلاة الجمعة واهتموا بالسير إلى حيث تقام، قال ابن كثير: «وليس المراد بالسعي هنا المشي السريع، وإنما هو الاهتمام بها كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُومِنٌ ﴾ (الإسراء: ١٦)، فأما المشي السريع إلى

الصلاة فقد نُهي عنه، لما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي عليه السلام أنه قال: «إِذَا سَمِعْتُمُ الإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلاَةِ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، ولا تُسْرِعُوا، فَمَا أَدركْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّواْ».

وبهذه المناسبة عاتب الله فريقاً من المومنين كانت لهم علاقات تجارية مع قافلة لِدِحْيَة بن خليفة وصَلت المدينة، والرسولُ ﷺ يخطب على المنبر، واستعملت الطبول لإعلام زبنائها، فتركوا رسول الله قائماً يخطب على المنبر، وذهبوا لقضاء مصالحهم خشية الفوت، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِماً﴾، أي: تركوك قائماً تخطب الناس، ﴿قُلْ مَا عِندَ اَللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اَللَّهْوِ وَمِنَ اَلتِّجَـٰرَةِ،وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ﴾.

والآن وقد ختمنا بفضل الله سورة «الجمعة» المدنية ننتقل لتفسير سورة «المنافقين» المدنية أيضاً، مستعينين بالله، وإنما أطلق عليها هذا الاسم، أخذاً من آيتها الأولى: ﴿إِذَا جَآءَكَ اَلْمُنَـٰفِقُونَ﴾. ففي مطلع هذه السورة يتحدث كتاب الله عن تصريحات المنافقين وأقوالهم المعسولة: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ اَلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾، كما يتحدث عن الأَيْمَانِ المغلَّظة والفاجرة التي يكثرون منها، تدعيماً لأحاديثهم، وتأييداً لدعاويهم، وتغطيةً لمواقفهم، وعصمةً لدمائهم وأموالهم، إذْ أَنهم يُحِسّون من أعماق قلوبهم شكّ الناس فيهم وفي دعاويهم، فقد «كاد المُرِيب

أن يقول خُذوني» كما يقول المثل العربي.

ووصَف كتابُ الله ما يكون عليه المنافقون عادةً من حسن الهِندام وذَلاقة اللسان، وما يكونون عليه أيضاً من جُبن وهَلَع، وخوف وفَزَع، إذ أنهم يخشَون الفضيحة ويتوقعونها دائماً: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾، ﴿ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾، ثم عقَّب كتاب الله على ذلك بتحذير رسول الله والمومنين من طائفة «المنافقين» التي هي أخطر من الكفار والمشركين، فقال تعالى ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُوفَكُونَ ﴾.

وبيَّن كتابُ الله ما عليه «المنافقون» من صَلَف وكِبْر، وما يقومون به من تَثْبيط العزائم، وَبَثٍّ روح الهزيمة في نفوس المومنين، حتى لا يَبَرُّوا بإخوانهم الفقراء الملتفِّين من حول الرسول عليه السلام، وحتى يَكُفُّوا عن بذل أموالهم في سبيل الله، وإلى ذلك يشير قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ وقولُه تعالى: ﴿ هُمُ الذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ﴾. لكنَّ الحق سبحانه وتعالى ردَّ على المنافقين وسفَّهَ رأيهم، وعطَّلَ تدبيرهم، وأكد أن الوَقْع الذي يتوقعونه من دعاياتهم ودسائسهم لن يكون له أيُّ تأثير، بالنسبة إلى خزائن الله الواسعة، التي لا هَيْمنة عليها، لا لهم ولا لغيرهم من الناس، وما دامت رسالة الإسلام ودعوتُه مؤيدةً من عند الله، فاللَّهُ تعالى قد تكفل بإمدادها على الدوام، وذلك قوله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السَّمَـٰوَاتِ وَالاَرْضِ ﴾. كما تكفل الحق سبحانه بإعزازها وإذلال خصومها، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ اِلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ وَلَـٰكِنَّ اَلْمُنَـٰفِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم

يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ
عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾
وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ
ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ
فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ
نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ
ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ
كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾
يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا
مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا
فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ
لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾
يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا
يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِن
مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ
رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ
عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا

فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ
وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ
وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن
يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ
قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ
حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

الربع الثاني من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الثاني من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قولُه تعالى في سورة «المنافقين» المدنية: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَا أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَنْ يَّفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾، ونهايتُه قولُه تعالى في ختام سورة «التغابن» المدنية أيضاً: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

في بداية هذا الربع تُواجهُنا آيةٌ كريمة تَلْفِت نظر المومنين إلى أن خُطة الاِعتدال والتوسط هي أَرشد خطة يسلُكها المومنون، بالنسبة لأَداء الحقوق والواجبات، بحيث يُؤدُّون حقوقَ الله كما يُؤدون حقوقَ أنفسهم وحقوقَ أهلهم وحقوقَ عامة الناس دون إفراط ولا تفريط، وبناءً على هذا الأَساس لا ينبغي للمومنين أن تُلهيهُم أموالُهم، أو يُلهيَهم أولادُهم عن حقوق الله، فيهملُوها ويضيِّعوها، بدعوى أن مَشاغلهم المالية أو العائلية لا تترك لهم وقتاً للتفكير في أَداء هذه الحقوق، وإذا كان الإسلام يعتبر لِلإنسان على نفسه حقاً، ولأَهله وأولاده عليه حقاً، ويشجعُه على الوفاء بهذه

الحقوق، بل يطالبه بها إن قصَّر فيها أو أهملَها بالمرة، فإنه لا يَسمح للمسلم أن يسلك مسلك «الإفراط» في العناية بحقوقه الشخصية والعائلية، ويسلك مسلك «التفريط» فيما لِلَّه عليه من حقوق، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا اَلذِين ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ اِللَّهِ وَمَنْ يَّفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْخَـٰسِرُونَ ﴾، فَمَصَبُّ النهي في هذه الآية وما شابهها ليس هو مجرد العناية بالأموال والأولاد، وإنما مَصَبُّ النهي بنص الآية هو الانهماك في الاشتغال بشؤون الأموال والأولاد، إلى حَدٍّ أن ينسى معه المسلمُ القيامَ بواجباته نحو الله، بحيث يستغرِق استغراقاً تاماً في حظوظ نفسه وحظوظ عائلته، وفي ترضية شهواته المختلفة دون انقطاع، ويُلهِيه مالُه وولَدُه عن الله.

وانتقل كتاب الله إلى حَضِّ المسلمين مرة أخرى على إنفاق أموالهم في سبيل الله، فقد كانت فريضة الجهاد التي فرضها الله عليهم ـ وهم بالمدينة ـ دفاعاً عن حوزة الإسلام ودولته الأولى، فريضةً كبرى تحتاج إلى مَدَد لا ينقطع، وتضحية مستمرة بالأموال والأنفس.

وبيَّن كتابُ الله أَنَّ «خير البر عاجلُه» وأن الصدقة قبل «حلول الأَجل» أضمن منها عند حلوله وأكثر ثواباً، إذ عند «حلول الأجل» لا يبقى أيُّ مجال للانتظار ولا لتدارك ما فات، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنْفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ اَلصَّـٰلِحِينَ

وَلَنْ يُّؤَخِّرَ اَللَّهُ نَفْساً اِذَا جَآءَ اجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

والآن فلننتقل إلى «سورة التغابن» المدنية أيضاً، وقد سميت بهذا الاسم أخذاً من قوله تعالى فيها: ﴿ ذَالِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾، وهي آخر السور المبدوءة بتسبيح الله، المعروفة «بالمسبّحات» من بين سُور القرآن الكريم.

وبعد ما سجلت فاتحةُ هذه السورة تَوَجُّهَ جميع المخلوقات إلى ربها بالتنزيه والحمد: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى اِلسَّمَـوَاتِ وَمَا فِى الَارْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، إن لم يكن منها كُلِّها بلسان المقال، فبلسان الحال في كل الأَحوال، انتقلت الآياتُ الكريمة إلى التعبير عن حقيقة طبيعية ونفسية مَيَّزَ الله بها الإنسان من بين جميع المخلوقات، أَلَا وهي تزويدُه بالاستعداد التام، للاِتّجاه نحوَ الخير إن أراده، والاِتّجاه نحو الشر إن رغب فيه، وجعلَه حراً في اختيار ما يشاء من الهُدَى أو الضلال، وهذا المعنى هو المراد بقوله تعالى: ﴿ هُوَ اَلذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّومِنٌ ﴾، أي أنَّ مَن اختار الكفر منكم كفر، ومَن اختار الإيمان منكم آمن، ومن حرية الاِختيار التي زوّد اللَّهُ بها الإنسان نشأت مسؤوليتُه عن عمله، وجزاؤُه خيراً إن عمل خيراً، وشراً إن عمل شراً. أما من ناحية الخَلْق والتكوين فقد خلق الله الإنسانَ متساوياً مزوَّداً بنفس الملَكات اللازمة، ونفس الأجهزة الضرورية، وله بعد ذلك أن يختار، وعليه أن يتحمل مسؤولية اختياره في الدنيا وفي الآخرة، وقد جاء التعقيب المناسب على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾،

أي: أنه سبحانه يُحصى أعمالكم، ويراقب اختياراتِكم، ثم يجازيكم عليها بما أنتم أهل له.

وعاد كتاب الله إلى التذكير بقدرة الله، والتنويه بحكمته، المتجلِّية في خَلق السماوات والأرض، وفي تصوير الإنسان على أحسن صورة، وفي ذلك تنبيهٌ للإنسان ـ ولا سيما إذا كان منحرفاً عن الحق ـ إلى أن يعود إلى الله، ودعوةٌ له إلى أن يتدبر آياته في الآفاق والأنفس، إذ لا فضل عليه لأحد سواه، فهو الذي خلقه أحسن خَلق، وصوَّره أحسن صورة، وسخَّر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، وهو الذي يستحق أن يُحمَد ويُشكَر ويُعبَدَ ولا يُكفرَ، لا سيما وأن منه كان البَدأ، وإليه ستكون العودة، وذلك قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، يشير بالأصالة إلى تكوين الخِلْقة الإنسانية وصُنعها في حد ذاتها، وإلى هندستها الفريدة بين المخلوقات، وإلى ما مَيَّزها الله به من أجهزة ووظائف وخصائص جعلت الإنسان عموماً «سيد الأحياء» المتفوِّق عليها جميعاً، ولو كان شكلُ بعض أفراده دَميماً وغيرَ جميل، فجمالُ الخِلقة الإنسانية، وكمالُ التركيب الإنساني لا يختلَّفان، بالنسبة لغيره من الحيوانات غير الناطقة، وإن كانت أشخاصُ الإنسان تتفاوت بعضُها عن بعض في نسبة الجمال والتناسب.

ثم وضَّحَ كتابُ الله أنَّ عِلم الخالق سبحانه محيط بجميع

خَلقه، بحيث لا يخفَى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو سبحانه مطلع على ظواهر الناس وبواطنهم دون أيّ فرق ولا استثناء، وبذلك لا يستطيع الإنسان ـ وإن أَسَرَّ ما في نفسه، وأخفى ما في صدره ـ أن يتملَّص من رِقابة الله، أو أن يتخلص من عين الله التي تراه «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فما على المومن إلّا أن يحسُب الحساب لِرقابة الله عند كل خطوة يخطوها نحو الخير أو الشر، وأن يُقَدِّر نتائجَ عمله وعواقبَه كل التقدير، وإلى هذا المعنى يُنبّه قولُه تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى اِلسَّمَـٰوَاتِ وَالاَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ اِلصُّدُورِ ﴾.

وذكَّرَ كتابُ الله مشركي قريش ومن لَفَّ لَفَّهم بمصرع الأمم الغابرة التي تمردت على طاعة الله، وتنكرت لأنبيائه ورسله، واستكثرت على أفراد من البشر يعيشون بين ظهرانيها أن يختارهم الله لرسالته، بدلاً من إرسال ملائكته، فأنِفَت من طاعتهم، واستكبَرت عن اتِّباعهم، فعاقبها الله بالخَبال والوبال، وقضى عليها بالخراب والدَّمار، وذلك قولُه تعالى: ﴿ أَلَمْ يَاتِكُمْ نَبَؤُاْ الذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّاتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ فَقَالُواْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّاسْتَغْنَى اَللَّهُ ﴾ أي: استغني عنهم، ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾.

وكتابُ الله عندما يُذَكِّر مشركي قريش بهذه الحقائق والوقائع يريد أن يُبطل اعتراضهم على رسالة سيدنا محمد ﷺ، فاعتراضُهم هو من جنس اعتراض الأمم الغابرة التي أصبحت في خبر كان، ولو حققوا في الأمر لأدركوا أن الرسالة المحمدية

وماسبقها من الرسالات إنما هي كرامة من الله للجنس البشري الذي استخلَفه في الأرض، وحمَّله أَمانة «التكليف»، وإذا كان الحقُّ سبحانه قد أَوْجَدَ الإنسان من العَدم، ونفخ فيه روح الحياة الناطقة، التي ميَّزه بها على بقية الأَحياء، فما المانعُ أَن يَخْتار من بين خَلقه مَن يؤهلهم لاستقبال رسالته، وتلقِّيها من الملأِ الأعلى، ثم حملِها وتبليغِها إلى كافة الناس: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

وأَثَارَ كتابُ الله من جديد قضيةَ «البعث والنشأة الآخرة» وردَّ على مزاعم المشركين والكافرين، المنكِرين لهذه الحقيقة الثابتة، مُبيِّناً أن «النشأة الآخرة» في منطق العقلاء هي أَيسر وأقرب من «النشأة الأولى» لو كانوا يعقلونَ.

قال ابن كثير: «أَمر اللَّهُ رسولَه أن يُقسِم بربه عزّ وجلّ على وقوع المَعاد ووجوده في ثلاث آيات من كتاب الله:

ـ الآية الأولى في سورة (يونس: ٥٣): ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾.

ـ والآية الثانية في سورة (سَبأ: ٣): ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾.

ـ والآية الثالثة هنا في سورة التغابن: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾.

وبعد قَسَم الرسول ﷺ بربه على تَوْكيد أمر البعث ثلاث

مرات في ثلاث سور لا يبقى محل لأي تَوكيد آخر».

ووجَّه كتابُ الله خطابَهُ إلى المومنين ليزدادوا إيماناً بالله ورسوله، وليستضيئوا بالنور الذي نَزَل معه، وهو «نور القرآن»، فهو في حقيقته نور منبثق من نور الله: ﴿ اَللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالاَرْضِ ﴾ (النور: ٣٥)، وهو في آثاره الظاهرة والباطنة نور لا يعادله أيُّ نور، فَبِه تُشرِق القلوب، وتنشرح الصدور، وبه يَخرُج الناس من الظلمات إلى النور، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَئَامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ اِلذِى أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾، ويتصل بهذا المعنى قوله تعالى في هذا الربع وفي هذه السورة أيضاً: ﴿ وَمَنْ يُّومِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

وانتقلت الآياتُ الكريمة للحديث عن يوم القيامة، وما يناله فيه المومنون «المصدِّقون»، والكافرون «المُكذِّبون» وبيَّنَ كتابُ الله أن «يوم الجَمْع» هو «يوم التغابن» وسُمِّي يومُ القيامة «يوم الجَمْع» لأنه سيُجمَع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، من جميع الأجيال ومن جميع الخلائق. بما فيهم ملائكة الرحمان، وسُمِّي يومُ القيامة أيضاً «يوم التغابن» نظراً لأنه يفوز فيه فريق بدخول دار النعيم، ويخسِر فيه فريق بدخول دار الجحيم، فالخاسرُ «مغبون» بالنسبة للفائز، ولا أمل له في الرجوع «بالغبن» أبداً. وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ اِلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾.

وكما ابتدأت الآيات في هذا الربع بحَضِّ المومنين على

عدم الاستغراق في الشؤون الشخصية والعائلية، إلى حدٍّ أن تَضيعَ معهُ حقوق الله، التي لا يسوغ التفريط فيها، إذْ قال تعالى فيما سبق: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾، عادت الآيات الكريمة إلى الحديث في آخر هذا الربع عن نفس الموضوع، فبيَّنت أن تكاليف الزوجات والأولاد، ورغباتِهم وشهواتِهم، قد تُعرِّض الزوج والوالد إلى التفريط في حقوق الله، أو تدفعُه إلى الاعتداء على حقوق الناس، وذلك حرصاً منه على تلبية رغبات عائلته وخدمة مصالحها، وبذلك تنقلب الزوجة «عدُوّاً» لزوجها، وينقلب الأولاد «أعداء» لوالدهم، إذ يُورِّطونه فيما لا تُحمد عقباه، مع الناس ومع الله، ويُوقِعُونه في مأزقَ لا مخرجَ له منها إن لم يصحبه لُطف الله، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾، وهذا تنبيه من الله للزوجات والأولاد، حتى لا يُكثِروا من الضَّغط على الأزواج والوالدين، إذْ رُبَّما دفعهم ذلك الضغط إلى ارتكاب ما لا يرضى عنه الخُلُق والدين، ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

الربع الثالث من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا
الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ
إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ
اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ
أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ
ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ
اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ
اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ
إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ

أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا (٤)
ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ
لَهُۥٓ أَجۡرًا (٥) أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ
لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ
حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ ۝
وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ (٦) لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ
وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ
ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا (٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا
وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا (٨) فَذَاقَتۡ
وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا (٩) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ
فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا (١٠)
رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ
جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا (١١) ٱللَّهُ
ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ
أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ۝

الربع الثالث من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم، وهذا الربع يستغرق بتمامه سورة «الطلاق» المدنية من بدايتها، وهي قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾، إلى نهايتها، وهي قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

أكثرُ ما يدور عليه الحديث في هذا الربع من كتاب الله المحتوِي على سورة «الطلاق» المدنية هو بيان أحكام الله في الطلاق وتوابعه، اهتماماً بشؤون الأسرة الإسلامية، وحرصاً على ضمان حقوق أعضائها في مختلِف الظروف، وقد وُجِّهَ الخطابُ في أول هذه السورة إلى النبي ﷺ بصفته المسلمَ الأوّل والرئيسَ الأعلى للأمة الإسلامية جمعاء، فقال تعالى في بداية الخطاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ﴾، ثم وُجِهَ الخطابُ بعده مباشرةً إلى أمته: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ الآية، وَالشأنُ في خطاب الله

الموجَّه إلى رسوله أن يكون شاملاً له ولأمته، كما يكون خطابُ الله الموجَّهُ إلى الأمة شاملاً لها وللرسول، إلَّا فيما اختصَّ به الرسول عليه السلام من «الخصائص».

وقولُه تعالى هنا: ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾، أمرٌ من الله للزوج المسلم إذا اضطر إلى طلاق زوجته بأن لا يُطلِّقها وهي حائض، وإنَّما يُطَلِّقُها بعد أن تَطْهُر من الحَيض، وتكون في طُهر لم يُباشرْها فيه بالمَرَّة.

رُوِي عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾، أنه قال: «لا يطلقُها وهي حائض، ولا في طُهر قد جامَعَها فيه، لكن يَتْرُكها، حتى إذا حاضتْ وطَهُرتْ طلَّقها تطليقة»، أي: واحدة، وقال عكرمة: «لا يطلِّقُها وقد طاف عليها، ولا يدرِي حُبْلَى هي أم لا».

قال ابن كثير: «ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق، وقَسَّموه إلى طلاق «سنّة» وطلاق «بدعة». «فطلاق السُّنّة» أن يطلِّقها طاهرةً من غير جماع، أو يطلقَها حاملاً قد استبانَ حَملُها، و«البِدْعِيّ» هو أن يطلِّقها في حال الحيض، أو في طُهر قد جامَعها فيه، ولا يَدرِي أَحمَلتْ أم لا. وطلاقٌ ثالث لا سُنّة فيه ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة، والآيِسَة، وغيرِ المَدخُولِ بها».

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَحْصُواْ الْعِدَّةَ ﴾، أمر بإحصاء أيام «العِدَّة» لِمعرفة بدايتها ونهايتها، حتى لا يقع الغلط بالزيادة، فتطول مدّتُها على المرأة، ويتأخر زواجُها من الغير، أو بالنقص، فتقصُر مدةُ

العِدّة، وتتزوجُ المرأة قبل انتهاء أَمَد العِدَّةِ المحدود. وتـوكيداً لِامتثال هذا الأمر والتدقيق في تنفيذه عَقَّب عليه كتاب الله بقوله: ﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾، أي: التزموا تقوى الله في هذا المجال، ولا تُعَرِّضُوا أوامره للإهمال أو للإبطال.

وقولُه تعالى: ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ﴾، يقتضي أَنه إذا طلق الرجلُ زوجته فليس له الحق في أَن يُخرجها من بيته ما دامت في عِدَّتها، إذْ هي «معتدة» منه بالخصوص، وبذلك كان لها على الزوج المـطَلِّق حقُّ السكنى، واختيارُ القـرآن الكريم لاستعمال لفظ «بيوتهن»، بدلاً من استعمال لفظ «بيوتكم» تأكيدٌ للنهي عن إخراجهن، وإشارةٌ إلى أَنَّ حق الزوجة في السكنى لا يزال قائماً بحكم «الاستصحاب» وما دامت المرأةُ معتدةً فإنها تعتبرُ كأَنها في بيتها، وكما أنه لا يجوز للزوج إِخْرَاجُها من البيت، فإنها لا يجوز لها أيضاً الخروج منه، صِيانةً لحق الزوج أيضاً، رُوِي أن رسول الله ﷺ قال: «إنما السكنى والنفقة للمرأة إذا كان لزوجها عليها رَجْعَة» الحديث.

وقولُه تعالى: ﴿ إِلَّآ أَنْ يَّاتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾، يقتضي أن المرأة لا تُخرَجُ من بيتها إلّا إذا ارتكبت فاحشة مُبَيِّنة، و«الفاحشة المُبيِّنة» تشمل الـزنا كمـا قالـه ابن مسعود وابن عبـاس، ومن وافقهما، وتشمل ما إذا نَشَزَت المرأةُ، أو بَذَتْ على أَهل الرجل وآذَتْهم في الكلام والفِعَال، كما قاله أُبيٌّ بن كعب وعِكرمة، ومَن وافقَهما، وحمَلَها ابنُ عمـر على «خروج المـرأة من البيت بغير حق».

وقولُه تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾، يقتضي وجوبَ احترام المسلمين لِشرائع الله كما شرعها، وعدمَ انتهاككم لحُرُماته كما يقتضي تحذيرَهم من الخروج عنها، وتركَ الائتمار بها، لأنَّ في الخروج عنها وعدم احترامها إضراراً من الإنسان بنفسه قبل غيره، فمَن أهملَ جُزءاً من الشرائع ولو قَلَّ، احتاج إليه ولم يجده، وصدَقَ عليه المثلُ العربي: «على نفسِها جَنَتْ بَرَاقِشُ».

وقولُه تعالى: ﴿لَعَلَّ اللَّهُ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْراً﴾، إشارةٌ إلى الحكمة التي توخاها الشارع في إبقاء المرأة المطلَّقة خلال مدة العِدَّةِ ساكنةً في منزل الزوجية، وحيث «أن أبغضَ الحلال إلى الله الطلاق» كما قال ﷺ فقد شَرَع الله العِدَّةَ عقِب وقوع الطلاق، وألزمَ الزوجَ بإبقاء زوجته المطلَّقَة في بيتها خِلال مدة العِدَّة، عسى أن يندَم الزوجُ على طلاق زوجته، ويُلقِيَ الله في رُوعِه الرغبةَ في ارتجاعها، فيكون أمرُ ارتجاعها أيسر وأسهل، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿أمراً﴾ في الآية، وهو دليل واضح على كراهة الإسلام للطلاق وعدم تشجيعه عليه، وتهيئته الجوَّ الصالح للندم، والعودة إلى الحياة الزوجية العادية، رُوي عن فاطمة بنت قيس في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْراً﴾، قالت: «هي الرَّجْعة»، وكذا قال قتادة وعطاء والثوري والشعبي ومَن وافقهم.

وقولُه تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، يقتضي أنه إذا «قَارَبَت» المرأة المطلَّقة وقت

انقضاء عِدَّتها، وعزَم الزوجُ على ارتجاعها وإعادتها إلى عصمته، فله الحق في إمساكها بالرجعة، والاستمرارِ بها على ما كانت عليه عنده، لكن مع الإحسان إليها في عِشرتها وصُحبتها بالمعروف، كما أنه إذا أصرَّ على مفارقتها، ولم يلحقْه أيُّ نَدَم ولا تراجُع خلال فترة العِدَّة فله ذلك، لكن يجب عليه أن يفارقَها بالمعروف وعلى وجه جميل، دون مُقابَحة ولا مُشاتَمة ولا تَعنِيف ولا ضِرار.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، أمرٌ من الله بالإشهاد على الرجعة إذا عزم الزوج على ارتجاع زوجته المطلَّقة، وكان عطاء يقول: «لا يجوزُ في نكاح ولا طلاق ولا رِجَاع إلّا شاهدَا عدل كما قال الله عزّ وجلّ، إلّا أن يكون من عُذر» وسئل عِمْرَانُ بن حُصَيْن عن الرجل يُطلِّق المرأة ثم يقع بها، ولا يُشهِدُ على طلاقها ولا على رَجْعتها فقال للسائلِ ولعله هو نفس الرجل: «طَلّقْتَ لغير سنّة، ورَاجَعْتَ لغير سنّة، أَشهِدْ على طلاقها وعلى رَجْعَتِها، ولا تَعُدْ».

وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُومِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ اِلاخِرِ﴾، حضٌّ للمومنين على احترام ما أَمَرَ الله به من الإمساك بالمعروف، والفراق بالمعروف، والإشهاد على الرجعة بعد الطلاق، مثل الإشهاد على النكاح حين العقد.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَنْ يَّتَّقِ اِللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، حمله عكرمة على أن المراد به «مَن طَلَّق كما أمره الله»، أي: التزم في فراقه لزوجته عند اضطراره لفراقها

مقتضياتِ الإحسان والمروءة والمعروف، «يَجْعَل اللَّهُ له مَخْرَجاً»، وبهذا التفسير جعل عكرمة هذه الآية مرتبطةً بنفس الموضوع. ونفسُ هذا الرأي رُوي عن ابن عباس والضَّحاك. وقال السُّدّي: «معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلَ لَّهُ مَخْرَجاً ﴾، أي: من يُطَلِّقْ للسنّة، ويُراجِعْ للسنّة، يجعلِ اللَّهُ له مَخرجاً» يريد بذلك مَن اتبعَ السنةَ في طلاقه وفي رجعته، ولم يَجِدْ عنها مطلقاً. وحمل ابنُ مسعود هذه الآية على معنى أوسع وأعم فقال: «أن أكبر آية في القرآن فَرَجاً، هي: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ﴾».

وقولُه تعالى: ﴿ وَالَّـٰئِي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّـٰئِي لَمْ يَحِضْنَ ﴾، يقتضي أن المرأة إذا يئست من الحيض لكِبَرها وانقطاعِ الحيض عنها فإنَّ عدتها إذا طلقها زوجُها تنحصر في ثلاثة أشهُر، وذلك بدلاً من «الثلاثة قُرُوء» المقرَّرة في حق المرأة التي تحيض، حسبما سَبَق في سورة البقرة (٢٢٨)، كما أن المرأة الصغيرة التي لم تبلُغ سنَّ الحَيض إذا كانت متزوجة وفارقَها زوجُها فإن عِدَّتها تنحصرُ في ثلاثة أشهر أيضاً مثل عِدة الكبيرةِ الآيِسة سواءً بسواء.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾، معناه إن ارتبتُمْ في حُكم عِدَّتِهِنَّ ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر، وهذا التفسير مرويّ عن سعيد بن جُبَيْر. قال ابن كثير: «وهو اختيارُ ابن جرير الطبري، وهو أظهر في المعنى».

وقولُه تعالى: ﴿ وَأُوْلَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ

حَمْلَهُنّ ﴾، يقتضي أن المرأة المطلَّقة إذا كانت حاملاً فعِـدَّتُها تنتهي بمجرد وضع حَملها، فالعبرُة بوضع الحمل لا غير. قال ابن كثير: «وهذا هو قول جمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نصُّ هذه الآية الكريمة، وكما وردت به السنّة النبوية».

وقولُه تعالى: ﴿ اَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّنْ وُّجْدِكُمْ ﴾، هذا أمرٌ من الله للأزواج بإسكان الزوجة المطلَّقة إلى أن تَنقضي عدَّتُها، ومعنى ﴿ مِّنْ وُّجْدِكُمْ ﴾، أي: من سَعَتكم. قال قتادة: «إن لم تجد إلّا جنب بيتك فأسكِنْهَا فيه».

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ﴾، يقتضي منع الرجل من الضغط على المرأة، بُغيةَ أن تفتدي منه بمالها، أو بُغيةَ أن يُخرِجها من مَسكنها.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾، حمَلَه البعضُ على المطلقة «طلاقاً بائناً» إذا كانت حاملاً، فإنَّ الرجل يُطالَب بالإنفاق عليها حتى تضعَ حملها، وإلى هذا التفسير ذهب ابن عباس وطائفة من السلف والخلف. وحمله البعض على المطلَّقة «طلاقاً رجعياً» باعتبار أن السياق كله في الرجعيات.

وقولُه تعالى: ﴿ فَإِنَ اَرْضَعْنَ لَكُمْ فَئَاتُـوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾، يقتضي أنه إذا وَضعت المرأةُ المطلَّقة حملَها فقد بَانَتْ بانقضاء عِدتها، ولَها حينئذ أن تُرضع الولد، ولها أن تمتنع عن رضاعه، لكن بعد أن تُغَذِّيهُ «بباكُورَة اللَّبن» الذي لا قِوام للمولود غالباً إلّا

به، فإن عاقَدتْ أباه أو وليَّه كان لها من الأجرة على رضاعه ما اتَّفَقا عليه، وإن لم تُعاقِدْ على ذلك استحقَّتْ أُجرةَ مثلها.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾، يقتضي أنه إذا اختلف الرجل والمرأة في أُجرة الرضاع فله أن يسترضع لولده غيرَ أُمه، لكن إذا رضيت الأُمُّ بما يُستأجر به غيرُها كانت أحقَّ بولدها.

وقوله تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾، أي: لِيُنفِقْ والدُ المولود أو وليُّه على الولد، بحسب استطاعته وقدرته.

وخُتمت سورة «الطلاق» بالإشارة إلى عاقبة المكذبين، ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾، وبدعوة المومنين إلى تقوى الله والعمل الصالح، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، وبوصف ما ينتظِرُ الفريقَ الأول من العقاب، ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾، وما ينتظِرُ الفريقَ الثانيَ من الثواب، ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾، وبتذكير المومنين بقدرة الله الواسعة وعلمه المحيط بكل شيء، ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾.

الربع الأخير من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ
وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ
حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ
عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ
الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا
عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ
بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا
خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ
ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ
وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ

شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ
أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ
يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ
لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ
وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾
ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا
تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا
عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾
وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ
رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ
وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ
أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ
بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

الربع الأخير من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «التحريم» المدنية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَٰأَيُّهَا النَّبِيٓءُ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾، إلى قوله تعالى في ختام نفس السورة: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكِتَٰبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَٰنِتِينَ﴾.

وأولُ ما يَلْفِتُ النظر في هذا الربع أن الآية الأُولى منه لها علاقة وثيقة بقوله تعالى في سورة المائدة (٨٧): ﴿يَٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾، غير أن الصيغة التي وردت بها في هذا المقام، والسؤالَ الذي جاء في سياقها، وتوجيهَ الخطاب بالخصوص فيها إلى الرسول عليه السلام دون غيره، جعلَها تكتسي صبغةً خاصة، وتتضمن معنى جديداً زائداً على ما في آية «المائدة». وهذا المعنى لا يخرُج عن كونه عتاباً رقيقاً من الحق سبحانه وتعالى لنبيه عليه السلام في بعض شؤونه العائلية، وتنبيهاً خفيفاً إلى الحَلِّ الأَمثلِ في أمره، فقد كان

الوحيُ الإلّهيُّ يتتبع خطوات الرسول بالتوجيه والرعاية باستمرار لا فرق في ذلك بيْن حياته العامة، وحياته الخاصة، وصدق رسولُ الله عندما قال: «أدَّبني ربي فأحسَن تأديبي».

وكما أَدَّب رسولُ الله ﷺ زوجاتِه على ما فاه به بعضُهن من الهَفوات في حقه أوفى حق شريكاتهن، فاعتزَلَهُنَّ «مِن شِدة مَوْجِدَته عليهنَّ» ها هو كتابُ الله يدعُوه إلى وضع حد لذلك الحادث الطارىء، واستيناف حياته العائلية في وئام وانسجام، بينه وبين زوجاته، وبين زوجاته بعضِهن مع بعض، طبقاً لما هو معهود في بيته الشريف.

وليس غريباً من أمر الرسول عليه السلام أن يتأثر شعورُه الرقيق من هفوات بعض الزوجات، لما تُثيره بينهنَّ من الحَساسيات، ما دام عليه السلام هو في وقت واحد «بشراً رسولاً»، وإن كان عند رَبه وعند الناس بشراً لا كالبشر، وخاتم الأنبياء والمرسلين، ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤). كما أنه ليس غريباً أن يقف كتابُ الله إلى جانب رسوله في هذه الحادثة بالتوجيه والتسديد، ثم بالتأييد المطلق والتعضيد.

وإلى الموقف الذي اتخذه الرسول عليه السلام من الامتناع عن معاشرة زوجاته، واعتزالهن فترةً من الزمن في مَشْرُبَة خاصة، يشيرُ قولُه تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، وإلى السبب المُباشر الذي حدا بالرسول إلى اتِّخاذ هذا الموقف يشير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ

اَلنَّبِىٓءُ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اَللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنَ اَنبَأَكَ هَـٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ اَلْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾، ولا يبعدُ أن يكون لذلك الموقف أسبابٌ أخرى كانت قد أدَّت من قبل إلى شيء من التوتُّر بين زوجات الرسول بعضِهن مع بعض، فلمَّا طرأ هذا الحادث الأخير رأى رسولُ الله من الحكمة والحزم أن يَقف منه موقفاً حاسِماً، ويضعَ له حدّاً فاصلاً، حتى لا يتكررَ مثلُه مرة أخرى، وحتى لا يشغَلَهُ شيء من هذا النوع عن مَهامّ الرسالة العظمى، التي وكَلَها اللَّهُ إليه.

أمَّا تأييدُ الله لرسوله ووقوفُه إلى جانبه موقف التعضيد، هو وجنودُه التي لا يُحصيها إلاّ هو، فقد فصّل كتابُ الله القول فيه تفصيلاً، فقال تعالى: ﴿وَإِن تَظَّـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اَللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ الْمُومِنِينَ وَالْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، وفي هذه الآية الكريمة إنذارٌ صريحٌ بعاقبة التجنِّي على رسوله الأمين، واشتباكٌ في الحرب مع الله والملائكة والمومنين، ثم قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَٰجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَـٰتٍ مُّومِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰئِحَـٰتٍ ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَاراً﴾، ففي هذه الآيات الكريمة أيضاً تحذيرٌ صريح، لأمهات المومنين، من مضايقة الرسول عليه السلام، وشَغْله بأمور جانبية يتعذَّرُ معها الوئامُ والانسجام، وفيها توجيهٌ خاصٌ لأمهات المومنين «الثيِّبات منهن والأبكار»، إلى المزيد من التحلِّي بجميع الصفات الفاضلة التي تتناسَبُ مع مقام زوجات الرسول، من «إسلام» يُهيمِن على

الجوارِح ، و«إيمانٍ» يعمُر القلوب ويشرحُ الصـدور، و«قُنُوتٍ» يتجلّى أَثَرُه في الطاعة والخشوع، و«توبةٍ» تدفع إلى تدارُك ما فات، والحَذَر مما هو آت، و«عِبادةٍ» تصلُ المخلوق بالخالق، و«سياحة» بالصوم أحياناً، والتأمل بالفكر والروح في مَلَكوت الله الواسع، ومُلكه الشاسع، أحياناً أخرى.

وفي خلال هذه الآيات البينات وجَّه كتابُ الله الخطاب مباشرةً إلى الزوجتين اللتين كان لهما أَثر في إثارة هذا الحادث، يدعوهما من الآن فصاعداً إلى تجَنُّب فلَتات اللسان، والتحفُّظ في كل ما ينبغي فيه التحفظُ والكِتمان، حفظاً لذات البَيْنِ بين جميع أمهات المومنين، عليهن الرحمة والرضوان، فقال تعالى مُشعِراً لهما بوجوب المُبادرة إلى التوبة مما فَرَط منهما في حق الرسول عليه السلام، وداعياً لهما إلى الاعتصام بحسن الظن وصَفاء السريرة على الدوام: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾.

وبعد أن ألقينا بعض الأَضواء على الحادث الطارىء الذي أزعج هناء البيت النبوي الشريف، وجمعنا في نَسَق واحد الآيات التي أَلَمَّت بجميع أَطرافه، وما تضمنتْه من توجيهات إلَهيةٍ خاصّة بالرسول الكريم وأزواجِه الطاهرات، نَنْتَقِلُ إلى الآيات الكريمة الأخرى، التي لها طَابَع توجيهي عامّ لجميع المومنين والمومنات، وذلك قولُه تعالى في الآية الثانية من هذه السورة: ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾ إلى آخر الآية، وقولُه تعالى في الآية السادسة منها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾، إلى آخر الآية.

ففيما يخص الطريقة المثلى للتحلل من اليمين إذا ظهر عند التدبُّر في عواقبه أنَّ غيره خيرٌ منه شرعاً وطبعاً يَنبغِي للمومن أن لا يَتأَخَّر عن فعل ما هو خير، بدلاً مما حَلَف عليه، وفي نفس الوقت يُكَفِّرُ عن يمينه، طبقاً لما شَرَعه الله في «كفارة اليمين»، تعظيماً لاسم الله الأقدس، الذي وقع الحَلِفُ به، وعملاً بمقتضى الرعاية الإلَهية، والحكمة الربانية، والعلم المحيط بخلَجات النفوس، ﴿وَاللَّهُ مَوْلَيٰكُمْ وَهُوَ اَلْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. وهذه الكفارة هي التي سبق بَيانها بالتفصيل في الآية الواحدة والتسعين من سورة «المائدة» حيث قال تعالى: ﴿لَا يُوَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِنْ يُوَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنَ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وفيما يخُصُّ المثلَ الأعلى لتربية النفس والأَهل والأَولاد دعا كتابُ الله الجميعَ إلى أن يجعلُوا بينهم وبين ما يُوجِب عقابَ الله وعذابَه في الدنيا والآخرة وقايةً فعّالة وحجاباً منيعاً: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً﴾، والأهلُ يشمل الزوجة والأولاد وما أُلحق بهم، والوقايةُ السابقة خيرٌ من العلاج اللاّحق، ووقايةُ النفس تكون بالسلوك الحسن الذي يقيها من الزَّلات والعَثرات، ووقاية الأهل تكون بحسن توجيههم وتقويم اعوجاجهم، ووقايةُ الأولاد تكون بحسن تربيتهم، والعمل المتواصل على إعدادهم للحياة الصَّالحة ديناً ودنيا منذ الطفولة الأولى. قال أبو بكر (ابن العَرَبي)

المعافري: «فعلَى الرجل أن يُصلح نفسه بالطاعة، ويُصلح أهلَه إصلاحَ الراعي للرعية، وكما يُؤدِّبُ ولدَه في مصلحتهم يؤدِّبُ أهلَه فيما يُصلِحه ويُصلِحهم أدباً خفيفاً». وقال أبو بكر الرازي الجصّاص: «وهذا يدلُّ على أنَّ علينا تعليمَ أولادنا وأهلينا الدّينَ والخيرَ، وما لا يُستغنَى عنه من الآداب، وهو مثلُ قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ (طه: ١٣٢)، ونحو قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، ويدل على أن لِلأقرب فالأقرب مِنا مزيّةً، في لزومِنا تعليمَهم، وأمرَهم بطاعة الله تعالى، ويَشهَدُ له قول النبي ﷺ: «كلُّكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»، ومعلوم أن الراعي كما عليه حفظُ من استُرْعِيَ وحمايتُه والتماسُ مصالحه فكذلك عليه تأديبه وتعليمه). وبذلك يكون الأزواج والآباء «قوامين» بالمسؤولية الدينية والاجتماعية الملقاة على عواتقهم خير قيام، وتكون حياتُهم الشخصية والعائلية في مأمَن من الهزّات والأزمات، وإلّا حَقت عليهم وعلى من يَقعُ تحت ولايتهم كلمةُ العذاب، في الدنيا قبل الآخرة. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (طه: ١٢٤). ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما نحلَ وَالِدٌ ولَداً خيراً من أدب حسن».

ووَصَفَ كتابُ الله «وَقُود النار» التي تُهدد النَّفس والأهل والولد بكونه من الناس أولًا، ومن الحِجارة ثانياً، كما وَصف المكلَّفين بإيقَادها من الملائكة بكونهم «غِلاظاً شداداً» على من استَحقُّوا عذاب الله، جزاءَ تفريطهم في حقوق العباد وحقوق الله،

وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقُودُهَا اَلنَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰئِكَةٌ غِلَـٰظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اَللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُومَرُونَ ﴾.

ثم دعا كتابُ الله جميعَ المومنين إلى التوبة مما اقترفوه من الذُّنوب «توبةً نصوحاً»، مُبَيِّناً لهمُ أَنّ باب التوبة مفتوح على مِصْراعَيْه في وجوههم دون واسطة أيّ مخلوق، فما عليهم إذا أغراهمُ الشيطان وانخدعت له النفس الأَمَّارة بالسوء إلّا أن يُبادروا إلى ذكر الله واستحضاره، والإنابة إليه واستغفاره، ليستأنِفُوا حياتَهم الأُولى، حياةَ الطاعة والتقوى والخشوع والإنابة، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا اَلذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى اَللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسىٰ رَبُّكُمُ أَنْ يُّكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا اَلاَنْهَـٰرُ ﴾.

و «التوبة النصوح» فيما قاله العلماء: هي أَن يُقلع المومن عن الذنب في الحاضر، ويندَم على ما سلَف مِنه في الماضي، ويَعزِم على أن لا يفعل الذنب في المستقبل. رُوي عن الحسن أنه قال: «التوبةُ النَّصوح أَن تُبغض الذنب كما أَحببْتَه، وتستغفرَ منه إذا ذكرتَه». قال ابن كثير: «فأما إذا جزَم بالتوبَة وصمَّم عليها فإنها تَجُبُّ ما قبلها من الخطيئات، كما ثبت في الصحيح: «الإسلام يَجُبُّ ما قبلَه، والتوبةُ تَجُبُّ ما قبلَها».

وقولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى اِللَّهُ النَّبِيٓءَ وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، هذا وَعْدٌ صادق من الله

لنبيه وللمومنين، وامتنان عليهم بالنور الإلّهي الذي سيُشِعُّ عليهم، فيُعرَفون به من بين الأمم، ويهتدون به وسط الزِّحام الرهيب يوم الحشر إلى مَقرِّهم في جنة الخلد، مُتميِّزين بذلك عن بَقِية الخلائق والأمم.

وقولُه تعالى: ﴿ يَـٰأَيُّهَا اَلنَّبِىٓءُ جَـٰهِدِ اِلْكُفَّارَ وَالْمُنَـٰفِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَـأْوِيٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِيسَ اَلْمَصِيرُ﴾، هذا تجديدٌ من الله لأوامره الصارمة، بمكافحة الكفر والنفاق، ومواجَهة الكفار والمنافقين، بمنتهى الحزم والصرامة، حتى تُقلَّمَ أظفارُهم، ولا يستطيعُوا إلحاق أيّ أذىً بالإسلام والمسلمين.

ثم ضربَت الآياتُ الكريمةُ المَثَل بنساء كافرات كُنَّ في بيوت الأنبياء، ومع ذلك لم تنفعْهن مُعايشةُ الأنبياء ولا معاشرتُهن لهم في الخَلاص من عذاب الله، لأنَّهنَّ لم يَكُنَّ مومناتٍ بالدين الذي جاء به أولئك الأنبياء، ومثال ذلك امرأةُ نوح عليه السلام، وامرأةُ لوط عليه السلام، فقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اَللَّهُ مَثَلاً لِّلذِينَ كَفَرُواْ اَمْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَـادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَـهُمَا﴾، أي: كانتا على غير دينهما، ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اَللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ اَدْخُلاَ اَلنَّارَ مَعَ اَلدَّاخِلِينَ﴾.

وضربَت الآياتُ الكريمة المَثَل بنساءٍ مومنات كُنَّ يعِشْنَ في بيوت الكفار، فعاملهنَّ اللَّهُ بالحسنى، وأكرمهن بالرحمة والغفران، والجنة والرضوان، دون أن تُؤثِّر في مصيرهِنَّ مخالطَتُهنَّ للكفار، ولا معاشَرَتُهنَّ لهم، إذْ كُنَّ مومناتٍ بدين الحق، ولا يشارِكْنَ

أُولئك الكفارَ في عقيدتهم الباطلة، فقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴾.

ولَعَلَّ في هذه الأَمثال التي ضربها كتابُ الله بالنوع الأول والنوع الثاني من النساء بالخصوص في هذه السورة بالـذات، تنبيهاً لأمهات المومنين، فضلاً عن غيرهنَّ، إلى ما يجب عليهن من مزيد التَّفاني في طاعة الله ورسوله، وما يلزمُهنَّ من البُعد كل البعد عن كل ما يُنَغِّصُ عليه العيش، أَو يجلب له الأَذى، حيث أنّ مجردَ القرب من الأَنبياء لا يُغنِي عن القيام بالواجب نحوَهم، ولا يَشفعُ في إهمال أيِّ حق من حقوقهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الربع الأول من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ
وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي
خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ
الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ
الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ
وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ
كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا
شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ
سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا
مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ
مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢
وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا
يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ
ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥
ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم
مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧
وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى
ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ
شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ
إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ
رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ٢١ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ
أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢ قُلۡ هُوَ
ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا
مَّا تَشۡكُرُونَ ٢٣ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ٢٥ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٢٦

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى
كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ
أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ
ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ
لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ
وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن
سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ
تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ
بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ
ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾
سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟
لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾

الربع الأول من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم هو تفسير الربع الأول من الحـزب السابع والخمسين من المصحف الكريم، وبدايتُه قولُه تعالى في فـاتحة سـورة «المُلْك» المكية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ تَبَٰرَكَ اَلذِى بِيَدِهِ اِلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ونهايتُه قولُه جلّ علاه في سورة «القلم» المكية أيضاً: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ إِذَ اَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾، وفي هذا الربع سنتناول بحول الله وقوته تفسير سورة «المُلْك» المكية بأكملها، وتفسير جزء من سورة «القلم» المكية أيضاً.

وسورة «المُلْك» تدعو إلى التأمل في الحياة والموت وما وراءهما، وتبعث على التفكير في العالَم العُلْوي، والتَّمَلِّي من مظاهر الإبداع الإلَهي، المبثوتة في آفاقه الواسعة، وتَحْدُو أَسَرَاءَ الحِسّ إلى استبطان دخائل نفوسهم، والاهتمام بمراقبة ضمائرهم، عِـلاوة على ضبط حواسِّهم، وتَحُضُّ على التفكيـر في مصـدر الرزق، وما يتعرضُ له من سَعَة وضِيق، وإمساك وإطلاق، وهي إلى جانب هذا كله تصفُ حالَ المومنين وحال الكافرين، ومصير المهتدين ومصير الضالين.

وقد تفرَّعت آياتُ هذه السورة كلُّها عن فاتحتها المتضمنة لحقيقة «المُلْك» وحقيقة «القُدرة»، إذْ قال تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ تَبَـٰرَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

فمن «المُلْك» ومن «القُدْرة» كان خَلْقُ الموت والحياة، وكان الابتلاءُ بهما، وكان خلْقُ السماوات وتزيينها بالمصابيح، وكان العِلْم بالسِّر والجَهْر، وكان الرزقُ كما يشاء الله، ومَتى شاء، وكان عذابُ الكافرين، وكان نعيمُ المومنين.

فقولُه تعالى: ﴿ تَبَـٰرَكَ ﴾، إشارةٌ إلى زيادة بركة الله ومضاعفة نعمته، وشمول رحمته، وذلك نوع من تمجيد الله، والتسبيح باسمه.

وقولُه تعالى: ﴿ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾، تذكيرٌ لكافة الخلائق، ولا سيما الإنسان، بأن الله تعالى هو وحده الذي يَملِك ـ على وجه التحقيق ـ التصرفَ الكامل الشامل، في جميع أجزاء الكون، بكل ما فيه، من رِقَاب ومنافع، وناطِق وأعجم، وحَيٍّ وجامد، وشاهِدٍ وغَائب، وهو الذي له المُلْك الحَقيقي في الدنيا، والمنفردُ بالمُلْك في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، تذكيرٌ لكافة الخلائق، ولا سيما الإنسان، بأن اللَّهَ تعالى هو وحده الذي لا يُعجِزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه سبحانه قادر على أن يرفع الإنسان إلى «أعلى عِلّيين» إذا ائتمر بأمره وانتهى بنهيه،

وقادرٌ على أن يرده «أسفلَ سافلين» إذا خالف عن أمره وأعرض عن وحيه.

وقولُه تعالى: ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ ﴾، تأكيدٌ لما لَه سبحانه من سلطان شامل كامل على خلقه، وتصرّف حرّ مطلق فيهم من البداية إلى النهاية، فهو سبحانه وحده الذي يُنشئهم من العَدم، وينفُخ فيهم روح الحياة متى شاء، وهو سبحانه وحده الذي يُوقِف فيهم تيار الحياة ويطفىء مصابيحها في اللحظة التي يريد، ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَل ﴾ (الأنبياء: ٢٣)، ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرَهُ ﴾ (الطلاق: ٣)، ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ (المنافقون: ١١). وما دام الإنسانُ غير قادر على أن يُقدِّم موعدَ قدومه إلى عالَم الأحياء، وغيرَ قادر على أن يُؤخر موعدَ سفره من هذا العالم إلى الوقت الذي يشاء، فهو عاجزٌ كلَّ العجز، ومقهور كامل القهر، وإن ادَّعَى من القدرة والسَّطوة لنفسه أكبر نصيب.

وقولُه تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾، بيانٌ لحكمة الله في خلق الإنسان، وفي تزويده بمَلَكة العقل والتمييز والاختيار. ذَلك أن الله تعالى يريد أن يُبرز لكل إنسان ما في نفسه من طاقاتٍ كامنة، ومن استعداداتٍ للخير والشر، ومن قدرة على اختيار الهُدى أو اختيار الضلال، والإنسانُ لا يكتشفُ نفسَه على حقيقتها إلّا عندما تكون وسائل العمل حاضرة بين يديه، وأجهزةُ التنفيذ مُتَوافِرة لديه، وإذ ذاك يتضحُ اختياره، وتنكشف أسراره، ويتحمل مسئوليةَ عمله، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر، فالله تعالى لم يخلق الإنسان عَبَثاً، ولم يترُكه سُدًى، وإنما خلقَه ليقوم بدور

مرسوم له في هذه الأرض، وهذا الدور هو الخلافة عن الله في عمارتها وصلاحها، وإقامة شريعة العدل والحق بين أهلها، ومجالُ السِّباق فيها مفتوحٌ على مصراعيه أمام المتسابقين «والعاقبة للمتقين».

وقولُه تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾، إشارةٌ إلى أن الحق سبحانه وإن كان «عزيزاً غالباً»، مَنيع الجَناب، فإنه سبحانه يصفَح عن الذنوب ويغفر الخطايَا لمن تاب إليه وأناب.

وانتقل كتابُ الله إلى التحدث عن آثار قدرته، ومظاهر حكمته، فأشار إلى ما خلقه الله من السبع الطباق، وما تميزت به من الضبط الذي لا خلل معه، والنظام الذي لا فوضى بَعده، ووجَّه كتابُ الله الدعوةَ مكررةً إلى الإنسان، ليتذكر «صنع الله» في السماوات، ويرى هل يكتشف في صُنعه بعض النقائص والآفات، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقاً ﴾، أي: طبقات على أبعاد متفاوتة، ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ﴾، أي: لا عيب فيه ولا خلل ولا تنافر، ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾، أي: هل ترى من شقوق وخروق، ﴿ ثُمَّ ٱرْجِع ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾، أي: مرتين، مرة بعد أخرى، ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾، أي: كليل من الإعياء بعد تكرار النظر، دون اكتشاف أيّ نقص، ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ ﴾، أي: زينا السماء القريبة إلى الأرض، بالكواكب والنجوم الظاهرة للعين، ﴿ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُوماً لِّلشَّيَـٰطِينِ ﴾، أي: جعلنا جنسَ المصابيح رجوماً للشياطين، وذلك في صورة «شُهُب»

كما جاء في سورة (الصافات: ٦، ١٠): ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا اَلسَّمَآءَ اَلدُّنْيَا بِزِينَةٍ اِلْكَوَاكِبِ وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ لَّا يَسْمَعُونَ إِلَى اَلْمَلَإِ اِلَاعْلَىٰ، وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ اِلَّا مَنْ خَطِفَ اَلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ اَلسَّعِيرِ ﴾، أي: عِلاوة على الشُّهب التي يَرجُم الله بها الشياطينَ في الدنيا أَعدَّ الله لهم في الآخرة عذابَ جهنم. وتحذيراً من استعمال «علم الفلك والتنجيم» استعمالاً سيئاً قال قتادة: «إنَّما خُلِقت هذه النجوم لثلاث خصال، خلقَها الله زينةً للسماء، ورُجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدَى بها، فمَن تأوَّلَ فيها غيرَ ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظَّه، وأضاع نصيبَه، وتكلَّف ما لا علم له به» وهذه الخصال الثلاث التي ذكرها قتادة لا تمنع وجود خصال أُخرى وأسرار كبرى يكشفُ الله عنها لمن يشاء، في الوقت الذي يشاء.

وانتقل كتابُ الله، من الإشارة إلى رَجْم الشياطين بالشُّهُب في الدنيا وعقابِهم بعذاب جهنم في الآخرة، إلى الحديث عن «أولياء الشياطين» من الكفار، وما ينتظرُهم من العقاب الشديد والعذاب الأليم، واصفاً شهيقَ جهنم وغيظَها من كفرهم وعنادهم، واستقبالَ خَزنتها لهم أسوأَ استقبال، فقال تعالى: ﴿ وَلِلذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِيسَ اَلْمَصِيرُ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً ﴾، أي: صياحاً، ﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾، أي: تَغلِي بهم، ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ اَلْغَيْظِ ﴾، أي: تكاد تتمزق من شدة حَنَقها عليهم، ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَاتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾،

وذلك لإقامة الحجة عليهم، ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَـٰبِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُواْ بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَـٰبِ السَّعِيرِ﴾، أي: أنهم عادوا على أنفسهم باللوم، ونَدِموا حيث لا ينفعهم الندَم.

ثم تحدث كتابُ الله عن مُراقبة الله في «الغيب»، تلك المراقبة الدقيقة التي لا يَتِم الإيمان بالغيب دُونها، وهي أَن ينكفَّ المومن عن معصية الله وإن كان لا يراه أَحد، وأَن يقوم بطاعة الله وإن كان لا يشاهده أحد، «كمن دَعَتهُ امرأة ذاتُ مَنْصِبٍ وجمال فقال: إني أخاف الله، وكمن تصدَّق بصدقة فأَخفاها حتى لا تعلمَ شِمالُه ما تُنفق يمينه» فاستحقّا أن يكونا من «السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلاّ ظله»، كما ثبت عن رسول الله ﷺ في الصحيحين. وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُواْ بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

وامتَنَّ كتابُ الله على عباده بالأرض التي سخرها لهم، وأعدها لِانتفاعهم، إذْ بارك فيها وقَدَّر فيها أَقواتها، ودعاهم إلى التمتع بما آتاهم من رزقه، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾.

ثمَّ أَعاد كتابُ الله الكَرَّة مرة أخرى لِيَلفِت نظرَ الإنسان إلى

أن جميع ما آتاه الله من النعم مُعرَّضٌ للزوال والسَّلْب، إن لم يقابله بالشكر والامتنان، والطاعة والإذعان:

ـ فهذه الأرض الذَّلول المستقرة من الممكن أن يحُل بها الخسف والاضطراب، ﴿ءَامِنتُم مَّن فِى اِلسَّمَآءِ اَنْ يَّخْسِفَ بِكُمُ الاَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾.

ـ وهذه السماء التي ترسل «الغَيث» من الممكن أن ترسل «ريحاً حاصباً» تأتي على الأخضر واليابس، ﴿أَمَ اَمِنتُمْ مَّن فِى اِلسَّمَآءِ اَنْ يُّرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾.

ـ وهذا الرزق الذي لا يعيش بدونه الإنسان، من الممكن أن يُمسكه الله عنه، فيُعرّضه للجوع والحرمان، ﴿اَمَّنْ هَذَا اَلذِى يَرْزُقُكُمُ إِنَ اَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾.

ـ وهذا الماء الذي يشرب منه الناس ويسقُون به الزروع والدوابّ من الممكن أن «يغور»، ولا يجدوا منه قطرة واحدة ولو في أعماق الأرض، ﴿قُلْ اَرَآيْتُمُ إِنَ اَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَّاتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينِ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «القلم» المكية أيضاً، وفي مطلعها قَسَم من الله عظيم «بالقلم والكتابة»، تنويهاً بهما، وتبييناً لعِظم منفعتهما، في حفظ العلم والدين، ونقل ثمرات الحضارة والتمدين: ﴿بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَنِ اِلرَّحِيمِ نُّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

ـ ثم تحدث كتابُ الله عما أكرم به خاتم الأنبياء والمرسلين

من الخُلُق العظيم وإنه لَتنويهٌ فوق كل تنويه، بمقام الرسول الكريم، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾، واتّجهَ الخطابُ الإلّهي إلى نبيه، مُنبِّهاً إياه إلى رفض كل مساومة من طرَف المشركين: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾.

وسجلَ كتابُ الله وصفاً دقيقاً لبعض أقطاب الشرك وزعماء الوثنية، وبذلك عرَض على المسلمين نمُوذجاً حيّاً من نماذج الخَبَال والضلال التي يصادفونها في حياتهم، والتي يجب أن يتجنبوها كل التجنب، ويمقتوهَا كل المَقت، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ اَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ اَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ الاَوَّلِينَ ﴾.

- فهو «حَلَّافٌ»، أي: كثير الحَلِف، ولا يُكثر الحَلِف إلاّ الكاذب.

- وهو «مَّهِينٌ» ، أي: لا يحترم نفسه ولا يحترمه الناس.

- وهو «هَمَّازٌ»، أي: يهمِز الناس ويعيبهم في حضورهم وغيبتهم.

- وهو «مَّشَّاءٌ بِنَمِيمٍ»، أي: يمشي بين الناس بما يُفسد قلوبهم، ويقطع أرحامهم.

- وهو «مَنَّاعٌ لِلْخَيْرِ» ، أي: يمنع الخير عن نفسه وعن الناس.

ـ وهو «مُعْـتَـدٍ» ، أي: متجاوزٌ للعدل وللحق باستمرار.

ـ وهو «أَثِيـمٌ»، أي: يرتكب المعاصي ويمارس الآثـام على الدوام.

ـ وهو «عُـتُـلٌّ»، أي: غليظٌ جافِي الطبع، لئيم النفس، سيء المعاملة.

ـ وهو «زَنِيـمٌ»، أي: مشهورٌ بالخبث والشر إن لم يكن «ظَنيناً» في النسب.

وعقاباً لهذا الصنف من المشركين ومَن لَفَّ لَفَّهم في سائر العصـور والأجيـال، عقَّب كتـابُ الله قـائـلاً: ﴿ سَنَسِمُـهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾، و«الخُرطُوم» طرف الأَنف من الخنزير الوَحْشي، وذلك تلويح إلى ما هو أهل له من التحقير والتأنيب، والإهانة والتعذيب. ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت: ٤٦).

الربع الثاني من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن
رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ
اغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا
يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا
قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا
تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا
خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْأٓخِرَةِ
أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾
أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ
فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا
بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ
زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾

يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾
خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ
سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ
حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا
فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ
رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَٰحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ
نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟
ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ
بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ
صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ
فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾
وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ
رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى

ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ
نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ
وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾
وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾
يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴿١٨﴾

الربع الثاني من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «القلم» المكية: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾، إلى قوله جلّ جلاله في سورة «الحاقة» المكية أيضاً: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾.

في آخر الربع الماضي فسَّرنا الآيات الكريمة التي تناولت بالوصف والتحليل، ما كان عليه بعض أقطاب الشرك والتدجيل من عقلية جامدة، وأخلاق فاسدة، وقد وصفها الحق سبحانه لعباده المومنين، حتى يتجنبوها ويُقاطِعوا كلَّ من اتصف بها من الفاسدين المفسدين، حيث قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾، إلى قوله تعالى في نفس الآية: ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾. وبذلك أشار كتاب الله إلى أن هذا النموذج المنحرف من نماذج الضلال والخَبَال كان يَستعلِي على الرسول والمومنين، وكان يتكاثَرُ بما

عنده من مال وبنين، ناسياً أن الله له بالمِرصاد، وأنه إنما يُملِي له ويستدرِجُه من حيث لا يعلم.

وبمناسبة ما أشار إليه كتابُ الله في هذا الموضوع من استكبار هذا النموذج المتكبر، وبَطَرِه بنعمة الله، انتقلت الآيات الكريمة مباشرةً من الحديث عنه إلى الحديث عن قصة قديمة لها علاقة وثيقة بهذا الصنف من الناس، الذين يقابلون نعمة الله بالكفر لا بالشكر، فينتزعُها الله منهم، ويعاقبُهم بالسَّلْب والحرمان، والحديثُ عن هذه القصة العجيبة هُوَ الذي يستغرِق الآيات الأولى من الربع الذي نفسره اليوم.

وخلاصةُ هذه القصة فيما تنقُله الروايات أن جماعة من أهل اليمن كانت لهم قُرْبَ صَنعاء ضَيْعةٌ مزدهرة تحتوي على أنواع الثمار والفواكه، وهي في غاية النَّضارة والازدهار، فلما حلَّ أوانُ قَطف ثمارها أخذوا يتذاكرون فيما بينهم، هل عندما يَقطِفون ثمارَها يُعطون من مَحْصولِها جزءاً للمساكين صدقةً عليهم، وشكراً لله على فضله، أم أنهم يستأثِرون لأنفسهم بكل شيء، ولا يعطُونَ للمساكين شيئاً، وكان من بينهم وَاحِدٌ يُحب الخير والإحسان، فأشار عليهم بأن لا يهملوا حق المساكين من ثمرات تلك الضَّيعة، غير أن الأغلبية منهم رفضت قبول نصيحته، رغبةً في الاستئثار بمجموع المحاصيل، والانفرادِ باستغلالها والانتفاع بها المائة في المائة، واتفقت تلك الأغلبيةُ على قَطف ما في الضَّيْعة دون التصدق منه بقليل ولا كثير، وتواعدَ أفرادُ الجماعة فيما بينهم على موعد القَطف، وتستَّرُوا ما أمكنهم التستر، حتى لا

يبلغ الخبر إلى المساكين، فيضايقونهم بطلَب الصدقة منهم حين قَطْف الثمار، لكنَّ اللَّهَ الذي يعلمُ السر وأخفى اطَّلع على ما بيَّتوه من سوء، فلما حانَ موعدُ القطف ووصلوا إلى الضَّيعة فُوجئوا أقبحَ مفاجأة، إذْ وجدُوا كل ما فيها أصبح هشيماً أسودَ كالحاً، كأنه أصابه الحريق، فقد علِم اللَّهُ ما بَيَّتُوا وعامَلَهم بنقيض قصدهم، وسلَّط على ضَيعتهم آفة سماوية أهلكت الضَّيْعة بكل ما فيها. ولشدة هَول المُفاجأة التي واجهتهم أخذوا يتساءلون فيما بينهم أهذه هي ضَيْعَتُنا أم هي ضيعةٌ أُخرى؟ إذْ كانت بالأمس مثمرةً في غاية النَّضارة، واليوم أصبحت قاتمة محترقة في غاية الذُّبول، وبُدِّلت الأرضُ غيرَ الأرض. وبعدما تأكدُوا أن الضَّيعة هي نفس ضيعتهم شَرَعُوا يتلاوَمُون فيما بينهم، ويعترفُون بسوء نيتهم، وبسوء تصرُّفهم، وأدركوا أن الله المطلع على الغيب قد عاقبهم على كفرهم بنعمته، فحرمهم منها بالمرة حرماناً تامّاً، وبذلك خسِروا رأس مالهم، وخسِروا الربح الذي ينتظرونه من رأس المال، جزاءَ ما بيَّتوه من هضم حقوق المساكين، والاِمتناع من الصدقة على المحرومين، التي هي من أعظم حقوق الله وحقوق العباد.

وإلى هذه القصة المليئة بالعِبَر، لِمن تقدم أو تأخر، يُشير قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ﴾، أي: اختبرناهم، ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: أصحاب الضَّيْعة، ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾، أي: حلفوا أن يقطعوا ثمارها صبيحةَ الغد، ويستأثروا بها وحدهم، دون أن يقولوا: «إن شاء الله»،

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾، أي: أصابتها آفة سماوية بأمر الله في الوقت الذي كانوا يَغِطّون في نومهم، ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾، أي: أصبحت كأنها مقطوعةُ الثمار، لأن الآفة السماوية قضت على ثمارها، ﴿ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ أَنُ اغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴾، أي: لمّا كان وقت الصبح نادى بعضُهم بعضاً أن يذهبوا إلى قطف الثمار، ﴿ فَانطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴾، أي: ذهبوا وهم يتكلمون بصوت منخفض، يحذر بعضهم بعضاً من أن يدخل عليهم المساكين وهم يَقطِفون الثمار، لأنهم لا يعترفون للمساكين بأيّ حق فيما آتاهم الله من فضله، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾، أي: لمّا رأوا مزرعتهم على حالة يُرثَى لها ظنوا أنهم دخلوا إلى مزرعة أخرى غيرِ مزرعتهم، وذلك من هَوْل المفاجأة، ولما تأكدوا أنها هي بنفسها لا غيرها، قالوا: ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾، أي: أدركوا أن الله عاقبهم وعاملهم بالحِرمان، جزاءَ كفرهم بنعمته وعدم شكره عليها، ولمّا تيقنوا من عقاب الله، ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾، أي: ذكّرهُم أرجحُهم عقلاً وأفضلهم سلوكاً، بما كان قد نصحَهم به من قبل، من إعطاء المساكين حقَّهم في ثمرات تلك المزرعة، شكراً لله على ما آتاهم، ولمّا عرفوا أنه كان مُحِقّاً فيما نصحهم به، ﴿ قَالُواْ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴾، أي: أخذ بعضُهم يلوم البعض الآخر، واعترفوا بذنبهم جميعاً، ﴿ قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴾، أي: كنا على غير حق فيما بيّتناه من هضم حقوق

المساكين وحرمانهم، وها نحن قد أصابَنا ما أصابَنا جزاءَ أنانيتنا وطغياننا. ثم التجأوا إلى الله مضطرين، ولم يذكروه إلّا في ذلك الحين، طالبين مغفرته وإحسانه قائلين: ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾، لكنّ كتاب الله أكّد أنهم، عِلاوة على العذاب الذي نالهم في الدنيا، سينالُهم في الآخرة عذابٌ أكبر وأشد، ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾.

وكتابُ الله عندما سجل هذه القصة بين دَفَّتي المصحف الكريم إنما يريد ضرب المَثَل لكافة المومنين، حتى يؤدوا للمساكين والمحرومين ما لهم من حقوق معلومة في أموالهم وثمراتهم، فبِأداء تلك الحقوق تزكُو أموالُهم، وتنمو ثرواتُهم، وإلّا ضاع عليهم رأس المال والربح، جزاءَ ما ضيعوه من الصدقة والزكاة، وخسروا خُسْراناً مبيناً.

وتساءل كتابُ الله هل يُعقَلُ أن يكون الذين آمنوا واتَّقَوْا، ـ عند ربهم ـ في درجة الذين كفروا وأجرموا، وإنه لسؤال لا يصعب الجواب عنه جواباً منطقِياً: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ، كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾.

ثم وجه كتابُ الله إلى المشركين عِدةَ أسئلة «استنكارية» تُعجِزهم وتُفحِمُهم، إذ لا يستطيعون الجواب عنها بأي جواب مقنع:

ـ هل عندكم أيها المشركون «كتابٌ مُنزَّل» تتدارسونه فيما

بينكم، تستمدون منه هذه الأحكام السخيفة التي تحكمون بها لأنفسكم، وتحكمُون بها على غيركم، طبقاً لشهواتكم وأهوائكم: ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾.

ـ هل عندكم أيها المشركون عهود ومواثيق من الله أعطاها لكم، وعاهَدكم عليها، وواثَقكم بمقتضاها، حتى تفعلُوا ما تشتهون، وتحكُموا بما تشاءون، ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ، إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾.

ثم أمر الحقُّ سبحانه نبيه عليه السلام أن يسأل المشركين: مَنْ مِنهم تكفَّلَ لهم بتلك العهود، وضمِن لهم تلك المواثيق: ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾، ودعا كتابُ الله المشركين أن يحضِروا معهم شركاءَهم من الأصنام والأوثان، إن كان شركاؤهم صادقين في بذل العون لهم عند الحاجة، وَإغاثتهم وقتَ الضيق: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَـٰدِقِينَ ﴾، وبيَّن كتابُ الله أنّ أولئك الشركاء لن يُعينوا المشركين الذين أشركوهم بالله في قليل ولا كثير، بل سيُسْلِمُونهم إلى مصيرهم المُفجِع يوم القيامة: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَـٰلِمُونَ ﴾. ثم اتجه الخطاب الإلهي إلى الرسول عليه السلام طالباً منه أن يَكِل عاقبةَ أمر المشركين إلى سَطوة الله وقدرته القاهرة، ليفعلَ بهم ما يشاء، ويقضيَ فيهم بما يُريد، مُبيِّناً له أن الله تعالى إنما يعطيهم ليسلبهم، وإنما يُمِدُّهم ليَحْرِمَهم، وإنما يُمْهِلهُم ولن يُهْمِلَهم: ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ

سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِى لَهُمْ، إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾.

وعقَّبَ كتابُ الله على ذلك كله بدعوة الرسول عليه السلام إلى المزيد من الصبر على تحمُّل أذى المشركين الذي لا ينقطع، والمزيد من الصبر على القيام بأعباء الرسالة التي لا يُثقل الكاهلَ مثلها شيء، لافتاً نظره إلى أنْ لا يسلك مسلك أخيه نبيّ الله «يُونس» عليه السلام، الذي تخَلَّى عن حمل أعباء الرسالة عندما ضاق صدرُهُ وذهبَ مُغاضِباً لقومه، سائحاً في أرض الله، حتى وجد قوماً يركبون سفينة في البحر، فركبَها معهم، وانتهى الأمرُ به إلى أن يلتقمه الحوت، ويحفظه في بطنِه إلى حين، فنادَى ربَّه وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ اَلظَّـٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧). فتداركَهُ لُطف الله، وألقاه الحوت في أرض عَراء، وأنبت الله عليه شجرةً من يَقْطِينٍ، ليَأكلَ من ثَمرها، ويستظل بظلها، وإذْ ذَاك فَهِم عن الله، وعاد إلى قومه وكان سروره بالغاً عندما وجدَهم قد اهتدوا بدعوته، وآمنوا برسالته، وذلك ما يُشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَـٰحِبِ اِلْحُوتِ إِذْ نَادىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ لَّوْلَآ أَنْ تَدَٰارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَـٰهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ اَلصَّـٰلِحِينَ﴾، فالمراد بصاحب الحوت هنا هو يونس عليه السلام كما سبق في سورة «الصافات».

وتحذيراً من أن يَفهمَ بعضُ المومنين من هذه الآيات الكريمة تنقيصاً من قدر يونس عليه السلام نبّه رسول الله ﷺ أُمته إلى احترام مقامه وتوقيره، وعدم المفاضلة بينه وبين يونس،

فقال ﷺ كما رُوي في الصحيحين: «لا ينبغي لِأحد أن يقول أنا خيرٌ من يونس بن مَتّى».

وأشــارَ كتابُ الله إلى ما كان للمشركين من حَنَق على رسول الله ﷺ، وبُغض له ولدينه، من شِدة وَقْع الإسلام عليهم، وتسفيهه لمعتقداتهم، وبيَّن أنه لولا حِفظُ الله لنبيه، وعصمتُه له من الناس، لآذاهُ المشركون بأعينهم الشريرة إذايَةً بالغة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّـا سَمِعُواْ الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾. وعلَّق ابنُ كثير على هذه الآية قائلاً: «إن فيها دليلاً على إصابة العين، كما وردت بذلك الأحاديث المروية مِن طرق متعددة».

وهنا تنتهي سورة «القلم» المكية، وتبتدىء سورة «الحاقة» المكية أيضاً، والحديث في مطلعهـا يتعلق بيوم القيـامة، فمن أسماء هذا اليوم اسم «الحاقة»، لأن فيه يتحقق الوعد والوعيد اللذان نزلت بهما الكتب الإلَهية، وجاء بهما الأنبياء والرسل.

وذكَّر كتابُ الله بأنواع العذاب التي أصابت في الدنيا طائفة من الأمم الخالية، جزاءَ كُفرها وعنادها، فبادَت واندَثرت ولم يبق لها أيُّ أثر: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾، ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُوتَفِكَـٰتُ بِالْخَاطِئَةِ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾.

ووصَف كتـابُ الله أهوال السـاعـة، ومـا يصيب الأرض والسماء عند حلولها من ظواهر كونية خارقة للعادة، تُؤدّي إلى

انقلاب في العالم عُلْوِيِّه وسُفْلِيِّه، ولا يبقى على ما هو عليه إلاّ عرشُ الله ووجهُه الكريم، ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانشَقَّتِ السَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَالْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾، فما على عقلاء المومنين إلاّ أن يحسُبوا لهذا اليوم ألف حساب، وأن يتفانوا في العمل الصالح ويُقدّموا بين أيديهم ما يستحقون به عند الله الأجر والثواب.

الربع الثالث من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ
بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ
حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا
دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾
وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾
وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى
مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ
صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾
إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾
فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ
إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ
لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ
كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ

عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ
الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى
الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِّنَ اللَّهِ ذِي
الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ
أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧)
يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠)
يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١)
وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةٌ لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ
وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ (١٨) إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ
جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ
صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ
وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ

عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ
هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾
وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ
قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ
فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾
عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ
أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

الربع الثالث من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قولُه تعالى في سورة «الحَاقَّة» المكية: ﴿ فَأَمَّا مَنْ اوتِيَ كِتَٰبَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾، ونهايتُه قولُه جلّ علاه في سورة «المعارج» المكية أيضاً: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُّدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلَّا، إِنَّا خَلَقْنَٰهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾.

في بداية هذا الربع يواصلُ كتاب الله وصفَه لمشاهد القيامة، وما يكون عليه أصحاب اليمين وأصحاب الشِّمال، ويشيرُ إلى أنَّ من أُوتي كتابه بيمينه يدرك لأول وهلة أنه ممن كُتِبت لهم السعادة، فيتناولُ كتابه هَاشّاً بَاشّاً، ولا يَخجَل من أن يَعرضَه على إخوانه السعداء من أهل الجنة المُكْرَمين، مؤكِّداً أنه كان على يقين بحساب الله وجزائه، ولم يكن يُداخِلُه أدنَى شك في عقيدة البعث والحياة الآخرة، ولذلك يُكرِمُه الله تعالى بالعيش الطيب في الجنة، ويُنعم عليه بكل ما تشتهيه الأَنفس وتَلَذُّ الأَعين، جزاءً وفاقاً لما أَسلفهُ من العمل الصالح في حياته، وما كان عليه من

طاعة الله والسعي في مَرْضاته، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾، أي: كنتُ موقِناً بأن هذا اليوم قادم لا محالة، ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾، أي: عيشة مرضية، ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾، أي: ثمارها سهلة للقطف. وقولُه تعالى: ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾، حكايةٌ لخطاب التكريم والامتنان، الذي يوجِّهُه إليهم ملائكةُ الرحمان من خَزَنَة الجِنان، بينما أصحابُ الشِّمال بمجرد ما يُؤتَوْنَ كتابَهم بشِمالهم، يدرِكون أنهم من الأشقياء المعذَّبين عند الله، وفي الحين تنطق ألسنتُهم بما يعبر عن دخائل نفوسهم، إذ يتمَنَّون، وما تنفعهم الأماني، لَو أنهم لم يُوتَوا أيَّ كتاب، ويتمنَّوْن لو أنهم لم يَعرِفوا أيَّ حساب، ويتمَنَّون لوْ أنهم ماتُوا مَوْتَة واحدة لا حياة بعدها ولا عقاب، وذلك ما يُشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾.

ويفاجَأُ أصحابُ الشِّمال بالحقيقة المؤلمة التي لم يكونوا ينتظرونها ولا يحسُبون لها أيَّ حساب، وهي أن «مَالَهم» الذي كانوا يتبجحون به على الفقراء، «وسُلطانَهم» الذي كانوا يَسْتَعْلُون به على الضعفاء، لا يُغنيان عنهما من الله شيئاً، فالآخرة إنما هي «دارُ الجزاء» على العمل: الجزاء بالثواب على العمل الصالح، والجزاء بالعقاب على العمل الفاسد، ولا عبرةَ فيها بما تواطأ عليه الناس من الاِعتبارات السطحية، والقِيم الوهمية، وذلك ما ينطق

به لسانُ الشقي من أصحاب الشِّمال إذ يقول: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ، هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَـهْ ﴾.

ثم يصفُ كتابُ الله ما يَصدُر إلى خَزَنَة جهنم من الأَوامر الإِلَهية الرهيبة، بشأن كل واحد من أصحاب الشِّمال الضالين المُضِلين، إذ يقال لهم: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾، أي: ضعوا في عنقه الأغلال، ﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾، أي: اغمرُوه في جهنم من قِمّة رأسه إلى أَخمَص قدمَيْه، ﴿ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾، أي: أَدْخِلوه.

ووضَّحَ كتابُ الله أَن عقاب الله لأصحاب الشِّمال إِنما هو عقاب عادل، لا غبار عليه، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ (الكهف: ٤٩)، فقد كانوا فُرادَى وجماعاتٍ ينكرون حقيقة الحقائق، وهي الإيمان بالله، وكانوا يُنكرون كل ما لله من صفات العظمة والكمال، ومظاهر الجلال والجمال، وكانُوا حَجَر عَثرة في طريق انتشار دعوته، وتبليغ رسالته، وحَرْباً على كُتُبه المنزلة وشريعته، وكانوا عنصرَ فساد وتخريب في الأرض، لا يؤدون لعيال الله وعبيده أَيَّ حق، ولا يُقدِّمون إليهم أَيَّ عَون مما آتاهم من الرزق، وإلى «حيثيات هذا الحكم الإِلَهي العادل»، الذي صدرَ بعقاب أَصحاب الشِّمال يُشير قوله تعالى هنا: ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾، أي: أنه كان لا يؤدي حقوق الله ولا حقوق الناس، ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴾، أي: ليس له من صديق حميم يستطيعُ أَن يُخلِّصه ويُنقذه من عذاب الله، أَو يتطوعُ بالنيابة عنه في تحمل العقاب

المحكوم به عليه، ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾، و«الغِسلين» شرُّ طعام أهل النار كما فسره قتادة.

وانتقلت الآياتُ الكريمة إلى دعوة الناس أجمعين للإيمان بكتاب الله المنزل من عنده، والاهتداء بهديه، مؤكدةً أنَّ ما احتوى عليه كتاب الله من عقائدَ وآداب، وشرائعَ وشعائر، وحقائقَ كونية ونفسية، هو حقُّ اليقين، ولُبُّ الحكمة، وأَصْدَقُ العلم. وأبطلت الآياتُ الكريمة ما يُلفِّقُه المشركون ومن لَفَّ لَفَّهم من اتِّهام الرسول بالشعر والكِهَانة والافتراء على الله، وأكَّد كتابُ الله أنه لو تجرأ أيُّ رسول على الله وتَقوَّل عليه لعاقبه الله عقاباً شديداً لا يعاقِب به غيرَه من العالمين، وللتدليل على صِدق هذه الحقائق بأقوى الدلائل أقسمَ الحقُّ سبحانه وتعالى بكل ما خلَقَه في كونه، من محسوس وغير محسوس، من منظور وغير منظور، في عالَم الغيب وعالَم الشهادة، فقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، أي: أنه قولٌ صادر من الله يَقوم بتبليغه إليكم رسولٌ كريم، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾، أي: لا يَقدرُ أحدٌ منكم أن يحولَ بينه وبين عقاب الله، لو تَقوَّلَ على الله. ﴿وَإِنَّهُ﴾، أي: كتابَ الله، ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ، وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، أي: أن كتاب الله يثير في نفوس الكافرين، وهم في الدنيا، مشاعرَ الأسى والحسرة على ما

هم غارقون فيه من الأوحال، كما يكون عليهم حسرةً في الآخرة، بما ينالهم من عذاب الله، طبقاً لما هو مسجل في كتاب الله: ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾، أي: أنه هو الخبر الصادق، والشرع العادل، والعقيدة الصحيحة.

وخُتِمت سورة «الحاقة» المكية بالأمر بتسبيح الله، وتنزيه اسمه وصفاته عن كل نقص أو عيب، فقال تعالى مخاطباً لنبيه وللمومنين عن طريقه: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ اَلْعَظِيمِ ﴾.

ومن هنا ننتقلُ إلى سورة «المعارج» المكية أيضاً، وتبتدىء هذه السورة الكريمة بالحديث عن البعث والنشور والحساب والعقاب، وأُطلِق عليها اسم سورة «المعارج» لورود كلمة «المعارج» في الآية الثالثة منها: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَالَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِّنَ اَللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾، أي: تساءلَ سائلٌ عن العذاب المنتظَر، يستَعجِل به لماذا لم يَنزِل عليه في الحِين، على حَدِّ ما وردَ في قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُّخْلِفَ اَللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ (الحج: ٤٧)، وما ورد في قوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ اَلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ اَلسَّمَآءِ اَوِ اِيتِنَا بِعَذَابٍ اَلِيمٍ ﴾ (الأنفال: ٣٢).

وقولُه تعالى: ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾، أي: معارج السماء، كما قال مجاهد، أو المَرَاقى في السماء كما قال الحسن.

وقوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَٰئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾، الضميرُ هنا

يعود على الله، والمراد عرشُه، أي تصعد الملائكة إلى العرش، كما تصعد أرواح بني آدم إليه عند قبضها حين الموت.

وقولُه تعالى: ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾، إما أن يكون إشارةً إلى يوم القيامة، وما فيه من طُول الموقف والشدائد والأهوال، وإمَّا أن يكون إشارة إلى مُدّة اليوم الذي يَعرُج فيه المَلَك، وأن مقدارَ مسافته لو عَرَجه آدميٌّ خمسُون ألفَ سنة، من أيام البشر، ونسبَ أبُو حيان هذا القول إلى «ابن عباس وابن إسحاق وجماعة من الحذاق منهم القاضي منذر بن سعيد». وسبق في سورة «الحج» ذكرُ اليوم الذي يعدل بألف سنة، حيث قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (الحج: ٤٧)، وبهذا يكون كِلَا اليومين من الأيام التي لا تندرج في عداد «أيام البشر»، إذ حساب أيام البشر تابع للزمان المعتاد بينهم، والمعهود عندهم، وهذه أيام أخرى ليست من جنس أيامهم، ولله في خلقه شؤون.

ودعا كتابُ الله الرسولَ عليه السلام إلى المزيد من الصبر، ومن «الصبر الجميل» الذي لا شكوى معه ولا يأس ولا قنوط، فقال تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿ فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً ﴾.

ثم عادتِ الآياتُ الكريمة إلى وصف يوم القيامة وأهواله، وما يقع فيه للمخلوقات من اضطراب وتَناكُر، وحرص كلِّ فردٍ على النجاة بنفسه إن استطاع النجاة والخلاص، ناسياً كلَّ الروابط التي كانت تربطه بغيره، وَمتجاهلاً كل العلاقات التي كانت تجمَع

بينه وبين أقربائه وأصدقائه، فالكل يقول: «نفسي نفسي»، ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً يُبَصَّرُونَهُمْ﴾، أي: لا يسألُ صديق عن صديق، ولا قريب عن قريب، وإن كان يراه في أسْوأ الأحوال، إذْ هو مشغول بنفسه قبل كل شيء، ومعنى «المُهْل» ما أُذيب من المعادن، مثل مُذاب الذهب، أو مُذاب الفضة، أو مُذاب النحاس والرّصاص والحديد، وسبق في سورة (الدخان: ٤٣، ٤٦)، قولُه تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومُ طَعَامُ الْاَثِيمِ كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِى الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾، ومعنى: «العِهْن» الصوف المصبوغ الذي تُطيِّره الريح إذا كان «مَنفُوشاً»، وسيأتي في سورة (القارعة: ٥)، قولُه تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾، ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِى تُـْوِيهِ وَمَن فِى الْاَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ تَدْعُواْ مَنَ اَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾، أي: أن النار تدعُو إليها الكافرين والمجرمين، الذين يُحاولون الفرار منها، كما تدعو الأغنياءَ والمُترَفين الذين كانوا يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، ويَمنعُون الفقراء من حق الله.

ثم تحدث كتابُ الله عن بعض الصفات اللاصقة بالإنسان إذا كان فارغ من الإيمان، ذلك أنه يكون «هَلُوعاً جَزُوعاً» إذا مسه الشر، و«بخيلاً مَنُوعاً» إذا ناله الخير، بخِلاف المومن الذي هو على صلة دائمة بالله، عن طريق الذكر والصلاة، فإنه يكون محافظاً على حقوق إخوانه المومنين يؤديها لهم، كما يؤدي ما

عليه من حقوق الله سواء بسواء، وبهذه المناسبة تناولت الآيات الكريمةُ بالشرح والتحليل تعدادَ صفات المومنين، وما يميّزُهم عن غيرهم من الكفار والمنافقين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلانسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعاً اِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً اِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ٱلذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ وَالذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ اِلدِّينِ وَالذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَامُونٍ وَالذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمُ أَوْ مَا مَلَكَتَ اَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ اِبْتَغىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالذِينَ هُم بِشَهَـٰدَتِهِمْ قَآئِمُونَ وَالذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُوْلَـٰئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾.

وتساءل كتابُ الله مرةً أخرى، مُنكراً على الكفار والمشركين ما هم عليه من عناد ونفور، واستكبار وغرور، رغماً عما يقرَع أسماعهم، ويزعزِع كيانهم، من آيات الله البينات، وما يشاهدونه كل يوم على يد رسوله من المعجزات، ﴿فَمَالِ اِلذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾، أي: ما لهؤلاء الكافرين نافرين، ﴿عَنِ اِلْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾، أي: متفرقين يميناً وشمالاً، معرضين مستهزئين، ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِيءٍ مِّنْهُمْ أَن يُّدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾، أي: أيطمع كل واحد من هؤلاء الفارّين المستهزئين المغرورين أن يَدخل الجنةَ وهو على ما هو عليه، عناداً للحق، وإصراراً على الكفر، ثم يُجيب كتابُ الله ردّاً على ما يتمنونه من الأماني الفارغة: ﴿كَلَّا﴾، أي: لا سبيل لهم إلى دخول الجنة أبداً،

﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾، أي: أنهم يعرفون من أي شيء خلقناهم، فلا مفرَّ لهم من الاعتراف بالخالق الذي خلقهم، والمُبدِع الذي أنشأهم، ولا سبيل لهم إلى الجَنة إلّا سلوك الطريق الوحيدة المؤديةِ إليها، ألَا وهي طريق الإيمان بالله وبكتبه ورسله واليوم الأخر، ولا سيما الإيمان بالذكر الحكيم، والتصديق برسالة خاتم الرسل عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. وقولُه تعالى هنا: ﴿ فَمَالِ الذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾، يُشبه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ (المدثر: ٤٩).

الربع الأخير من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ
وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي
يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾
خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾
قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾
يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ
لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ﴿٥﴾
فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ
جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ
وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ

وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ٩ فَقُلْتُ اُسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ١٠
يُرْسِلِ اِلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً ١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ
جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمُ أَنْهَٰراً ١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَاراً ١٣ وَقَدْ
خَلَقَكُمُ أَطْوَاراً ١٤ اَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اَللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقاً ١٥
وَجَعَلَ اَلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ اَلشَّمْسَ سِرَاجاً ١٦ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ
اَلَارْضِ نَبَاتاً ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمُ إِخْرَاجاً ١٨ وَاللَّهُ جَعَلَ
لَكُمُ اُلَارْضَ بِسَاطاً ١٩ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ٢٠ قَالَ نُوحٌ
رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِے وَاتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً ٢١
وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً ٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وُدّاً
وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ٢٣ وَقَدَ اَضَلُّواْ كَثِيراً
وَلَا تَزِدِ اِلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلاً ٢٤ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمُ أُغْرِقُواْ
فَأُدْخِلُواْ نَاراً فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ اِللَّهِ أَنصَاراً ٢٥
وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى اَلَارْضِ مِنَ اَلْكٰفِرِينَ دَيَّاراً ٢٦
إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِراً
كَفَّاراً ٢٧ رَّبِّ اِغْفِرْ لِے وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُومِناً
وَلِلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ اِلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَاراً ٢٨

الربع الأخير من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الأخير من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «المعارج» المكية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَٰرِقِ وَالْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، إلى قوله جلّ علاه في ختام سورة «نوح» المكية أيضاً: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُومِناً وَلِلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَاراً﴾.

في بداية هذا الربع يؤكد كتابُ الله أن للقدرة الإلّهية من إمكانات الخلق والإبداع على غير مثال سابق، ما يشمَل الكون كلَّه من أدناه إلى أقصاه، إذِ الحقُّ سبحانه وتعالى هو ربُّ المشارق وهو رَبُّ المغارب على تعددها، والكل منه وإليه، ولن يُعجِزَه ما قَدَّرهُ من المَعاد والبعث والنشور، كما يزعم المشركون، الذين سيطر عليهم الجهل والغرور، بل إنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يعيدهم بنفس الأجساد التي كانوا عليها في الدنيا، وقادرٌ على أن يُبدِّلهم من أجسادهم في الدنيا أشكالاً أُخرى خيراً منها في

الآخرة، وما دام الحقُّ سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان على غير مثال سابق، وهو سبحانه غيرُ مسبوق بغيره في خَلق الإنسان وإبداعه، فأمرُ إعادة الإنسان بعد موته شيء يَسِير وَهَيِّن بالنسبة لقُدرته وحِكمته، ولا حاجة إلى القَسَم عليه، وإلى هذا المعنى يُشير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَٰرِقِ وَالْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، وإلى هذا المعنى ينظر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ، وَنُنْشِئَكُمْ في مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة: ٦١).

وهناك تفسيرٌ آخر لقوله تعالى: ﴿أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ﴾، بمعنى أن نخلق بدَلَهم أمة أُخرى تطيعُ الله ولا تعصيه، وتُصدِّق بيوم الدين ولا تشُكُّ فيه، على غِرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَايَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ (محمد: ٣٨)، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (إبراهيم: ١٩). وهذا التفسير الأخير، هو الذي اختاره ابن جرير.

واتَّجهَ الخطابُ الإلّهي إلى الرسول عليه السلام، آمراً له بالإعراض عن المشركين والكافرين، بعد أن بلَّغ الرسالةَ إليهم، وأقام الحجة عليهم، مُبيِّناً أنَّ من اختار منهم الضلال على الهدى والكفر على الإيمان، سيلقى جزاءَه مقروناً بالذلة والهَوان، وذلك ما يشير إليه قولُه تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ الذِى يُوعَدُونَ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ اَلَاجْدَاث سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نَصْبٍ يُوفِضُونَ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ اَلْيَوْمُ الذِى

كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾، ومعنى «يُوفِضُون» يُسرِعون، و«النُّصْب» ما نُصِب للإنسان من عَلَم أو بناء أو صَنم، فهو يقصده مُسرِعاً إليه.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «نوح» المكية أيضاً، وفي بدايتها يتحدث كتابُ الله عن الرسالة الأولى التي كلَّف الله بها رسوله نوحاً عليه السلام، وما دعاهم إليه من عبادة الله وتقواه، وما حضَّهم عليه من طاعة الله ورسوله لنيل غفرانه ورضاه، وما حذَّرهم منه من حلول الأَجل وهم غافلون، وحلول النِّقمة وهم مستكبِرون، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَٰنِ اِلرَّحِيمِ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً اِلَىٰ قَوْمِهِ أَنَ اَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ اَنُ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرِ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى اِنَّ أَجَلَ اَللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾، ففي هذه الآية يؤكد كتابُ الله لرسوله والمومنين والناس أجمعين، أَنَّ مَصدر الرسالة، ومَنبَعها الأَول والأَخير، كان ولا يزال في جميع العهود، وبالنسبة لجميع الأنبياء والرسل، من عهد نوح عليه السلام إلى عهد سيدنا محمد خاتم النبيئين والمرسلين، هو الله تعالى خالق الخلق ومَصدرُ الوجود، فهو الذي خلق الخلق وأَرسل إليهم الرسل، لهدايتهم إلى سَواء السبيل، وهو الذي كلَّف رسلَه جميعاً بالدعوة إلى عبادة الله وتقواه، وإلى طاعة رُسُله فيما يُبلِّغونه عن الله: ﴿ اَنُ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾، لكنَّ قومَ نوح لم تزدهم دعوة رسولهم إلاّ عناداً واستكباراً، ولم يزدهم إلحاحُه على هدايتهم، وحرصُه على إنقاذهم، إلاّ نفوراً منه وفِراراً، وأَصرُّوا

على كفرهم إصراراً، رغماً عن كل ما بذله نوح عليه السلام من محاولات طويلة ومُضنية لإصلاح حالهم، وما عرَض عليهم من وعْد الله حيناً ووعيده حيناً، ورغماً عما لَفت أنظارَهم إليه من دلائل القدرة الإلّهية، وآثار الحكمة الربانية، في آفاق الكون الظاهرة، وآفاق النفس الباطنة، وإلى ذلك يشير قوله تعالى حكايةً على لسان نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىَ إِلَّا فِرَاراً وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِى ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْبَاراً ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰراً مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾.

ومما يجبُ التنبيهُ إليه في هذا المقام أنَّ «أُسلوب الدعوة» الذي حكاه كتابُ الله عن نوح عليه السلام لا يختلف في شيء عن أُسلوب الدعوة الذي استعمله خاتمُ النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما أن الحُجج والبراهين الكونية والنفسية التي كان نوح يُقارِعُ بها قومَه هي نفس الحُجج والبراهين التي واجَهَ بها رسولُ الله مُشركي قريش ومَن لَفَّ لَفَّهم،

وسلَك طريقهم، مما يُوضِّحُ لكل ذي عينين أَنَّ طبيعة الرسالة الإلَهية واحدة، وأَنَّ مصدر الوحي الإلَهي واحد، وأَن الشُّبَه التي تَعرِض لِقصَارِ النظر، والضلالات التي يقعُون فيها، على تَبَاعُد ما بين العصور والأَجيال، هي شُبَهٌ وضلالاتٌ متقاربة، إن لم تكن متماثلةً في أَغلب الأَحيان، وكما أَنَّ الداء البشري واحد، فالدواءُ الإلَهي واحد.

وبعد ما قامَ نوح عليه السلام بتبليغ الرسالة عن ربه، واستعمل مع قومه جميعَ وسائل الترغيب والترهيب، وقضى أَكبرَ قسم من حياته الطويلة في أَداء الواجب دون الوصول معهم إلى جَدْوَى أَخذ يستعيذُ بالله من كفرهم وعصيانهم، ويبرأُ إليه من مكرهم وعدوانهم، وذلك ما يحكيه عنه قولُه تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَاتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً ﴾، أي: مكراً كبيراً وعظيماً.

ووصف كتابُ الله الدعوة الضالة المضِلة التي كان يقوم بها قوم نوح لإفساد الناس، وتحريضهم على الاِستمساك بالشرك والوثنية، والتزام عبادة الأصنام، كما وصف كتابُ الله أَثَر دعوتهم الضالة في النفوس، واستيلاءَها على الأَفكار، فقال تعالى حكايةً عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وُدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً وَقَدَ اَضَلُّواْ كَثِيراً ﴾.

وهذه الأَصنام وغيرها قد استمرت تقاليدُ عبادتِها إلى حين ظهور الإسلام، إِذِ انتقلت عَدْوَاهَا من قوم نوح إلى العرب، فكان لقبيلة كلب صنمٌ يُدْعَى «وُدّاً»، وكانَ لقبيلة هذيل صنم يدعَى

باسم «سُوَاع»، وكان لقبيلة مراد ثم لبني غطيف صنم يُدعَى باسم «يَغُوث»، وكان لقبيلة همدان صنم يُدعى باسم «يَعُوق»، وكان «نسر» صنماً لقبيلة حِمْير.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَدَ اَضَلُّواْ كَثِيراً﴾، إشارةٌ إلى هذا المعنى، إذْ أنَّ السابقة الخبيثة والسنة السيئة التي سنّها قوم نوحٍ قد انتقلت عدواها منهم إلى غيرهم من البَشر، ولا تزال عبادةُ الأصنام قائمةً إلى اليوم في عدة شعوب أضلَّها سادتُها وكبرَاؤها، ولولا أنْ مَنَّ اللَّهُ على البشرية بالإسلام لكان كثيرٌ من أبنائها حتى اليوم غارقاً في عبادة الأصنام، وإلى تقرير هذه الحقيقة نفسِها يشيرُ دعاء إبراهيم الخليل بعد نوح عليهما السلام، فقد حكَى الله تعالى عن إبراهيم قولَه في دعائه: ﴿وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ اَلاَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ اَلنَّاسِ﴾ (إبراهيم: ٣٥، ٣٦).

ثم أخذت الآياتُ الكريمة تُسجِّل أدعية نوح على الضالين المُضِلين من قومه، بعد أنِ استفرغَ جُهدَه في هدايتهم، واستنفدَ طاقتَه في دعوتهم، ولم يَصِل معهم إلى أية نتيجة مُرضِية، وذلك قولُه تعالى حكايةً عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَا تَزِدِ اِلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلاً﴾، وقولُه تعالى حكايةً عنه أيضاً: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى اَلاَرْضِ مِنَ اَلْكَـٰفِرِينَ دَيَّاراً﴾، أي: لا تُبقِ منهم أحداً على وجه الأرض.

وبينت الآيات الكريمةُ أن الله قد استجاب دعاء نوح عليه

السلام، فأهلك جميعَ من كان على وجه الأرض من الكافرين وأغرقهم، ولم يستثنِ منهم أحداً حتى ولدَ نوح من صُلبه، الذي كان اعتزل عن أبيه، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَٰفِرِينَ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ﴾، فردَّ عليه أبوه نوحٌ قائلاً: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾، ولم يجدْ ولدُ نوح وسيلة للخلاص من العذاب، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾، وإنما نجَّى اللَّهُ سفينة نوح وحدَها بمن فيها من أصحابه المومنين، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ﴾. وإلى إغراق قوم نوح في الدنيا وعذابهم في الآخرة يُشير قوله تعالى هنا: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً﴾.

على أن الدافع الذي دفع نوحاً عليه السلام إلى الدعاء على قومه بالإبادة والهلاك لم يكن مجرَّدَ الرغبة في الِانتقام منهم، على عدم استجابتهم إلى دعوته، وعدم إيمانهم برسالته، وإنما كان دعاؤه عليهم اقتناعاً منه بأنهم قد بَلَغوا في الانحراف والفساد والضلال، إلى حد أنه لم يبق أيُّ أَمَل في هدايتهم، ولا أَدْنى رَجاء في إصلاحهم، فقد أُصبح مرضُهم مُزمِناً وداؤُهم عُضالاً، والعُضْوُ المُتآكِلُ لا ينفع فيه إلاّ البَتْر، «وآخِرُ الدَّوَاء الكَيُّ» وإلى هذا المعنى المُبَرِّر لدعاء نوح عليه السلام على قومه، يشيرُ قوله تعالى حكايةً عنه وهو يخاطب ربَّه قائلاً: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾.

وبعدما عرض كتابُ الله دعاءَ نوح على الكافرين، نقَلَ إلينا صورةً حيّةً من دعائه للمومنين إلى يوم الدين، وفي نقل القرآن لهذه الصورة من الدعاء الصالح توجيهٌ وإرشادٌ إلى كيفية الدعاء، وإلى صيغته وآدابه، وإلى من يستحق الدعاء له بالخير ومن لا يستحقه، وذلك قوله تعالى حكايةً عن نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِى مُومِناً وَلِلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَـٰت وَلَا تَزِدِ الظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَاراً﴾، أي: لا تزد الظالمين إلّا هلاكاً وخساراً.

الربع الأول من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلُ اوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اِسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ اَلْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾
يَهْدِي إِلَى اَلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَإِنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ
رَبِّنَا مَا اَتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اَللَّهِ
شَطَطًا ﴿٤﴾ وَإِنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ اَلِانسُ وَالْجِنُّ عَلَى اَللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾
وَإِنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ اَلِانسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ اَلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾
وَإِنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمُۥ أَن لَّن يَبْعَثَ اَللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَمَسْنَا اَلسَّمَآءَ
فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا
مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ اِلَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَإِنَّا
لَا نَدْرِي أَشَرٌّ اُرِيدَ بِمَن فِي اِلَارْضِ أَمَ ارَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾
وَإِنَّا مِنَّا اَلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَإِنَّا ظَنَنَّا
أَن لَّن نُّعْجِزَ اَللَّهَ فِي اِلَارْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَإِنَّا لَمَّا سَمِعْنَا

ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ﴿١٣﴾
وَإِنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ
رَشَدٗا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ﴿١٥﴾ وَأَن لَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ
عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن
يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ نَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ
فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴿١٨﴾ وَإِنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ
يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴿١٩﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٠﴾
قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ﴿٢١﴾ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ
ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ ۞
وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ
أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ
نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ﴿٢٤﴾ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ
أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ
أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ
يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ
رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾
أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾
إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا
طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ
هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾
إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ
تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ
رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ
الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا
يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾
إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

الربع الأول من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قوله تعالى في فاتِحة سورة «الجن» المكية: ﴿ بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَٰنِ اِلرَّحِيمِ قُلُ أوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ اَلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَاناً عَجَباً يَهْدِى إِلَى اَلرُّشْدِ فَئَامَنَّا بِهِ وَلَنْ نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَداً ﴾، ونهايتُه قوله جلّ علاه في سورة «المُزَّمِّل» المكية أيضاً: ﴿ اِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اَتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾.

تستغرق سورةُ «الجن» المكية أَكبر جزء من هذا الربع، وإنما سميت باسم سورة «الجن» لِمَا ورد فيها من الإِخْبار باستماع نفر من الجن إلى كتاب الله، وما كان له من وَقْع عـظيم في نفوسهم، وتَأثِير قويّ على مشاعرهم.

وهذه السورة الكريمة توضِّحُ عدة حقائق كانت قبل نزول القرآن مجهولة عند العرب وغيرهم من الأُمم.

ـ الحقيقةُ الأولى: أَنَّ عالَم الجن يُشابِه عالَم الإنس في الاِستعداد للخير والشر، وأنه يمكن أن يَختار الهدَى فيكون من

المهتدين، وأن يَختار الضلال فيكون من الضالين، اللهمّ إلاّ إبليس اللعين الذي طرده الله من رحمته، فأقسم على أن يُغوي الناس أجمعين، وإلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى هنا في سورة «الجن»: ﴿ وَإِنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾، ﴿ وَإِنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾.

ـ الحقيقةُ الثانية: أن عالَم الجن لا سلطة له على عالَم الإنس، وأن مخاوف الناس من الجن ترجع إلى أسباب وهمية أكثر مما ترجع إلى حقيقة واقعية، وهذا ردٌّ على مشركِي قريش ومن لَفَّ لَفَّهم من العرب وغير العرب، الذين كانوا يعتقدون أنَّ للجن سلطاناً على الأرض، وأنَّ لهم قدرة على النفع والضر، حتى كان الواحد منهم إذا نزل بوادٍ أَوْ قَفْرٍ استعاذَ «بعظيم الجن» الذي يَعتقِد أنه حاكمٌ في تلك الأرض قائلاً: «أعوذ بسيد هذا الوادِي من سفهاء قومه»، بَينما الجن لا ينفعون الإنس حين يلوذُون بهم، بل يزيدون في إرهاقهم ما داموا يعوذون بهم ولاّ يستعيذُون بالله، وإلى هذه الحقيقة يُشير قوله تعالى هنا في سورة «الجن»: ﴿ وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾.

ـ الحقيقة الثالثة: أنَّ عالَم الجن لا يعرف من «علم الغيب» شيئاً، وأن علم الغيب مَقْصُورٌ على الله تعالى وحده، وهذا إبطال لِمَا كان شائعاً في الجاهلية، ولا يزال شائعاً حتى اليوم في أوساط الجهال، من أنَّ الجن تطَّلِع على الغيب وتُخبر به الكُهَّان والعَرَّافين، فذلك إنما هو محض ادِّعاء وافتراء على الله، ولا سيما

بعد نزول كتاب الله، حيث لم يعد «استراقُ السمع» ممكناً، وإلى هٰذِهِ الحقيقة يشير قوله تعالى هنا في سورة «الجن»: ﴿وَإِنَّا لَمَسْنَا اَلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً، وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَّسْتَمِعِ اِلآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً وَإِنَّـا لَا نَدْرِى أَشَرٌّ اُرِيدَ بِمَن فِى اِلَارْضِ أَمَ اَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾، وبذلك أبطل كتابُ الله الكهانة والعِرافة من الأساس، وأعلن تحرير العقل البشري من هذا الوسواس.

ـ الحقيقة الرابعة: أَنَّ عالَم الجن الذي وُجِدَ بين الناس مَن يعبدُه من دون الله، ووُجِد بين مشركِي العرب مَن ينسبُ إلى الله سبحانه أنه اتخذ من بين أفراده زوجة هي التي تلد له الملائكة، تعالى الله عن ذلك علّواً كبيراً، هو نفسه يُكذِّب هذا الادِّعاء، ويُسَفِّه هذا الاِعتقاد، مُنكِراً على من يعبدون الجن عبادتَهم، ومنكِراً على مَن ينسبون الزوجة والولد إلى الله نِسبتَهم، وإلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى هنا في سورة «الجن»: ﴿ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً وَإِنَّهُ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اَتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلاَ وَلَداً﴾.

ـ الحقيقة الخامسة: أَنَّ عالَم الجن يعترفُ بعجزِهِ وقصورِهِ وضعف حِيلته أمامَ قدرة الله، وبذلك يُبَيِّن لمن يستعين بهم من الإنس، ولمن يجعل بينهم وبين الله نَسَباً مثل مشركِي قريش، أن القوةَ الوحيدة والغالبة والمتصرِّفة في الكون هي قوةُ الله وحده دون سواه، باعتراف الجن أنفسِهم، فالكل مقهورٌ لقدرته، ولا يستطيع الفِرار من قبضته، وإلى هذه الحقيقة يشير قولُه تعالى هنا في

سورة «الجن»: ﴿ وَإِنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَباً ﴾.

وبعدما بَيَّنَّا الحقائق التي تحتوي عليها سورة «الجن» المكية فَلْنَتَناول الآيات الكريمةَ الواردةَ في هذا السياق على التتابُع.

فقوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾، إشارةٌ إلى إخْبار الله لِرسوله بأن طائفة من الجن ـ والطائفة ما بين الثلاثة والتسعة ـ وهذا هو «النفر» ـ قد اسْتَمَعت إليه وهو يُرَتِّل كتاب الله أثناء صلاته بالمسلمين. وقد أَكَّد ابنُ عباس أن النبي ﷺ ما قرأ على الجن ولا رَآهم بنفسه أبداً، وإنما أخبره اللَّهُ باستماعهم إلى تلاوته لا غير، قال شيخ الإسلام المصلح الكبير المرحوم السيد محمد الخضر حسين في تعليقه على «موافقات الشاطبي»: «مضى صدر الإسلام، وليس من مُدَّعٍ رؤيةَ الجن، أو التلقيَ عنهم، أو التزوج بهم، أو استحقاقهم لِأَنْ يُتقرَّبَ إليهم بالذبائح والأطعمة، حتى قام من يزعم ذلك كله، واتَّسع خَرق هذه الضلالة، فكانت إحدى العلل التي فتكت بعقول كثيرة، وأَلْقتْ بها في تَخَيُّلات سخيفة، ومزاعِمَ يتبرأ منها الشرع الحكيم، قبل أن يتهكم بها النظر الصحيح».

وقولُه تعالى: ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا عَجَباً يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾، حكايةٌ لوَقْع القرآن الكريم في نفوس هذا النَّفَر من الجن، وأَنَّهم وجدوه «عَجباً»، أي: على غير المألوف والمعهود في كلام الخَلْق، لأنه تحيطه هَالَة من الهيبة والجلال، وتنبعث منه

أَشعةٌ نورَانيَّة تخترق جميع الحُجُب، بوصفه «كلام الله»، وأَنهم وجدوه «يَهْدِي إلى الرُّشْد»، أي: يفتح الأَبصار، ويُنير البصائر، ويُوجِّه نحو الطريق السوِيّ في السلوك والمعاملة والتصرف، وأَنَّهم بعدما تأَثَّروا بأُسلوبه وروحه ومُحتواه لم يَسَعْهُم إلاّ الإِيمان به دون تردد: ﴿ فَئَامَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحداً ﴾.

وقولُه جلّ علاه: ﴿ وَإِنَّهُ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اَتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَداً ﴾، تنزيهٌ لله تعالى واعتراف بعظمته، وتقديرٌ له حَقَّ قَدْره، «فالجَدُّ» هنا بمعنى القَدْر والمَقَام، وهذه الآية تكذيب من مومِني الجن لمشركِي قريش فيما كانوا يعتقدونه من تناسل الملائكة عن الجن، ونسبةِ الصاحبة والولد، إلى الواحد الأحد، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَد.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اَللَّهِ شَطَطاً ﴾، استنكارٌ من مومِنِى الجن لِما يقولُه سفهاء الجن وكفـارهم من الافتراء على الله، نظير ما يقوله سفهاء الإِنس وكفارُهم.

وقـولُه تعـالى: ﴿ وَإِنَّا ظَنَنَّـا أَن لَّن تَقُـولَ اَلاِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اَللَّهِ كَذِباً ﴾، أي: ما حَسِبنا أَن الإِنس والجن يتمالَؤُون على الكذب والبهتان، فَيَنْسُبون لله ما يستحيلُ في حقه من الزوجات والولدان.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ اَلاِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ اَلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾، أي: إن الجن لما رأت أن الإِنس يَعوذون بهم لخوف الإِنس منهم زادُوهم تخويفاً وإرهاباً، وازدادت

الجِنُّ بذلك جُرأة على الإنس.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَداً ﴾، أي: إن أولئك الرجال من الإنسِ الذين كانوا يعوذون برجال من الجن ظنوا كما يظن كفار الجن أن الله لَن يبعث رسولاً عقب «الفَتْرة» التي مرت منذ بعثة عيسى عليه السلام، لكن ها هو الرسولُ قد بعثه الله، وها هو الكتابُ قد أنزله الله.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَّسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾. يفيد أن الجن كانوا خلال «عهد الفترة» بين رسالة عيسى عليه السلام ورسالة خاتِم الأنبياء والمرسلين يحاولون الاتصال بالملأ الأعلى لاِستراق السمع، لكن هذه المحاولة لم يبق لها مكان ولا إمكان، منذ بعث الله رسوله محمداً عليه السلام، وأنزل عليه القرآن، فالطريق إلى الملأِ الأعلى محروس بحَرَس شديد من عند الله، ويُحيط به خَطٌّ من الشُّهب المُوَجَّهة للحيلولة دون التطاول على أسرار علم الله.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾، اعترافٌ من مومِنى الجن بأنهم لا يعلمون الغيب، وأنهم تَبَعاً لذلك لا يعرِفون حكمةَ الله فيما أحَاط به مكنون السماء، من الحَرَس الشديد، والشُّهُب الثاقبة.

ومن اللطائف هنا ما في التعبير المحكى عنهم من الأدب مع الله، فقد أسندوا «الشَّرَّ» إلى المجهول، ولم يُبيِّنوا فاعله:

﴿ لَا نَدْرِىَ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى اِلْأَرْضِ ﴾، بينما أسندوا «الخَيْرَ» مباشرةً إلى الله تعالى: ﴿ أَمَ اَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّا مِنَّا اَلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَداً ﴾، تقريرٌ لأن عالَم الجن يُشبه عالَم الإنس، بما فيه من الاستعداد للالتحاق بركب الصالحين أو بغير الصالحين، فهم أيضاً مختلفون في الاتِّجاه والعمل، منهم الكافرُ ومنهم المومنُ.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ اَللَّهَ فِى اِلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَباً ﴾، إشارةٌ إلى إيمانهم بأَنَّ قدرةَ الله حاكمةٌ عليهم، وأَنَّهم حتى لو حاولوا الهروب منها لَمَا استطاعُوا إلى ذلك سبيلاً.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَمَّا سَمِعْنَا اَلْهُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُّومِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً ﴾، إعرابٌ عن إيمانهم بكتاب الله بعد سماعه. وعن اهتدائهم بهَدْيه، وعن ثِقَتهم بوعد الله الذي لا يَظلِم أحداً من عباده مثقالَ ذرة.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّا مِنَّا اَلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا اَلْقَـٰسِطُونَ فَمَنَ آسْلَمَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَداً وَأَمَّا اَلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾، تأكيدٌ لِأَنَّه يوجد بين الجن مومنُون وكافرُون. ومن اللطائف هنا التعبير عن «الكافر» بلفظ «قاسط» أي: ظالم، لِأَن الكفر يُجامع الظلم ويُمَاشيه، بينما وقع التعبير عما يقابل «القاسط» أي الظالم بكلمة «مسلم»، كأَنَّ لفظ «مسلم» مرادفٌ لِلَفظ «عادل»، وذلك إشارةٌ إلى أَن المسلم متى كان مُسلِماً حقاً لا يكون إلَّا مُلْتزماً للعدل مطبوعاً على الإحسان، عَدُوّاً للظلم والظالمين.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى الحديث عن الاستقامة وما يترتب عليها من الآثار الطيبة في الدنيا والآخرة: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَٰمُواْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّاءً غَدَقاً﴾، وإلى الحديث عن حُرمة المساجد وقداستها ورسالتها في الإسلام: ﴿وَأَنَّ الْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾، وإلى الحديث عما يتحمله رسولُ الله ﷺ من أذى المشركين وتكتُّلهم ضد الدين الحنيف: ﴿وَإِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾.

واتجه الخطاب الإلّهي إلى خاتم النبيين والمرسلين، مُلقِّناً إياه ما يَرُدُّ به هجماتِ المشركين، وما يُبطِل ادِّعاءاتِهم، ويُوقِف اعتداءاتِهم، مشيراً إلى ما يَحرُس به رسولَه من الحَفَظة الكرام، حتى يُبَلِّغ رسالة ربه في حفظ الله ورعايته: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «المُزَّمِّل» المكية، وفي مطلَعها أَمر من الله لرسوله عليه السلام بالقيام والخروج من دِفْء البيت إلى أكبر مُعترَك في الحياة، ألَا وهو أداءُ الرسالة، التي أعدَّته لها الأقدار الإلّهية، إلى الناس كافة، وذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ الَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾.

ومنذُ صَدَرَ هذا الأمر الإلَهي لخاتِم الأنبياء والمرسلين وهو قائم على قَدَم وساق يُبلِّغ الرسالة، ويُؤدِّي الأمانة، حوالَي ثلاث وعشرين سنة، دون ملَل ولا فتور، مُمْتَثِلاً أمرَ ربه بالصبر على أذى المكذِّبين، مُحذِّراً إياهم من عذاب يوم الدين: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً اَلِيماً يَوْمَ تَرْجُفُ اُلاَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ اِلْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾، ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً اِلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾.

وخُتِم هذا الربعُ بالإشارة إلى أَن هذه السورة، بما فيها من آيات بينات، إنما هي موعظةٌ لمن أراد أَن يتَّعظ، وتذكرةٌ لمن أراد أَن يتذكَّر، والسعيدُ كلُّ السعيد من اتَّعظَ وتذكر، وفكَّر في عاقبة أمره وتدبر، ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اَتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾.

الربع الثاني من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ الَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ
مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ
فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ
يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ
قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا
وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ
فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾
فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ
وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾

ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾
إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾
ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾
إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾
لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ
أَصْحَـٰبَ النَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا۟ الْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ
الَّذِينَ أُوتُوا۟ الْكِتَـٰبَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَـٰفِرُونَ
مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ
وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾
وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا
لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ
رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ
الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾
وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ
بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ الشَّـٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن
قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾
كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾
وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

الربع الثاني من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثاني من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «المُزَّمِّل» المكية: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ الَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الذِينَ مَعَكَ﴾، إلى قوله جلّ علاه في ختام سورة «المُدَّثِّر» المكية: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ وَمَا تَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَّشَآءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾.

تعود الآيات الكريمة في مطلَع هذا الربع إلى الحديث مرة أخرى عن «قيام الليل» الذي كان أوجبه الله على المسلمين في فجر الإسلام، وعلى رأسهم أولُ المسلمين سيد الأنام، عليه الصلاة والسلام، فقد اقتضت حكمةُ الله، إعداداً لنبيه، واختباراً للطائفة الأُولى من المومنين، أن يَفرض عليه وعليهم التهَجُّدَ بالليل، واستمرت هذه الفريضةُ ساريةَ المفعول مدةً غيرَ قصيرة، وإلى فرضها أشار قولُه تعالى في الرُّبع الماضي: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ الَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً نِّصْفَهُ أَوُ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً اَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾.

ورُوي عَن عائشة أَنها قالت: «إن اللَّهَ افترض قيامَ الليل في أول هذه السورة ـ تقصد سورة المُزَّمِّل ـ فقام رسولُ الله وأَصحابُه حَوْلاً، حتى انتفخَتْ أَقدامُهم، وأَمسكَ اللَّهُ خاتمتَها في السماء اثنَىْ عَشرَ شهْراً، ثم أَنزل اللَّهُ التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيامُ الليل تطوُّعاً، من بعد ما كان فريضة، وإلى هذا «التخفيف» وجعل قيام الليل تطوعاً بعد أن كان فرضاً يُشِير قولُه تعالى في هذا الربع الذي هو موضوع حديث اليوم: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ الَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ ﴾، قال ابن كثير: «وقد قال ابن عباس وعِكْرِمة ومجاهد والحسن وقتادة وغيرُ واحد من السلف إن هذه الآية نَسَختْ ما كان اللَّهُ قد أَوْجبهُ على المسلمين أَوّلاً من قيام الليل».

ورغماً عن إسقاط فريضة «التهَجُّد» فإن رسول الله ﷺ بقي يتهجدُ بالخصوص طَوال عهد الرسالة، إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، ولم يَقِلَّ قيامُه عن ثُلُث الليل، وكان ﷺ يُوتِر بإحدى عشرة ركعة، فلما تقدم به السِّنُّ أَخذ يُوتِر بسبع ركَعات، ثم يُصَلِّي ركعتين وهو جالس، كما روى عن عائشة رضي الله عنها، وذلك امتثالاً لقوله تعالى خطاباً لرسوله: ﴿ ومنَ الليل فتَهَجَّدْ به نافِلةً لكَ عَسَى أَن يَبعثك ربُّك مَقاماً محموداً ﴾. قالت عائشة: «كان رسول الله ﷺ يقرأ السورةَ فيُرَتِّلُها، حتى تكون أُطوَل من أَطْوَل مِنهَا»، وسُئلَت أُمُّ سَلَمة عن قراءة رسول الله، فقالت: «كان

يُقَطِّع قراءتَه آيةً آية: «بسم الله الرحمان الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمان الرحيم. مالك يوم الدين».

وقولُه تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾، أي: إنه سبحانه يُطِيل مِن هذا، ويُقصِرُ من ذاك فيطول الليل وَينقص، ويأخذُ هذا من هذا أَحياناً، ويعتدلان أحياناً، طِبْقاً للناموس الذي وضعَه الله لهما.

وقولُه تعالى: ﴿ عَلِمَ أَن لَّنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾، إشارةٌ إلى فرض قيام الليل، الذي كان اللَّهُ قد فرضه على المسلمين اختباراً لهم، وإن كان يعلمُ عجزَهم عن مُوالاة القيام به دَائِماً، وها هُوَ الحقُّ سبحانه يُخَفِّفُه عنهم، حتى لا يكونَ عليهم في الدين من حَرَج، ويشهد لمعنى هذه الآية قولُه تعالى في آية أُخرى: ﴿ اَلْـَٰنَ خَفَّفَ اَللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفاً ﴾ (الأنفال: ٦٦).

وقولُه تعالى: ﴿ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ اَلْقُرْءَانِ ﴾، إِذْنٌ من الله تعالى للمومنين بِأَن يكتفُوا بقراءة ما تيسر من القرآن، أَثناءَ صلاة الليل، وفَسَّر ابن كثير هذه الآية بمعنى: «قوموا من الليل ما تيسر» من غير تحديد، لا بثُلُثي الليل ولا بنصفِه ولا بثُلُثه».

وقولُه تعالى: ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى اِلْاَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اِللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ اِللَّهِ ﴾، إشارةٌ إلى حكمةِ الله في التخفيف عن المسلمين من فريضة قيام الليل، وجعلِ قيامه تطوُّعاً لا غير، فهنالِكَ

«مَرْضى» لا يسمح لهم مرضهم بقيام الليل، وهناك «مسافرون» يضربُون في الأرض، سعياً في طلب الرزق والتكسب بالتجارة، ابتغاءَ فضل الله، قد يَضطَرُّون إلى السفر لَيلاً فضلاً عن النهار، وهنالك «مجاهدون» يُنتظَر أن يُكَرِّسوا حياتَهم للجهاد في سبيل الله، قد تدعُوهم الضرورةُ إلى الانتفاع بالسُّرَى والمشي إلى ساحة الجهاد لَيْلاً، «وعند الصَّباح يَحمدُ القومُ السُّرَى» كما يقولُ المَثل العربي.

ثمّ عقَّب كتابُ الله على هذه الأَعذار الشرعية المعقولة وما ماثلَها، بإعادة أَمر «التَّخفيف» وتكريره مرةً أُخرى فقال تعالى: ﴿ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾، أي: الآنَ خففَ اللَّهُ عنكم، فخفِّفُوا إذَنْ على أَنفسكم، واكتفُوا بقِراءة ما تيسر من القرآن فيما تَيَسَّر من صلاة الليل، حسبما تسمح به ظروفُكم، دون مشقة زائدة ولا إرهاق. وكان الحسنُ البصري يرى أَنَّ من الواجب على حَمَلة القرآن أَن يقوموا بقراءة شيء منه في الليل.

ونَبَّه ابنُ كثير إلى أَن ذِكْرَ «القتال في سبيل الله» في هذه السورة المكية، ولم يكن القتالُ قد شُرِعَ بعد، يُعَدُّ من أَكبر دلائل النبوة، لِأَنه من بابِ الإِخْبار بالمُغيَّبات المستقبَلَة.

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾، يُفيد صدور الأمر الإِلٰهي للمسلمين بأَداء الصلاة مع إيتاء الزكاة مُنذ كانُوا بمَكة، وقبل أَن ينتقِلوا إلى المدينة، قال ابن كثير: «وهذا يدُلُّ لِمن قال إِنَّ فرض الزكاة نزلَ بمكة، لَكِنّ مقادير النُّصُبِ والمُخْرَجَ مِنها لم يُبيَّنْ إلّا بالمدينة، والله أعلم».

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّن خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اَللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً ﴾، أي: انَّ ما تقدمونَهُ بين أيديكم لآخرتكم تجدونـهُ عند الله خيـراً لكم ممـا أبقيتُم وراءَكم في دُنْيَاكم. رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّما مَالُ أَحدِكُمْ ما قَدَّم، وَمَالُ وارِثِه ما أَخَّر»، رواه البخاري في صحيحه والنسائي في سُنَنِـه.

وقولُه تعالى: ﴿ وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ إِنَّ اَللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، إشارةٌ إلى الأَثَر الطيب الذي يُثمِرهُ العملُ الصالح، فإنه طريق إلى غفران الله ونَيْل رضوانِهِ.

ولْنَنتقل الآن إلى سورة «المُدَّثِّر» المكيـة أيضـاً، مستعينين بـالله، وقد ثبَت في صحيح البُخاري عن جابر بْنَ عبدِ الله أنه كـان يقول: «أولُ شيءٍ نَـزَلَ من القرآن ﴿ يَـأَيُّهَا اَلْمُدَّثِّرُ ﴾، فقد سأله أبُو سَلَمة بن عبد الرحمن عن أول ما نَزَل من القرآن، فقال له: ﴿ يَـأَيُّهَا اَلْمُدَّثِّرُ ﴾، قال أبو سَلَمة: قلت: يقولُون: ﴿ اَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ اَلذِى خَلَقَ ﴾، قـال له جـابر: لاَ أُحَدِّثُكَ إلّا ما حدَّثَنا رسول الله ﷺ، ورواه مسلم أيضاً وفيه: أن جابر بن عبد الله سمع رسولَ الله ﷺ يُحَدِّثُه عَن فَترة الوحي، وأنه نزل عليه: ﴿ يَـأَيُّهَا اَلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرِّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾، ثم حَمِي الـوَحْيُ وتتابَـع. قال ابن كثيـر: «وخالفَ الجمهورُ جابرَ بنَ عبد الله، فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولاً قولُه تعالى: ﴿ اَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ اَلذِى خَلَقَ ﴾ (العلق: ١)، ثم بَيَّنَ أن الجمع بين رواية جابر بْن عبد الله ورأى الجمهور

ممكنٌ وغيرُ متعذر، على أسا أن ﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ اَلَّذِى خَلَقَ ﴾ هو أَوَّلُ قرآن نزل على رسول الله، لأَول ما تَلَقَّى الوحْيَ مِن عند الله، ثم فَتَرَ الوَحْيُ مُدَّة، وبعدَ استِيناف الوحي إلى رسول الله كان أَوّلُ شيء يَنزل عليه من القرآن سورة «المُدَّثر»: ﴿ يَـٰأَيُّهَا اَلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾، إلى آخر الآيات.

وقولُه تعالى: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾، انتدابُ وجَّهَهُ الحق سبحانه وتعالى إلى رسوله للقيام بتلقي الرسالة وتبليغها إلى الناس، وإغراءٌ لهُ على استقبالِ مَرحلة جديدة من الحياة، هي حياةُ الكفاح والجهاد في سبيل الله، والتطوُّعِ الدائم لهداية الخَلِيقة إلى خالقها، وإرشادِ الإنسانية إلى مُبْدِعِها.

وقولُه تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾، أمرٌ من الله لرسوله بالطهارة التي هي مِن أُولَى شعائر الإسلام وضرورياته. ونبّه ابن كثير إلى أن هذه الآية قد تشمل الطهارة من الذنوب، والطهارة من الإثم، وطهارة الجسم والثياب، وطهارة القلب أيضاً. فإن العرب تطلق لفظ «الثياب» حتى على القَلْب، بحيث يكونُ من جملة معاني الآية: «وقلبَكَ فطَهِّر».

وقولُه تعالى: ﴿ وَالرِّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾، أي: حاربِ الأَصنام والأَوثان، وادعُ الناس إلى هَجْرها.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ ﴾، قال ابن عباس: ﴿ أي: «لا تُعْطِ العطيةَ تلتمِسُ أكثرَ مِنها»، وقال الحسن البصري: «لَا تَمْنُنْ بعملك على ربك تَسْتكثِرْه»، واختاره ابن جرير.

وقولُه تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾، أمرٌ للرسول عليه السلام بالتأهُّب والاستعداد لتحمل تكاليف الرسالة وأعبائها، وعدم التأثُّر بما يَقِف في طريقها من العَقبات والعراقيل، وأنواع الأذى، على غرار قوله تعالى في سورة «المُزَّمِّل» السابقة: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾، وكما أن «الصَّبْر الجميل» هو الذي لا شَكْوَى معه «فالهَجْر الجَمِيل» هو الذي لا عِتاب مَعَه.

وقولُه تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنَ ازِيدَ كَلَّا، إِنَّهُ كَانَ ءَلِايَٰتِنَا عَنِيداً. سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾، تَوَعُّدٌ من الله جلّ جلاله لِمَن أنعم عليه ربُّه بأجلّ النعم، فكفر بأَنْعُم الله، وقابَلَها بالجحود والعصيان، ولم يعترف لربه بأيّ شكر أوِ امتنان، على غرار قوله تعالى في سورة «المُزَّمِّل» السابقة: (١٠ ـ ١٢) ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً انَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً اَلِيماً﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ اَلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾، أي: ما جعلنا خَزَنَة جهنم، المكلَّفين بها، إلّا من الملائكة، وقد وصف الحقُّ سبحانه في آية أخرى خَزَنَة جهنم بأنهم «غِلاظٌ شِدَادٌ لَا يَعصون اللَّهَ مَا أمرَهُم ويَفعلُون ما يُومَرُون» فالمراد «بأصحاب النار» في هذه الآية بالخصوص خَزَنَةُ جهنم، لانفس المُعَذَّبين فيها، بَينما المراد «بأصحاب النار» في غيرها من الآياتِ أهلُ النار أنفسُهم، المعذَّبُون فيها على الدَّوام.

وتحدث كتابُ الله في الآيات الباقية من هذا الربع عن إيمان المومنين الذين يزداد إيمانهم على مر الأيام، وعن نفاق المنافقين الذين في قلوبهم مَرَض، وعن جنود الله المبثوثة في أرجاء الكون، والتي لا يُحصيها إلاّ خالقُها، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، وعن عذاب النار وأهوالها، وما يلقاهُ المجرمون فيها، وعن نعيم الجنة المُقِيم، وما يلقاه المومنون فيها من الرّعاية والتكريم.

ووضّح كتابُ الله «حَيْثِيّات الحُكم الإلَهي» العادل، الصادِر بعذاب المجرمين، إذ قال تعالى حَاكِياً لاعترافاتهم وعلى لسانهم: ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ اَلْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ اَلْخَآئِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ اِلدِّينِ حَتَّىٰ أَتَيٰنَا اَلْيَقِينُ﴾، ثم عقَّب كتابُ الله على اعترافاتهم قائلاً: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ الشَّٰفِعِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ﴾، إشارةٌ إلى القُرآن العظيم، ورسالتِه السامية التي يُؤديها للخلق، فهو الذي يُذَكِّر الناسين، ويُنبِّه الغافلين، ويَهدِي الضَّالِّين.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا تَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَّشَآءَ اَللَّهُ﴾، تنبيهٌ إلى وُجوب الأدب مع الله في كل ما يَاتِيه المومنُ من أعمال وتصرفات، بحيث يربطها في ذهنه ويقِينه دائماً بمَشيئة اللّهِ العُليا، فهو الذي بيده مقاليدُ الكون الظاهرةُ والباطنةُ، وكما أنَّه سبحانه «أهْل» لأَن يتقِيَهُ عبادُه، ويلتزموا طاعتَه وتقواه، فهو سبحانه أيْضاً «أهْل» لأَن يغفر لعباده إذا أنابوا إلى ربهم وتابُوا إليه من ذنوبهم، ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ
أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ
لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ
ٱلۡقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ﴿١٠﴾
كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ
بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴿١٤﴾ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ
مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ
وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾
كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾
إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ﴿٢٥﴾
كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ

ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾
وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾
ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ
نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ
ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا
ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ
ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا
وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾
عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا
وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾
إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ
وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾
مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً

عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن
فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾

الربع الثالث من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم

عبـاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قوله تعالى في فاتحة سورة «القيامة» المكية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾، ونهايتُه قوله جلّ علاه في سورة «الإنسان» المكية أيضاً: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً عَيْناً فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً﴾.

في مطلَع هذا الربع وهو فاتحة سورة «القيامة» المكية، إشارةٌ إلى أمرين اثنين: الأمر الأول القيامةُ وأهوالها. والأمر الثاني: النفسُ وأَحْوالها، وكَأَنَّ فاتحةَ هذه السورة بَراعَةُ استِهلال، فقد استغرق الحديثُ عن هذين الأمرين السورة بتمامها، من بدايتها إلى نهايتها، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾، والمُقسَم عليه في هذا المقام هو نَفْيُ ما يزعمُه المشركون، من أنه لا قيام للساعة ولا بعث للإنسان، والتأكيد على إثباتِ المعاد، وبعث الأجساد.

أَما «يوم القيامة» فمعروف، وأَما «النفس اللوامة» فقد قال

مجاهد: «هي التي تندَم على ما فات وتلُومُ عليه»، وقال الحسن البصري: «إنَّ المومن -وَاللَّهِ- ما نراهُ إلَّا يلومُ نفسه، مَا أردتُ بكلِمتي؟ ما أردتُ بأكْلَتي؟ ما أردتُ بحديثِ نفسي؟، وإنَّ الفاجر يَمضِي قُدُماً ما يُعاتِبُ نفسَه»، والأشبه بظاهر التنزيل في رأي ابن جرير أن «النفس اللوامـة» هي التي تلوم صاحبهـا على الخير والشر، وتندَم على ما فات، وقال ابن عطية: «كلُّ نفس متوسطة ليست بمُطمَئِنة ولا أمارة بالسوء، فإنها لَوَّامةٌ في الطرفين، مرةً تَلومُ على ترك الطاعة، ومرةً تلُومُ على فَوْت ما تشتهِي، فـإذا اطمأنت خَلَصتْ وَصَفَتْ، ولعل كلمة «الضمير» بالمعنى المتعارف اليوم ترادف كلمة «النفس اللوامة»، ولا سيما إذا كان ضميراً حَيّاً لا ميتاً، فوَخْزُ الضمير يشابه لوم النفس من عدة وجوه.

وتساءلَ كتابُ الله عن الوهم الذي يُداخِل بعض النفوس الضعيفة، ولا سيما نفوس المشركين، وهو استبعادُهم إعادة الحياة إلى الإنسان بعد موته، المعبَّرَ عنها هنـا «بِجَمْع عـظامه بعـد افتـراقهـا» حيث قـال تعـالى: ﴿أَيَحْسِبُ الاِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَـعَ عِظَامَهُ﴾، ثم أجاب كتابُ الله على هذا التساؤل الغريب بما يفيدُ أن الله قادر على ذلك وعلى أكثر منه، وليس بعزيز على قدرته سبحانه أن يُنشِىء الإنسان في خلق جديد، أو أن يُعيد تكوينه على ما كان عليه بأدقِّ أجزائه وجميع تفاصيله، بحيث لا ينقص من الإنسان المعروف أيُّ عضو من أعضائه مهما صغر، ولا يتبدل فيه شكلُ أيّ عضو مهما دَقَّ، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰ أَن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾، ولا غرابة في هذا، فإنّ الإنسان

ليس إلّا مخلوقاً من صُنع الله وإبداعه، وهو سبحَانَهُ الذي انفردَ بإنشائه سلالةً وَنوعاً وأفراداً، منذ ظهر على وجه الأرض إلى يوم الدين: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١].

ثم بيّن كتاب الله لماذا يَمِيلُ ضعاف النفوس إلى عدَم الإيمان بالبعث والنَّشأة الآخرة، موَضِّحاً أن السبب في ذلك هو ما يطغَى عليهم من الشهوات واللذات، وما يُغْرِقون فيه من أنواع الفسق والفجور، وما يحرصون عليه من تَفادِي كل ما يُنغِّصُ عليهم هذا النوع التافه من «العيش البهيمي» الذي أَلِفُوه ولا يستطيعون عنه انفكاكاً، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾، قال مجاهد: «لِيفجُرَ أَمامَه» أي: ليمضيَ أَمامَه راكباً رَأْسَه.

ووضَّح كتابُ الله نفسيّة ضعاف النفوس الفَجَرة، وإصرارَهم على ما هم فيه من فسق وفجور، ومحاولتَهم بكل الوسائل لدفع «شَبَح» البعث والنشأة الآخرة عن خيالهم المريض، وذلك بتكذيبهم لوجوده حيناً، واستبعادهم لوقوعه حيناً آخر، وإلى هذا المعنى يُشير قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: يَسأَلُ ذلك الإنسان عنه سؤالَ استبعادٍ لِوُقوعه، حتى لا يَقُضَّ مضجعه، ولا يُنغِّصَ عيشَه، لأنه يرغب في أن يفجُر، وأن يمضي في فجوره باستمرار، دون مُكدِّر ولا مُعقِّب، لكن الإنسان المكذِّب بالبَعْث، المستبعدَ لوقوعه، حرصاً على الاستمتاع بشهواته دون حساب، لا يلبث أن يُفاجَأ بالحقيقة المُرَّة، عندما يرى أن القيامة قد قامَت، وأن ساعة

البعث قد حلَّت، فيَتساءل إلى أين الفرارُ؟ ويجد نفسه وقد سقط في شَرَكِ الأَقدار، أحقرَ وأعجزَ من فَار: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ يَقُولُ ٱلإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾.

ويـرُدُّ كتابُ الله على سؤال الفـاجر المستهتِـر، المكذِّب بالبعث والنشور، ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾، أي: ها أنت قد وقعْتَ في قبضة الله، وليس لك أيُّ مكان تعتصمُ فيه من عذاب الله، ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾، أي: إليـه المرجـع والمصير: ﴿ يُنَبَّؤُاْ ٱلإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾، أي: يُخبَرُ الإنسـان بجميع أعماله، أولِها وآخرها، قديمِها وحديثِها، صغيرِها وكبيرِهـا، ما قدَّمه قبل وفاته من الأعمال، وما يترتَّب على تلك الأَعمال بعد وفاته من الآثار، هل سَنَّ سُنةً حسنة فيكون له أَجرها وأجرُ من عمل بها؟ أو سَنَّ سُنة سيئة فيكون عليه وِزرُها ووِزرُ من عمل بها؟ وها هنا ينكشف الستار، وتسقُط الأَعذار، فها هو الإنسان قد اطَّلع على كتابه، وها هو قد تلقَّى سجل حسابه، وكفى بنفسه عليه حسيباً، وشاهداً ورقيباً: ﴿ بَلِ ٱلإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾.

واتجـه الخـطابُ الإلَهي بعـد ذلـك إلى خـاتم الأنبيـاء والمرسلين، مُلقِّناً إياه الكيفية التي ينبغي أن يكون عليها عند تلقي الوحي من عند الله، والمراحل التي تتبع ذلك، فقال تعالى في خطابه لنبيه: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾، فالحالة الأولى بعد تلقيه

القرآن من المَلَكَ جَمعُه في صدره ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾، والحالةُ الثانية تلاوتُه: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾، والحالة الثالثة تفسيرُه وإيضاحُ معناه: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾ معناهُ إذا تلاه عليك الملَكُ عن الله تعالى فاستمِعْ له، ثم اقرأْهُ كما أَقرَأَك.

وقولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَـانَهُ ﴾، أي: بعـدَ حفظه وتلاوته نبينُه لك، ونُلهِمك معناه علَى ما أَردنا وشَرَعنا، كما فسره ابن كثير، وإلى هذا الموضوع نفسِه يشيرُ قوله تعـالى في آية أخرى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمـاً ﴾ (طه: ١١١)، قـال المفسـر الشهيـد: «إن الإيحَاءَ الذي تتركه في النفس هذه الآياتُ هو تكفُّل الله المطلق بشأْن هذا القرآن، وحياً وحفظاً وجمعاً وبياناً، وإسنادُه إليه سبحانه بكليته، ليس للرسول ﷺ من أَمره إلّا حملُه وتبليغُه، ثمَّ لَهفةُ الرسول ﷺ وشدةُ حرصه، على استيعاب ما يُوحَى إليه، وخشيتُه أن يَنسَى منه عبارة أَو كلمة، مما كان يدعوه إلى متابَعة جبريل عليه السلام في التلاوة آية آية، وكلمة كلمة، يستوثِق أَنَّ شيئاً منها لم يَفُتْه، ويتثَبَّتُ من حفظها فيما بعد».

ثم عاد كتابُ الله إلى مخاطبة الغافلين المغرورين الذين يستغرقون كلَّ حياتهم في الشهوات والملذات دون أن يحسُبوا لما بعدها أَيَّ حساب، فقال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾، وكأَنَّ في هذا الخطاب تلويحاً إلى ما في طبع الإنسان

من غريزة «العَجلة»: ﴿خُلِقَ الإنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (الأنبياء: ٣٧)، فبحكم هذه الطبيعة البدائية يَميل الإنسان الغافل إلى الاستمتاع بيومه قبل غده، ويلتهم العيش التهاماً، دون أن يفكر في العواقب، على حَد قول القائل: «ولك الساعةُ التي أنت فيها»، لكن العاقل من شَغَل عُمرَه بما يستمر ويَبقَى، لا من يَشغله بما يمُرُّ ويفنَى. ولعل هذا هو السرّ في وصف القرآن الكريم للدنيا في هذه الآية باسم «العَاجلة» إيماءً إلى قِصَر مدتها، وسرعةِ فنائها، وإشارةً إلى استغراق الغافلين المغرورين في شهواتها وملذاتها، خشيةَ فواتها.

وانتقل كتابُ الله بعد ذلك إلى وصف ما أَعَدَّهُ الله في الآخرة للمتقين المُصدِّقين، وما أعده فيها للمَحْرُومين المكذِّبين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾.

ويتساءلُ كتابُ الله سؤال استنكار واستغراب: ﴿أَيَحْسَبُ الإنسَـٰنُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾، أي: أيظنُّ الإنسان أنه خُلِق ليترك في حياته هَمَلاً لا يُؤمَر ولا يُنهَى، وأنه خُلق ليُترك بعد موته مَنسِيّاً لا يحاسَب ولا يعاقَب: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ تُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَينِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَـىٰ أَنْ يُحْيِـىَ الْمَوْتَىٰ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الإنسان» المكية أيضاً، مستعينين بالله، سائلين منه الهداية والتوفيق.

وفي مطلَع هذه السورة الكريمة يعود الحديث من جديد إلى موضوع الإنسان الذي لم يخلقه الله سُدى، ويبينُ كتاب الله أنه قد مَضى زمن طويل على العالَم دون أن يكُون فيه لِلإنسان وجود ولا ذكر، ويشير إلى أن وجوده فيه إنما هو طارىء عليه، لحكمة إلٓهية اقتضت إيجاده وإمداده، وهي حكمة الِابتلاء والتكليف والخلافة عن الله في الأرض، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ هَلَ اَتىٰ عَلَى الاِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ اَلدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً اِنَّا خَلَقْنَا اَلاِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ اَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعاً بَصِيراً اِنَّا هَدَيْنَـٰهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾.

وواصلَ كتابُ الله الحديث عن الأَبرار والفجـار من بني الإنسان، فوصف كلا الفريقين، ووضَّح جزاءَ الطرفين، فعن الفجار وجزائهم قال تعالى هنا: ﴿ اِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلاً وَأَغْلَـٰلاً وَسَعِيراً ﴾، وعن الأبرار وجزائهم قال تعالى: ﴿ اِنَّ اَلاَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اَللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾.

وعرَضَ كتابُ الله في نفس السياق مكارم الأخـلاق التي يدخل بها الناس في عداد «الأبرار» السعداء حيث قال تعالى في وصفهم: ﴿ يُـوفُونَ بِـالنَّذْرِ وَيَخَـافُونَ يَـوْماً كَـانَ شَرُّهُ مُسْتَـطِيراً وَيُطْعِمُونَ اَلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اِللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُوراً اِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾.

ثم عاد كتاب الله إلى الحديث عن جزاء الأبرار حيث قال

تعالى في حقهم: ﴿ فَوَقَيٰهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّيٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً وَجَزَيٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيراً مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً ﴾، إلى قوله تعالى في نهاية هذا الربع: ﴿ عَيْناً فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴾.

الربع الأخير من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾
وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ
خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ
مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾
وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ
وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا
شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ
رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾
يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾
فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ
لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾
وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾
لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾
كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾
أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ
مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَّرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾
أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ
شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾
انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي
ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي
بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾
فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ
الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا
وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

الربع الأخير من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «الإنسان» المكية: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْـدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنْثُوراً ﴾، إلى قوله جلّ علاه في ختام سورة «المرسَلات» المكية أيضاً: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُومِنُونَ ﴾.

تُواصل الآياتُ الكريمة في بدَاية هذا الـربع وصفَ مـا أُعده الله لعباده «الأبرار» من ضروب النعيم وصنوف الإحسان، وفي خلال هذا الوصف يقول الله تعالى في خطابه لنبيه: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾، أي: إذا رأيتَ يا محمد الجنَة وما هي عليه رأَيتَ نعيماً حقيقياً لا يُنغِّصه أيُّ منغِّصٍ، ولا يساويه أيُّ نعيم عرفه الناس، ورأَيت مُلكاً إِلّهياً كبيراً، تتضاءَلُ دونَه جميعُ مظاهر المُلك البشَريّ المحدود، فمُلْكُ الله لا يُعادله غيرُه في السلطان الباهر، والنفوذ القاهر. ولا غرابة فيما يفاجَأُ به الذين آمنوا بـالله ورسولـه في دار النعيم، فقد وعـدهم الله أن يُكرمهم «بِـمَا لَا عَيْـنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذْن سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلىٰ قَلْبِ بَـشَـرٍ».

وفي خِلال هذا الوصف يَقول الله تعالى بشأن عباده الأبرار: ﴿ وَسَقَيٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾، وقد فسره ابن كثير بأن الله تعالى طهَّر بواطنهم من الحسد والحقد والغِل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة، اعْتماداً منه على أَثَر روي في الموضوع عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وبذلك جمعَ لهم الحقُّ سبحانه وتعالى بين نَضارة الظاهر وجَمال الباطن، إذ قال تعالى في حقهم في الربع السابق: ﴿ وَلَقَّيٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾.

وتفضَّلَ الحقُّ سبحانه وتعالى، فأعلنَ إلى عباده «الأبرار» أَنَّه قد بَرَّ بوعده، وأوفَى بعهده، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾، بمعنى أَن هذا النعيم المقيم الذي يتقلَّبون فيه ـ على سَعته وعظمته ـ هو إحسان من الله إليهم، تكريماً لتقواهم، وتقديراً لنواياهم، بالرغم من أَنه لا نِسبة بين عَمَلِهِمُ المحدود المنتهِي في الدنيا، ونعيمِ الله الواسع الذي لا نهاية له في دار الخُلود.

وانتقلَ كتابُ الله إلى دعوة الرسول عليه السلام إلى الثبات على الحق، وإلى تبشيره بمددٍ رُوحانيّ جديد يُمِدُّه الله به من عنده، حتَّى يَقوَى على مواجهة قريش بعنادها وإصرارها وتكتُّلها، ومن ورائها إذ ذاك ـ من الوجهة المعنوية ـ قواتُ الشِّرك والكفر والطغيان في العالَم أجمع، مذكِّراً له بالرسالة العظمى التي أُنزلها عليه في الذكر الحكيم، آمِراً له بالاِعتصام بالصبر والثبات، في وجه جميع العراقيل والعقبات، داعياً إياه إلى مكافحة الإثم والكِفر كفاحاً لا هَوادة فيه ولا تنازل، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾.

ولا بأس من التنبيه هنا على أن التعبير في هذه الآية وأمثالها بصيغة «نَزَّل»: ﴿ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً ﴾، يفيد بمقتضى الاستعمال اللغوي لهذه الصيغة بالذات أن كتاب الله لَمْ يَنزل على رسوله دفعةً واحدة، وإنما نَـزَلَ بالتدريج وبالتتابع على دَفَعاتٍ، حسَبَ التخطيط الإلٓهي لمُناسبات نزوله، وحسَبَ الوقائع والأحداث، وبذلك يؤدي لفظ «نَزَّل» في هذا السياق معنى خاصّاً لا يؤديه غيره من الأفعال الأُخرى المشتقة من هذه المادة.

ثم اتجه الخطابُ الإلٓهي إلى الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، آمراً له بالذكر والعبادة والتسبيح والسجود، ولا سيما في خَلوات الليل، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، وَمِنَ ٱلْيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾، على غِرار قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَّبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ (الإسراء: ٧٩)، وذلك لأن العبادة بكافة أشكالها وأنواعها عَوْنٌ عظيم على تحمُّل الأعباء الجسام، ولا سيما أعباء الرسالة، وإلى هذا المعنى ينظرُ قولُه تعالى في آية أُخرى: ﴿ وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ ﴾.

والتنويه «بعبادة الليل» في هذا المَقام، وحضُّ الرسول عليها بالخصوص، يناسب ما يمتاز به الليلُ من السكون والهدوء، وما يساعد عليه من جمع الفكر والتأمل والتدبُّر في آيات الله القرآنية

والكونية، والاستغراق في مُناجاتِه دون انقطاع، على حدِّ قوله تعالى في سورة (المزَّمِّل: ٥): ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، بمعنى أنَّ قيام الليل هو أشدُّ مواطأةً بين القلب واللسان، وأجمعُ للخاطر عند تلاوة القرآن.

وعادَ كتابُ الله مرة أخرى إلى التنديد بموقف المشركين والكفار، وما هم عليه من الاستغراق في الشهوات والاستهتار، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا﴾، وقد جاء التعبير عن الدنيا في هذه السورة أيضاً باسم «العاجلة»، على غرار ما سبق في سورة (القيامة: ٢٠، ٢١)، إذ قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾، «فالعاجِلةُ» هي الحياةُ الدنيا، التي مهما طالت فهي قصيرة الأَجل، ومهما أَبْطأت فهي مُسرعة الخُطَى، وحظُّ كلِّ إنسان منها أسرع وأقْصر، بحيث لا يستحق أن يُذكَر، «واليوم الثقيل» الذي تركوه أَمامهم، وتشير إليه الآية هنا، هو «يوم القيامة». فهو «ثقيل» بتَبِعاته الكبيرة، ومسئولياته الخطيرة، حيث يُحشَر الخلقُ أَمام خالقهم للعرض والحساب، وهو «ثقيل» بنتائجه وعواقبه، حيث يتلقى الخلقُ أَحكامَ خالقهم، إمَّا بالثواب وإمَّا بالعقاب.

وانتقلت الآياتُ الكريمة إلى التهوين من شأن «أَصحاب العاجلة» المغرورين المستغرِقين في شهواتهم، المنتهِكين لحُرمات الله، والمتَعدِّين لحدوده، مبيِّنةً أنهم مَدينون بكل شيء لله الذي خلقهم، والذي أَمَدَّهُم بكل ما يستعملونه من طاقات وملكات، وأن ما يسيئون التصرف فيه، من نِعَم الله وعطاياه، إنما

هو عاريةٌ مستَرَدّة، وسيحاسَبون عليها حساباً عسيراً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَـٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾، وقوله تعالى في نهاية السياق: ﴿ وَالظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً ﴾.

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾، يُمكنُ تفسيره بمعنى أن الله تعالى قادر على أن يبعثهم يوم القيامة ويُعيد خلقَهم من جديد، من باب الاستدلال بالنشأة الأُولى على النشأة الآخرة، ويمكن تفسيره بمعنى أن الله تعالى إذا شاء أبادَهم من الدُّنيا عقاباً لهم، وأتى بغيرهم من الناس، على حد قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا اَلنَّاسُ وَيَاتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾ (النساء: ١٣٣)، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اَللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (فاطر: ١٦، ١٧).

وعـادت الآياتُ الكـريمة مـرةً أُخـرى إلى الحـديث عن «كتاب الله» والتنويه بما جاءَ به من الهـداية والنُّـور للإنسـانية جمعاء، مع الإشارة إلى أن في طليعة أهدافه تذكيرَ الناسين، وتنبيهَ الغافلين، إلى ما عليهم من حقوق لله وحقوق لمخلوقاته يلزمهم القيام بها، وصرف الوجْهة إليها، وذلك قولُه تعالى هنا، ونفسُ هذا النص سبق نظيرُه في سورة (المزمل: ١٧): ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اَتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾، ولا طريق إلى الله والوصول إلى معرفته ورضاه، أفضل وأضمن من كتاب الله، رُوي عن أمير المومنين علي كرم الله وجهه أنه سئل عن المَخْرَج من الفِتَن فقال: «المَخْرَج منها كتابُ الله، فيـه نَبَأُ مَن قبلكم، وخبـرُ ما

بعدكم، وحكمُ ما بينكم، هو الفَصْل ليس بالهَزْل، من ترَكَهُ من جَبَّارٍ قَصَمهُ الله، ومن ابتغَى الهُدَى في غيره أضلَّه الله، فهو حبلُ الله المتين، ونورُه المبين، والذكرُ الحكيم، وهو الصراطُ المستقيم، وهو الذي لَاتزيغُ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبَع منه العلماء، ولا تَملُّهُ الأتقياء، ولا يَخْلَقُ عَن كثرة الرَّدِّ، ولا تنقضِي عجائبُه، من عَلِم عِلْمَه سَبَق، ومن قال به صَدَق، ومن حَكَم به عدل، ومن عَمِل به أجِر، ومن دعا إليه هُدِي إلى صراط مستقيم». قال ابن كثير: «وقد وهم بعضهم في رفع هذا الحديث».

وقولُه تعالى هنا: ﴿ وَمَآ تَشَآءُونَ إِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ اَللَّهُ ﴾، يمكن أن يُفهم على وجهين:

ـ الوجه الأول: أنَّ المومِنَ ينبغي له أن يربِط أعماله وتصرفاته بمشيئة الله، أدباً مع الله من جهة، وتوكلاً عليه من جهة أخرى، بحيث لا يعتقد أنّ إرادته المحدودة هي الكلُّ في الكل، وذلك على حد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ اِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً اِلَّا أَنْ يَّشَآءَ اَللَّهُ ﴾ (الكهف: ٢٣).

ـ والوجه الثاني: أنَّ المومِن ينبغي له أن يلْتجىء إلى الله دائماً، ويطلبَ منه الهداية والتوفيق فيما يُقدِم عليه من أعمال وتصرفات، حتى يُيسر له أسباب النجاح من جميع الوجوه، وقد سبق في ختام سورة «المدَّثِّر» قولُه تعالى: ﴿ وَمَا تَذْكُرُونَ إِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ اَللَّهُ ﴾، وهو يشابه تمام المشابهة قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ اَللَّهُ ﴾.

ثم عقَّب كتابُ الله على ذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾، أي: «عليماً» بنَواياكم في أعمالكم وتصرفاتكم، «حكيماً» في تيسير أسبابها والتصديق عليها إن كانت خيراً، أو في تعطيل أسبابها، والتعرضِ لها، إن كانت شراً، ولله الحجة الدَّامِغَةُ، والحكمة البالغة.

والآن فلْنَنْتَقِلْ بعون الله وتوفيقه إلى سورة «المرسَلات» المكية أيضاً، وهذه السورة الكريمة تتناول بالوصف مشاهد القيامة وأهوالها بالنسبة لجميع الأكوان، ولا سيما ما يتعرض له الإنسان، وكما سبق في سورة «الرحمان» التعقيب على كل نعمة من نِعَم الله بِقوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، وتكرَّر ذلك إحدَى وثلاثينَ مَرة، نجدُ التعقيبَ ها هنا على كل حجة وبرهان، من حُجج الله القاطعة، وبراهينه الساطعة، بقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾، ويتكررُ ذلك عَشْرَ مرات، عَقِب مختلِف الآيات.

وقد سَجَّلتْ هذه السورةُ في مطلَعها قَسَماً غليظاً بعدد من القوات المسخَّرة لله، المبثوثة في الآفاق، وهذا القَسَمُ يَنصَبُّ على أن ما وَعَد اللَّهُ به من قيام الساعة، والبعث، والحشر، والجزاء، واقعٌ لا مَحالة، وإن كَذَّب به المكذِّبون، وأنكره المنكِرون، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفاً فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفاً وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْراً فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقاً فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْراً عُذْراً أَوْ نُذْراً إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴾.

والمراد «بالمُرسَلات» هنا الرياح، بناءً على ما يُستفاد من

قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ (الحجر: ٢٢)، وفي آية ثالثة: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ نُشُراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ (الأعراف: ٥٧)، و«العاصفاتُ» و«الناشراتُ» هُنا وصفان للرياح «المَرسَلات»، إذ كثيراً ما تصحَب الرياحَ عواصفُ تهُبُّ معها، وسُحُبٌ تنتشر في السماء إِثْرَها.

والمراد ﴿ بِٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقاً، ٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْراً ﴾ الملائكةُ المُكْرمُون، كما قاله ابن مسعودُ وابن عباس ومن تابَعهما، فإن الملائكة تنزل بأمر الله على رسُله بما يُفرِّقُ بين الحق والباطل، والهُدَى والضلال، والحلال والحرام، وتُلقِي إلى رُسُله من الوحي ما فيه إعذارٌ للخلق حيناً، وما فيه إنذارٌ لهم حيناً آخر، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ ذِكْراً عُذْراً أَوْ نُذُراً ﴾.

ثم عَرَض كتابُ الله على جميع الأَنظار صورة حيّةً من مشهد الانقلاب العظيم الذي سيشهده الكون عندما ينفرطُ عِقْده، وتتقوّضُ أَركانه، وهذا المشهد قادم لا مَحالةَ بشهادة القرآن العظيم أولاً، وهذه الشهادة عندنا هي الأساس، واعترافِ البحث العلمي الحديث ثانياً، وهذا الاعتراف لِمَن له به اسْتئناس، فسيأتي يوم تتفجَّرُ فيه القُوَى المخزُونة في الكون، ويكفي أن يقع الانفجار في كَوْكَب واحد ليمتدَّ منه الانفجارُ إلى الكواكب الأخرى فيحيلها دُخاناً وغُباراً، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾، أي: ذهب ضَوْءُها ونورُها، ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴾، أي: انفطرت وانشقت، ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾، أي: أصبحت هبَاءً منثوراً بعد نَسْفها واقتلاعها من أُصلها.

وقولُه تعالى: : ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ يوم القيامة هُو الموعد الذي يُقدِّمُ فيه الرسلُ إلى بارئهم حسابَاتِهم معَ الذين أُرسِلوا إليهم من البشر، ويَعرِضون فيه النتائج التي أثمرتْهَا الرسالةُ الإلّهية إلى مختلِف الأمم والشعوب، سَلْباً وإيجاباً، على حدِ قوله تعالى في آية ثانية: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَـٰبُ وَجِيٓءَ بِالنَّبِيِّـۧنَ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٦٩)، وقولِه تعالى في آية ثالثة: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ (المائدة: ١٠٩)، فقد أُجِّل هذا الموعد الفَصْل: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ وَمَآ أَدْرَيٰكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

ومضَى كتابُ الله يتحدث عن مصارع الأُمم الغابرة، وعن آيات الكون الباهرة، وعن أَهوال الآخرة، وعمَّا يكون فيه المتقون من النعيم المقيم: ﴿كُلُوا۟ وَاشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾، وعَمَّا يكون فيه المجرمون المكذِّبون من العذاب الأليم: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾.

وللمرة العاشرة جاء قوله تعالى في هذا السياق: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ثمّ جاء التعقيب عليه بسؤال مُقتَضب يثير الاِستغراب والعَجَب، أَلَا وهو قوله تعالى في ختام هذه السورة: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُومِنُونَ﴾؟ أي إذا أَصرُّوا على التكذيب بالقرآن، ولم يومنوا بما فيه من حكمة وبيان، وحجة وبرهان، وهو ﴿الذكي الحكيم﴾ الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

خلفه ﴾ فبماذا سَيُومنون؟ أيومنون بالرأي العقيم، والفكر السقيم، ويُعَطِّلون مَلَكَة العقل السليم والفهم القويم؟ وقد سبق في (سورة الأعراف: ١٨٥) وَضْعُ هذا السؤال في سياق قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا في مَلَكُوت السَّمٰوٰت والأرض وما خَلَق اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أن يكونَ قد اقترَبَ أَجَلُهُمْ، فَبِأَيِّ حديثٍ بَعْدَهُ يُومِنُونَ ﴾.

الربع الأول من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾
كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾
وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾
وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ
سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ
مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ
ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ
ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ
كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ
فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ

أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾
إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا
دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً
حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ
مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ
إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن
شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ
ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾
فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾
تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾
يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾
قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾
فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ
رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾

فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ
ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾
فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ
ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ
خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ
ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا
وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ
ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ
لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ
ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾
فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

الربع الأول من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم، وبدايتُه قولُه تعالى في فاتحة سورة «النَّبأ» المكية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، ونهايتُه قولُه جلّ علاه في سورة «النازعات» المكية أيضاً: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾.

في مطلَع هذا الربع، وهو فاتحة سورة «النَّبأ» المكية، يتحدث كتابُ الله مرةً أُخرى عن البعث «يوم الفَصْل» الذي يُصدِّق به المومنون، ويكذِّب به الكافرون، فهم في شأنه مختلِفون، وقد سماهُ الله تعالى في فاتحة هذه السورة الكريمة (بالنَّبَأ العظيم)، فقال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ، كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، أي: أن هذا النبأ نبأٌ صادق مطابق للواقع، وليس لصدقه ولا لوقوعه من دافع، وسيرَوْنَه عِياناً، ويُذعِنون له إذعاناً، ثُم انقطع الحديث عن «يوم الفصل» في هذا السياق، لينتقل إلى

استعراض جملة من آيات الله في الأنفس والآفاق، وكلُّها تدل على قدرة الله التي لا يحُدُّ طاقتَها حَدّ ولا يصعب عليها شيء، وهذا الانتقالُ إنما هو في الحقيقة تمهيد للعودة إلى تفسير «النبأ العظيم»، ووصفه وصفاً كاشفاً مثيراً، فقال تعالى مُبكِّتاً للشاكِّين في النبأ العظيم والمكذِّبين به، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَٰدًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا الَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّٰتٍ الْفَافًا﴾.

ومن هنا عاد الحديثُ «إلى النَّبأ العظيم» وهو البعث «يوم الفصل»، فقال تعالى في شأنه أولاً: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا وَفُتِّحَتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾، وقال تعالى في شأنه أخيراً في ختام هذه السورة: ﴿رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَـَٔابًا إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾. وقال مجاهد: «النّبأ العظيم هو القرآن».

وتناوَل كتابُ الله بهذه المناسبة الحديثَ عن «الطَّاغين» وعقابِهم، فقال تعالى في شأنهم: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا

حَمِيماً وَغَسَاقاً جَزَآءً وِفَاقاً ﴾ وكشفَ الحقُّ سبحانه عن أكبر ذنب ارتكبوه، واستحقوا من أجله العقاب والعذاب، إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَاباً وَكَذَّبُواْ بِئَايَـٰتِنَا كِذَّاباً وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰباً، فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً ﴾.

ثم عرَّج كتاب الله على ذكر «المتقين» وثوابهم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً، حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰباً وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً وَكَأْساً دِهَاقاً لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّـٰباً جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَاباً ﴾.

والآن فلْنَقِفْ وقفةً خاصةً عند بعض الآيات من هذه السورة الكريمة:

فقولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾، امتنانٌ من الله تعالى على الإنسان بأن مَنحه راحة النوم، وجعل نومه قَطْعاً للحركة اليومية وتوقُّفاً عنها، حتى يستريح جسمه ويستجِمَّ، وتهدأ أعصابُه من مواصلة السعي وكثرة التردد، عِلاوةً على ما في سكون النوم من تعويضٍ عن الجُهد المبذول خلال اليقَظة، وأثناء الانشغال بِمَتاعب الحياة، وشاءت حكمةُ الله وَرحمتُه أن يتمَّ النومُ بطريقة غَيْبِية وقهرية، لا دَخَل فيها لتصرّف الإنسان، ولا قدرة له على مقاومتها مَتَى حَلَّ موعدُ النوم.

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجاً ﴾، إشارةٌ إلى السُّحُب التي تثيرها الرياح، فيتساقطُ ما فيها من الماء، وينزلُ على الأرض لصالح مَن فيها، من الإنسان والنبات والحيوان، و«الماء الثَّجَّاج» هو المتتابع الصَّبّ، وإلى هذا المعنى يشير قوله

تعالى في آية أخرى: ﴿ اَللَّهُ اَلذِى يُرْسِلُ الرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَـابًا فَيَبْسُطُهُ فِى اِلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى اَلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِ ﴾ (الروم: ٤٨).

وقولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى اِلصُّورِ فَتَـاتُونَ أَفْوَاجاً ﴾، المراد «بالصُّور» شيء يشبه البوق، سيُنفَخ فيه يوم القيامة لدعوة الخلائق إلى ميقات جمعهم المعلوم، ولم يُضِفْ كتابُ الله إلى ذكر اسمه أيَّ بيان عنه ولا عن كيفيته، فذلك من «علم الغيب».

وقولُه تعالى: ﴿ وَسُيِّرَتِ اِلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾، أي: أن الجبال التي كانت ثابتةً في مكانها قبل يوم القيامة لَا يبقى منها عند قيام الساعة عينٌ ولا أثر، نظير المعنى الوارد في قوله تعالى: ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ اَلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰ إِذَا جَـآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ (النور: ٣٩).

وقـولُه تعـالى «للطاغين» الوارد في مقـابلة قـولـه تعـالى «للمتقين» في هذه السورة، إشارةٌ إلى أَنَّ «تَقوى الله» من شأنها أن تحول بين صاحبها وبين انتهاك حُرُمات الله، وأن لا تَسمح له بتعدِّي حدود الله، وبذلك يكون بعيداً عن الظلم والطغيان، ملتزِماً في تصرفاته للعدل والإحسان.

وقولُه تعالى في شأن الطاغين: ﴿ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَـاباً ﴾، أي: ماكثين في جهنم أحقاباً، والأحقاب جمع «حُقُب» كما ورد في قوله تعالى: ﴿ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ اَلْبَحْرَيْنِ أَوَ اَمْضِىَ حُقُباً ﴾ (الكهف: ٦٠)، والحُقُب هو المدة الطويلة من الدهر،

«والحِقْبة» من الدهر تُجمَع على حِقَب وحُقُوب، وهذه الآية حمَلها خالد ابن مَعدان على «أهل التوحيد»، ومِثْلُها عنده قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ في (سورة هود: ١٠٧)، بمعنى أنَّ العُصاة من المومنين إذا عُذِّبوا بجهنم فإنهم لا يخلدونَ فيها، وإنما يلبَثون فيها مدةً محدودة، ثم يفارقُونها إلى الجنة بمغفرة من الله ورحمة منه، وحمَلَ قتادةُ هذه الآية: ﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَاباً﴾، على غيرهم، أي أن «الطاغين» يُعذَّبون في جهنم عذاباً لا انقطاع له، بحيث كلَّما مضى «حُقُبٌ» جاء بعده حُقُبٌ آخر، وهذا التفسير هو الذي رجحه ابن جرير فقال: «والصحيحُ أنَّها أي الأحقاب لا انقضاء لها كما قال قتادة والربيع بن أنس، ويشهد لهذا التفسير ويؤكده قوله تعالى في نفس هذه السورة وفي نفس السياق: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً﴾، أي: يُقال لأهل النار: ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلّا عذاباً من جنسه، على حَدِّ قوله تعالى في سورة (صٓ: ٥٦ ـ ٥٧): ﴿هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾. قال عبد الله بن عمرو: «لم يَنزِل على أهل النار آيةٌ أشدّ من هذه الآية، فهم في مزيد من العذاب أبداً»، وقولُه تعالى في شأن «الطاغين»: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّاباً﴾، أي: تكذيباً، وهو مصدر من غير الفعل.

وقولُه تعالى في شأن المتقين: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً﴾، أي: أن أسماعهم لا يؤذيها سماع اللغو العاري عن الفائدة، ولا سماع التكذيب المتبوع بالجدل، وما داموا في «دار السَّلام»، فهم في دار لا خِصام فيها ولا ملام، وإلى هذا المعنى

ينظر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ (الطور: ٢٣)، وقولُه تعالى في آية ثانية: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (يوسف: ٩٢).

وقولُه تعالى: ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَاباً ﴾، أي: عطاءً كافياً وافياً، تقول العرب أعطاني فأَحْسَبَنِي أي: كَفاني، ومنه «حَسْبِيَ اللَّهُ» أي: أن الله كفاني، ويشبهه قوله تعالى في آية سالفة: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ (الإنسان: ٢٢).

وقولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَـٰئِكَةُ صَفّاً ﴾، أي: يوم يقوم جبريل والملائكة معه، استناداً إلى قوله تعالى عن جبريل: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء: ١٩٣).

وقولُه تعالى: ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ ﴾، يشابهُ قولَه تعالى في «آية الكرسي»: ﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾، (البقرة: ٢٥٤) وقولَه تعالى في آية أخرى: ﴿ يَوْمَ يَاتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (هود: ١٠٥).

وقولُه تعالى حكايةً عن الكافر: ﴿ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَاباً ﴾، معناه أن الكافر حين يعايِن عذاب الله يوم القيامة يوَدُّ أن لم يُخلَق، ولم يُخرَجْ إلى الوجود، ويتمنَّى لو أَنه كان تُراباً، ولم يكن إنساناً.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «النازعات» المكية أيضاً،

مستعينين بـالله، وفي مطلع هـذه السورة إشـارةٌ إلى جملة من القوات الكونية التي سخرها الله وبثها في الكون، لتنفيذ أمره فيه، وتـدبير شؤونـه طبقاً لمشيئتـه، ووفْقاً لحكمتـه. فقـال تعـالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ وَالنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقاً وَالنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطاً وَالسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحاً فَالسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقاً فَالْمُـدَبِّرَٰتِ أَمْـراً يَوْمَ تَـرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾.

ولتقريب معنى هذه الأشياء المُقسَم بها من الأذهان يُمكن أن يكون معنى «النازعات غَرْقاً» كل ما أُودِعتْ فيه قـوةُ نَـزْع الأشياء من مقارِّها بشدة، وأن يكون معنى «الناشِطات نَشْطاً» كلُّ ما أُودِعت فيه قوةُ إخْراج الأشياء في خفة ولِين، وأن يكون معنى «السابحات سَبْحاً» كلُّ ما أُودعت فيه قوَّة السرعة في تأدية وظائفه بسهولة ويُسر، وأن يكون معنى «السَّابقاتِ سَبْقاً» كلُّ الأشياء التي تسبق في أداء مـا وُكِل إليهـا سَبْقاً عـظيماً، وأن يكـون معنى «المُدبِّرات أمراً» كلُّ الكا ئنات التي وكَل اللَّهُ إليها تدبير الأمور وتصريفَها، بما أُوْدَعَ فيها من خصـائص، وهذه المعـاني التي اختارتها لجنة (المُنتخَب في تفسير القرآن الكريـم)، هي أعمّ ما يمكن أن تُحملَ عليه المفردات الواردة في مطلَع هذه السورة، المُقسَم بها على قيام الساعة وزلزلتها العظمى، ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحج: ١)، وبذلك يقع تَفادِي ما وقع في تفسير هذه المفردات من تضارب واختلاف عند قدماء المفسرين، وقال ابن عباس: «الرَّاجفة والرَّادِفة» هما النفختان الأُولى والثانية» وقال مجـاهد: «أمَّـا الأُولى وهي قولـه تعالى هنـا: ﴿ يَـوْمَ تَـرْجُفُ

الرَّاجِفَةُ ﴾، فهي كقوله جلت عظمته: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ اَلاَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ (المزمل: ١٤)، وأما الثانية وهي قوله تعالى هنا: ﴿ تَتْبَعُهَا اَلرَّادِفَةُ ﴾، فهي كقوله جلّ علاه: ﴿ وَحُمِلَتِ اِلاَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ (الحاقة: ١٤). ويمكن حمل «الرادفة» على السماء، بمعنى أنها تَرْدُف الأرضَ وتتبعُها في الانقلاب الكوني عند فناء العالم، حيث تنشقُّ وتتناثرُ كواكبها.

وقولُه تعالى: ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ اَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴾، إشارةٌ إلى ما يملك القلوبَ يوم القيامة من الهَلَع والخوف، وما يُصيب الأبصار من الذل والانكسار، لهول الموقف وشدَّته.

وقولُه تعالى حكايةً عن المشركين المكذِّبين ومن لَفَّ لَفَّهم: ﴿ أ.نَّا لَمَرْدُودُونَ فِي اِلْحَافِرَةِ إِذَا كُنَّا عِظَـٰماً نَّخِرَةً ﴾، معناه أنهم يستبعدون الخروج من القبور، ويشُكُّون في البعث والنشور، ويتساءلون كيف «يُرَدُّون» أحياء بعدما أصبحوا عظاماً نَخِرَة، ثم لا يلبثون أن يتخيلوا أن «البعث» قد وقع، وأنهم كانوا على غير حق في استبعاده، فيعودون على أنفسهم باللوم قائلين: ﴿ قَالُواْ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾، أي: قال المشركون الذين يُنكرون البعث: لئن أَحْيانا الله بعد الموت لَنخسِرَنَّ خسارة مؤكدة، وخسارتُهم آتيةٌ من تكذيبهم بالله ورسوله واليوم الآخر.

وقولُه تعالى: ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾، إشارةٌ إلى أَرض المحشر التي يُحشَر إليها الخلائق، وموقِعُ هذه الأرض هُو من «علم الغيب» الذي اختصَّ اللَّهُ به دون خلقه. وقال مجاهد: «كانوا

بأسفل الأرض فأُخرِجوا إلى أعلاها».

وانتقل كتابُ الله من وصف يوم القيامة وذكر أحواله وأهواله إلى الحديث عن قصة موسى وفرعون، باعتبارهما نموذجاً لانتصار الحق على الباطل، فبَيَّن الدعوة التي وجهها موسى عليه السلام إلى فرعون مصر بأمر الله، وبيَّنَ ما كان عليه فرعونُ ومَلَاؤُهُ من الكِبْر والغرور والتطاول على الله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

وعادَ كتابُ الله إلى التذكير بآيات الله البارزة في كونه، التي لا يجادلُ فيها إلّا أعمَى البصر والبصيرة: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَآءُ﴾.

وخُتِمَ هذا الربع باستيناف الحديث عن النَّشأة الآخرة، وما يناله «الطاغون» من عذاب، و«المتقون» من ثواب، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ الطَّآمَّةُ الْكُبْرَىٰ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ وَءَاثَرَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾.

الربع الثاني من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾
فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ
مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ
فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا
عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ
عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾
مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ
أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ
ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا
يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ إِنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾

ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا
وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾
فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾
وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ
سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾
وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ
سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ
كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ
نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾
وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ
كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾
وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا

هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾
فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ
أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

الربع الثاني من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «النازعات» المكية: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾، إلى قوله جلّ جلاله في ختام سورة «التكوير» المكية أيضاً: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ اَللَّهُ رَبُّ الْعَـٰلَمِينَ﴾.

في بداية هذا الربع، وهي نهاية سورة «النازعات» المكية يواصل كتابُ الله الحديث عن قيام الساعة، وتَسَاؤل الناس عن موعدها، وخاصة منهم المكذِّبين الذين يشكون في قيامها، والذين يستعجِلون العذاب ليتأكدُوا من حساب الله وعقابه، وذلك قوله تعالى حكاية لسؤالهم: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾.

ثم يخاطبُ اللَّهُ نبيه عليه السلام، منبِّهاً إياه إلى أن أمر الساعة أعظم وأخطر من أن يَسأل عنه سائل، أو يُجيبَ عنه مُجيب، وأن الرسول عليه السلام مهما سُئِل عن موعدها وألحَّ عليه السائلون في الجواب فإنه لا يستطيع أن يعطيهم جواباً شافياً، لأن العلم بموعد الساعة مَرَدُّهُ إلى الله، فقد انفردَ به دون

سواه، ولا أَحَدَ من الخلق ـ مهما علت منزلته ـ ولو كان رسولاً أو نبياً، يعلم وقتها على التحديد والتعيين، وذلك قوله تعالى خطاباً لنبيه: ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَا ﴾.

ولَفَت الوحيُ الإلٰهي نظرَ الرسول عليه السلام إلى أن مهمته الوحيدة، ورسالَته المحدودة، بالنسبة لقيام الساعة، لا تتجاوز حدَّ التعريف بها وبأَشراطِها، والإنذار بها وبأهوالها، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾.

وبَيَّنَ كتابُ الله أن عُمُر الحياة الدنيا مهما طال فهو قصير بالنسبة إلى الحياة القادمة، فستَقومُ الساعة في موعدها المحدَّد الذي لا يعلمه إلاّ الله وحده، وسيُبعث الناسُ من قبورهم عند قيامها، وسيُدركون لأول وَهْلة أن الفترة التي قضوها قبل البعث ـ بِمَا فيها فترةُ الحياة والموت معاً ـ كأنها عشيةٌ من العَشَايا، أو ضَحْوَةٌ من الضَّحايا، في قصرها وسرعة انقضائها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾، «عشية» أي: ما يعادل فترة العصر إلى غروب الشمس «أو ضُحَاها» أي: ما يعادل فترة طلوع الشمس إلى الزوال.

وهنا ننتهي من سورة «النازعات» المكية لنَنْتَقل إلى سورة «عبس» المكية أيضاً، سائلين من الله التوفيق.

ومطلَعُ هذه السورة يخصُّصه كتاب الله لأَمر جَلَل، أَلَا وهو التنبيه إلى التزام «مَبدأ المساواة» بالنسبة لجميع السائلين والمستفتين، في نشر الهداية وتعليمِ الدين، وإيثارُ «الراغب في

الحق» بإعطائه الأسبقية في العَون والإرشاد، بدَلاً من إيثار «الراغب عَن الحق»، الذي لا يزال متأرْجِحاً بين الصلاح والفساد، فقد بنِي الإسلامُ على أن أحق الناس في نظره بالإكرام والاعتبار والتقدير هو أقواهم إيماناً، وأَشَدُّهم استقامة، وأكثرُهم تقوى، طبقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾.

وقد أراد كتابُ الله أن يُركِّز هذا المعنى في أذهان المؤمنين، ويقوّي أثره في نفوسهم، حتى تكون «المساواة» في العلم والدين شريعتَهم الأولى والأخيرة، فاتخذ الوحيُ الإلٓهي من إحدى المناسبات التي كان فيها رسولُ الله ﷺ جالساً مع زُمْرة من صَنَادِيد قريش، ـ وكان يتصَدَّى لهم كثيراً ويحرِصُ على أن يومنوا بالله ورسوله ـ ثم أقبل عليهم في نفس الوقت، وانضمَّ إلى مجلسهم فَجأةً عبدُ الله بن أمِّ مَكْتوم الذي كان ضَرِيراً فقيراً، مناسَبةً لتأكيد المبدأ الإسلامي الأصيل، في اعتبار القِيَم الأخلاقية والمعنوية للناس، قبل القِيَم المادية والاجتماعية المتعارَفة:

ذلك أن رسول الله ﷺ كان في مجلسه هذا مشغولاً بالنَّفَر الذين قدِموا عليه من صَنَادِيد قريش إذ ذاك، مستغرقاً في الحديث معهم يَعرِض عليهم الإسلام، ويُحاول أن ينتزع من صدورهم رواسبَ الشرك، عسَى أن يشرح الله صدورَهم للإيمان، ويَكُونُوا قوةً للإسلام والمسلمين، فلما جاء عبدُ الله بنُ أُمِّ مكتوم وهو ضَرير لا يَرَى ولا يَعرِف من هم الجالسون مع رسول الله ﷺ، أخذ يقطع على رسول الله حديثَه معهم، وأخذ يُلِحُّ عليه في تعليمه بعض آيات من الذكر الحكيم، ويقول له: يَا رسولَ الله:

(عَلِّمْني مما علمك الله)، وصادفَ أن رسول الله عليه السلام لم يُجبه في الحين إلى ما طَلب، لأنَّه كان في ذلك المجلس منهمكاً في إقناع صَنَاديد قريش بالإسلام، حرصاً منه على استجابتهم لله ورسوله، وقياماً بما أوجب الله عليه من تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، ولا سيما لهؤلاء الذين لا يزالون على شركهم، والذين يُنتظرُ أن يكونوا مدداً جديداً للإسلام لو دخلوا في دين الله، أما عبدُ الله بنُ أُمِّ مكتوم فقد كَان إذ ذاك مؤمناً بالله ورسوله، بل مُؤَذِّنَ رسول الله الثاني بعدَ بلال، مؤذنِه الأول.

وعمـا حدث بهـذه المناسبـة يتحدث كتـاب الله فيقـول: ﴿ بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَٰنِ اِلرَّحِيمِ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ أَن جَآءَهُ الاَعْمىٰ ﴾، إشارةً إلى مجيء عبد الله بن أم مكتوم وانضمامـه إلى مجلس الرسول عليه السلام، والرسولُ مستغرقٌ في عَرض الإسلام على أولئك النفر من صناديد قريش، وإلى تَأَثُّر الرسول عليه السلام من قَطْع ابن أم مكتوم عليه حديثَه معهم، ومن إلحاحه عليه أن يُعلِّمه فوراً بعض آيات الذكر الحكيم، بينما كان في إمكانه أن ينتظر، إذْ هو مؤمن أولاً، ومُرافِق للرسول وفي صحبته دائماً.

وبعـد هذا العتـاب الإلَهي المَسُوق في صيغـة الغـائب: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾، تخفيفاً من وقعه على رسول الله ﷺ، يتجه الخطاب الإلَهي إلى الرسول عليه السلام وجهاً لوجه، قائلاً له: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ، لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعُهُ اِلذِّكْرىٰ ﴾، وفي هذا النص بيانٌ لأولوية ابن أم مكتوم ومن كان في معناه من المومنين، الراغبين في المزيد من العلم والمعرفة بالدين.

ثم قال تعالى: ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴾، إشارةً إلى أولئك النَّفَر من صَنَادِيد قريش إذ ذَاكَ، وما هم عليه من رغبة عن الحق، وتظاهر بالاِستغناء عن الإسلام وعدم الحاجة إليه، إذْ لا يزالون يُحَاجُّون الله ورسوله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴾، وليس المـرادُ بلفظ «استغْنَى» معنى الغِنَى وكثـرة المال، كما قد يتبادرُ إلى بعض الأذهان.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَا عَلَيْـكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾، إشـارةٌ إلى أن واجب الرسول عليه السلام هو مجرد التبليغ، بحيث إذا قام بهذا الواجب تَبْرَأُ ذِمتُه: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَـٰغُ ﴾ (الشورى: ٤٨).

وقولُه تعالى: ﴿ وَأَمَّا من جَآءَكَ يَسْعَىٰ وَهُوَ يَخْشَىٰ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾. إشـارةٌ إلى ابن أم مكتـوم ومن كـان في معنـاه من المومنين، الذين يرغبون في الحق ويُقبلون عليـه، فالله تعـالى يحضُّ رسوله ـ وعن طريقه يحضُّ كافة المسلمين ـ على الاِهتمام بطلاب الحق وتلبيةِ رغبتهم، والأخذِ بيدهم في طريق الهدايـة والإرشاد والتعبيرُ «بالتَّلَهِّي» هنا إشارةٌ إلى استغراق رسول الله ﷺ في حديثه مع وفد قريش حول الدعوة الإسلامية، وكأنَّ في هذا التعبيـر تلميحاً إلى أَن الله قـد اطلَّع على قلوب ذلـك الـوفـد القرشي، وعلم أَن الدعوة لا تُثمر فيهم ولا تُجدِي، رغماً عما بذلهُ الرسولِ عليه السلام من جُهد بالغ في سبيل إقناعهم، على حـد قـولـه تعـالى: ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَـا لَـهُ مِنْ هَـادٍ ﴾ (الرعد: ٣٣).

وانتقلت الآيات الكريمة إلى التحدث عن «الذكر الحكيم»،

وأثره في النفوس التعطشة إلى الحق، ومنزلتِه العظمى عند الله ومنزلته في المَلأ الأعلى، تَنويهاً بقَدْره، وحضاً للمومنين على تقديسه وتعظيمه، والاهتداء بهديه، فقال تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا ﴾، أي: آيات القرآن الكريم، ﴿ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾.

ثم عادَ كتابُ الله إلى الحديث عن كفر الإنسان وجحوده وتجاهُله لنعم الله، بينما الإنسانُ، بجميع ما يملكه من طاقات ومَلكات وممتلكات، إنما هو «هِبَة» من الله أولاً وأخيراً، فليس له من نفسه ولا من أمره شيء، فقال تعالى: ﴿ قُتِلَ اَلاِنْسَـٰنُ ﴾، أي: لُعِن الإنسان الجاحد، ﴿ مَآ أَكْفَرَهُ ﴾، أي: ما أَشدَّ كفرَه وجحوده، ﴿ مِنَ اَىِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ اَلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾، أي: بيَّن له الطريق وهداه إليه، ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَآءَ انشَرَهُ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ ﴾، أي: أن الإنسان يستغرق في غفلته حتى يموت ويُبعث، دون أن يكون قد أدى ما أوجب الله عليه من حقوق، ودون أن يكون قد نفَّذ ما أمره به من أوامر، وبذلك تكون خسارته كبرى لا تَعْدِلُها خسارة.

وأخذَ كتابُ الله في تذكير الإنسان بنعم الله عليه، ولا سيما نعمة الرِّزق والغِذاء، التي بدونها يتعرض للإملاق والفَناء: ﴿ فَلْيَنْظُرِ اِلانْسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾.

وعاد الحديث في ختام هذه السورة إلى «القيامة» وأهوالها، وما يجازِي به الحقُّ سبحانه عبادَه المومنين الأبرار، وما يُعاقِب الله

به الكفار والفجار: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ، أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾. ومعنى ﴿ مُّسْفِرَةٌ ﴾: مُسْتَنِيرة. و﴿ الغَبَرة ﴾ من الغُبار، و﴿ القَتَرَةُ ﴾ بمعنى السواد، كنايةً عما يصيب تلك الوجوه من تغيُّر وغَمّ.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «التكوير» المكية أيضاً، مستعينين بالله، والآيات الأولى من هذه السورة الكريمة تَعرض على البشر مشاهد القيامة، مَشهداً مَشهداً، ولا سيما الانقلاب الكوني الشامل، بما يَصحبُه من تغيُّرات مفاجئة في العالم العُلْويّ والعالَم السُّفْلي وذلك قوله تعالى: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾، ثُمَّ قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾، وعن مَشهد النشر والحشر، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾.

وقد ذهب المفسرون لهذه الآيات إلى أن المراد «بتكوير» الشمس إظلامها وذهابُ نورها، و«بانكدار» النجوم انتثارُها، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ (الانفطار: ٢)، و«بتَسْيير» الجبال تحركها من مكانها ونسفُها وزوالُها، وأن المراد «بتعطيل العشار» إهمالُ خِيار الإبل من النُّوقِ

الحوامل، وتركُها من طَرَف أصحابها دون رعاية ولا انتفاع، لانشغالهم عنها، رغماً عن كونهم من أرغب الناس فيها، وأحرصهم على تربيتها، ولفظ «العِشار» يطلق على النُّوق إذا بلغت مدةُ حملها عشرة أشهر، والمراد «بحشر الوحوش» خروجها منزعجةً من أوكارها وأجحارها لهول الموقف، على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ (صٓ: ١٩)، والمراد «بتَسْجِير البحار» اشتعالُها ناراً، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ (الطور: ٦)، والمراد «بكَشْطِ السماء» طَيُّها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى السَّمَآءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلكِتَٰبِ ﴾ (الأنبياء: ١٠٤) والمراد «بتزويج النفوس» جمعُ كل شكل إلى نظيره في الجنة والنار، على غرار قوله تعالى: ﴿ احْشُرُواْ الذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ (الصافات: ٢٢).

وقولُه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، معناه أنه إذا وقعت هذه الأمور كلها فحينئذ سيُكشفَ لكل نفس عما عَمِلت من خير أو شر، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوَ اَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾ (آل عمران: ٣٠).

وانتهى هذا الربعُ بالحديث عن الوحي الإلّهي الذي أكرم اللَّهُ به رسوله وبلغه إليه بواسطة جبريل عليه السلام، وجاء هذا الحديث في صيغة القَسَم، توكيداً لأهميته، وعظيم منزلته، والمقسَم به في هذا السياق هي الكواكبُ التي تَبدُو لَيْلاً لكنها

«تَخنُسُ» بالنهار، وَ«تَكْنِسُ» كالظِّباء فتتوارى عن الأنظار، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾، ثم الليلُ عند إدباره، والصبحُ عند إقباله، ﴿وَالَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، والمقسَم عليه هو كتابُ الله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، أي: أنه لَتبليغ من الله إلى رسوله على لسان جبريل، وبهذه المناسبة وصفت الآياتُ الكريمة ما جَبَل الله عليه جبريل من الخصال الرفيعة، وما أكرمه به من المكانة عنده، فقال تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾، كما وصفت الآياتُ الكريمة ما تحقق من رؤية الرسول ﷺ له مشاهدةً وعياناً: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾.

وخُتمت سورة «التكوير» بالتنويه بكتاب الله، ودعوة العالَمين إلى الاهتداء بهديه والاستنارة بنوره، فقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَـٰلَمِينَ﴾.

الربع الثالث من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾
وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ
مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ
الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ
مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ
عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾
إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا
يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ
مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ
لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم
مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾
كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾
كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ
الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ
آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ
لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا
إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ
مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ
يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾
يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ
الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾
إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ

يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا
رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ
حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾
عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ
مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾
يَٰٓأَيُّهَا الْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا
مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾
وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾
فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيُصَلَّىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ
مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ
بَصِيرًا ﴿١٥﴾

الربع الثالث من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في فاتحة سورة «الانفطار» المكية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، ونهايته قوله جلّ علاه في سورة «الانشقاق» المكية أيضاً: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَّحُورَ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾.

في مطلع هذا الربع، وهو فاتحة سورة «الانفطار» المكية يتناول كتاب الله الحديث عن انفطار السماء، وانتثار الكواكب، وتفجير البحار، وبَعْثَرة القبور، ويشير إلى أن هذه الظواهر الكونية الغريبة التي تُزعزع كيان الكون، وتقلبه رأساً على عقب، سترافقُها وستصاحبُها ظاهرة أخرى تُزعزع كيان الإنسان، لا تقل عنها قوةً ولا تأثيراً، ألا وهي ظاهرةُ كَشْفِ الإنسان عن حقيقة نفسه بنفسه، واطِّلاعُه على دخيلة أمره، حتى لا تبقى زاويةٌ من زواياه، ولا سرٌّ من أسراره، إلّا وقد انكشف له انكشافاً تاماً،

وأُلقيت عليه الأضواء من كل جانب، والإنسان ـ حَسبَمَا ـ يعيش عليه في دنياه ـ يكذِبُ على نفسه كثيراً، ويخيَّلُ إليه غير ما مرة أنه أحسنُ مما هو عليه في الواقع، ويحاولُ أن ينسَى كل ما ارتكبه من سيآت ومُخالفات، وأن يتناسى كل ما يَصُبُّه على غيره من إذايات وإساءات، ويخادعُ نفسه كلما دعته الضرورة إلى خداعها، تفادياً من وَخزِها وتبكيتها، فإذا جاء الموعد لاطِّلاعه على حقيقته كما هي، وظهر عارياً من كل الأصباغ ومساحيق التجميل، التي اعتاد استعمالها لتسترُ ما ظهَر من عيوبه وما بَطَن، فستكون مفاجأتهُ بنفسه على حقيقتها أكبر مفاجأة، وسيخِيبُ ظَنُّه في نفسه، قبل أن يَخِيب ظنُّه فيما كان يُمَنِّي به نفسَه من الجزاء الحسن، وقبل أن يَخيب ظنُّ غيرِه فيه، مِمَّنْ كان يحاولُ أن يظهَر أمامهم في دنياه بمظهر الصلاح والاستقامة وحسن السلوك، فيكتشفون في الآخرة ـ بدورهم ـ أنه إنما كان مجرَد وحش في صورة إنسان، وشبحَ مَلَك في حقيقة شيطان، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَـٰنِ اِلرَّحِيمِ إِذَا اَلسَّمَآءُ انفَطَرَتْ وَإِذَا اَلْكَوَاكِبُ اِنتَثَرَتْ وَإِذَا اَلْبِحَارُ فُجِّرَتْ وَإِذَا اَلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾.

ويتجه الخطابُ الإلَهي بعد ذلك إلى الإنسان المملؤ زَهْواً وغروراً، لَافتاً نظرَه إلى أنه لا ينبغي له أن يبقى سادراً في غُلوائه، متجاهلاً ما عليه نحوَ ربه وخَلْقه من حقوق وواجبات، وإلَى أَنَّ كرمَ الله على الإنسان بنعمة الإيجاد والإمداد أَوْلَى أن يكون حافزاً للإنسان على شكر مولاه وطاعته، والسعِي في

مرضاته، بَدَلاً من أن يكون دافعاً له إلى كفر نِعمه، وجحود كَرمه، وهكذا يُوجِّه كتابُ الله إلى الإنسان، هذا العتاب الإلٰهي الرَّقيق، عسَى أن يُحرِّك في قلبه أوتارَ الإيمان: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾.

ويلتفتُ كتابُ الله مرة أخرى إلى الذين لا يزالون يُكذِّبون بالمعاد والجَزاء، مؤكِّداً لهم أنه قد وكَّلَ بهم ملائكةً يحفظون أعمالهم، فلا سبيل إلى نسيانها، ويُسجلونها بالكتابة، فلا سبيل إلى مَحْوِها، وكأنَّ الحقَّ سبحانه يُغرى عباده في نفس الوقت بالاِستقامة والصلاح والتقوى، حتَّى لاَيُثيروا اشمئزازَ الحَفَظة الكرام وسُخطهم، فضلاً عن أن يُثِيروا بمعاصيهم سُخْط الله وغَضَبه، إذ «المعاصي بَريدُ الكفر»، والمعصية تجُرُّ إلى أختها، ثم تَدْفَع إلى ما هو أكبرُ منها، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ كِرَاماً كَـٰتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾.

وينتقل كتابُ الله إلى التَّذْكِير بمصير الأبرار ومصير الفجار من خلقه، وما أَعَدَّهُ في الآخرة لكلا الفريقين، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلأَبرَارَ لَفِى نَعِيمٍ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾.

وبيَّن كتابُ الله أهمية «يوم الدين»، وهو يوم الجَزاء الأكبر، يومَ تُفصَلُ شؤون الخلائق أمام محكمة العليّ الأعلى القاهرِ فوق

عباده، والذي لا مُعقِّب لحكمه، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾.

ولننتقل الآن بعون الله وتوفيقه إلى سورة «المطففين» وهي مكية في قول ومدنية في قول آخر، وقد سميت بهذا الاسم، لما ذكر فيها من أمر «المطفِّفين»، والمراد «بالمطفِّفين» التجار الذين ينقصون الكيل إذَا كَالوا للناس، وينقصون الوزن إذا وَزنوا لهم بَيْنَما إذا كالوا أو وزنوا لأنفسهم يأخذون أكثر من حقهم، وإذا كان التطفيف في الكيل والميزان يتمشى مع روح «الجاهلية الأولى»، وما عرف فيها من الربا الفاحش والعقود الفاسدة، فإنه لا ينسجم مع روح الإسلام في قليل ولا كثير، ولذلك نزل كتابُ الله بمحاربته، والتنفير منه ومن أصحابه، وتهديدِهم بالخسران والهلاك والوَيْل، فقال تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾.

وتَولَّى كتابُ الله بنفسه تفسيرَ المعنى المُراد «بالمطففين» فقال تعالى في وصفهم: ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾، أي: إذا اكتالوا لأنفسهم من الغير بأن كانوا هم المشترينَ والغيرُ هو البائع أَخذوا حقَّهم بالوَافي والزائد، ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾، أي: وَإذا كالوا أو وزنوا لغيرهم ـ بأن كانوا همُ البائِعين وكان الغيرُ هو المشتري ـ نَقَصُوا من حقه في الكيل والوزن، وأعطوه أَقل مما يستحقُّ، وأَلحَقوا به الخسارة عن طريق «التطفيف».

ثم تَوعَّد الحق سبحانه هؤلاء اللصوص المحترِفين، الذين

يختلسون أموال الناس عن طريق التطفيف في الكيل والميزان، في كل جيل وفي كل زمان، وهَدَّدهم بالحساب العسير يوم القيامة أمامَ الله، فقال تعالى: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾، أي: يوم يكون الناس كلُّهم واقفين أمام الله في موقف رهيب، ينطق كلُّ ما فيه بالعظمة والجلال، ويُوحِي بالرَّهبة والخوف من الكبير المتعال.

ثُم أخذ كتابُ الله يَصِفُ حالةَ «الأبرار»، وحالة «الفجار»، إذ لا عبرة في الآخرة إلّا بهذا الاعتبار. فأما «الأبرار» الذين عملوا الصالحات، واتَّبعوا في حياتهم مقتضى الآيات البينات، فقد نزل في وصفهم وجزائهم ـ ترغيباً في سلوك طريقهم والاقتداء بهم ـ قولُه تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ تَعْـرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْـرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ خِتَـٰمُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَـٰفِسُونَ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾.

وأما الفُجَّار الذين عملوا السيآت وانتهكُوا الحُرُمات، ووقفوا في وجه ما جاءت به النبوات والرسالات، فقد نزل في وصفهم وجزائهم ـ تنفيراً من تقليدهم واتِّباعهم ـ قولُه تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَـٰبَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ الْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ

هَـٰذَا اَلذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾.

وألقتِ الآياتُ الكريمة في هذه السورة بعض الأضواء الكاشفة على السر الدفين، الذي يَدْفعُ الفجار إلى التكذيب «بيوم الدين» ألَا وهو ما هم عليه من الإغراق في الظلم والعُدوان، ومن الاِستغراق في المعاصي والآثام، وهذه الحالة الجُنُونية التي يكونون عليها، ولا ينفكُّون عنها طيلة حياتهم، تجعلُهم حريصين كلَّ الحرص على أن يُبعِدوا عن خيالهم كل الأشباح المُزعِجة، التي تَدِينُهم على ما يرتكبونه من المظالم والآثام، ولو كانت أشباحاً وأحلاماً في المنام، فما بالُكَ بعَذاب الله، الذي ينتظرهم يوم الحساب أمام الله، وإلى هذا المعنى يشير قولُه تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلمُكَذِّبِينَ اَلذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ اِلدِّينِ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ اَثِيمٍ ﴾، أما «المقسِطون» الذين لا يعتدون ولا يظلمون، وأما «الصالحون» الذين لا يَعصُون ولا يأثَمُون، فإنهم يُحبون لقاء الله ويشتاقون إلى يوم اللقاء، أضعافَ أضعافِ اشتياق الظَّمآن إلى الماء. «ومَنْ أَحَبَّ لقاءَ الله أَحَبَّ اللَّهُ لقاءه» كما في الحديث الشريف.

وكشفَ كتابُ الله الستارَ عن الاِستخفاف وَالتَّهوين من «قِيمة المسلمين»، في نظر الكفار، وأنَّ الكفار يضحكون من الذين آمنوا ويستهزؤون بهم، ويعتبرُونهم ضالين عن سواء السبيل، ولا يحملون لهم أدنى تقدير أو احترام، بينما الكفارُ في خاصة أنفسهم يعتزون بما هم عليه، ويعودون إلى بيوتهم وهُم بالمسلمين يَهْزأون، وبأحوالهم يتفكَّهُون، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اَلذِينَ أَجْرَمُواْ

كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴾، إشارةً إلى ما في الكفار من الفضول الزائد، وتتبُّع أحوال المُومنين والاشتغال بهم، وإن كانُوا غير مسئولينَ عنهم.

وقولُه تعالى: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾، يُمكن تفسيره على وجهين:

ـ الوجه الأول: أن مُجازاة الكفار على معاملتهم للمسلمين، بالتنقيص من قدرهم، والاستهزاء بهم ـ وهي موضوع السؤال ـ قد تولاها الحقُّ سبحانه بنفسه، وسيعاقبهم «يوم الفصل» بما يستحقون.

ـ الوجه الثاني: أن يكون السؤال وارداً بمعناه الأصلي، إشارةً إلى أن معاملة الكفار للمسلمين يجب أن يَرُدَّ عليها المسلمون بالمِثل، فيفرضوا احترامَهم على الغير، ولا يسمَحوا للغير بأن يَجعلهم محلَّ استهزاء أو سخرية، وذلك لا يتم تحْقِيقهُ إلّا بالتزام الوصايا الإلّهية والتوجيهات الإسلامية في معاملة غير المسلمين.

ولننتقل الآن إلى سورة «الانشقاق» المكية، مستعينين بالله، والحديث في مطلَعها يتناولُ فَناء العالم، وظواهر الانقلاب الكوني الشامل ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾.

ثم يُوجِّهُ الله تعالى خطَابَه إلى الإنسان الغـافل المُتثـاقل الخُطَى، مذكِّراً له بأن رحلته على ظهر الأرض مهما طالت فهي رحلة قصيرة، وبأنَّ حياته فيها مهما امتدت فهي حَياةٌ عابرة، عِلاوةً على ما في الحياة بطبيعتها من مَتاعبَ ومشاقّ، وشَدائدَ وأهوال، وكَدٍّ وجَهْد، فإن لم يَدَّخِرِ الإنسانُ من يومه لغده، ومن حياته الأُولى لمـا بعدهـا، كانت صفقتُـه صفقة خـاسـرة، وكـان من الأخسرين أعمالاً، ﴿الذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ (الكهف: ١٠٤)، وذلك ما يُشير إليه قوله تعالى: ﴿يَـٰأَيُّهَا الانسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ اِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَـٰقِيهِ﴾، وكأنَّ اللَّهَ تعالى يقول لعبده «الخَاوِى» الوفاض، البادِي الإنفاض» بماذا سَتُلاقي ربّك؟ هل ستلاقيه باليد الفارغة والكتاب الأسود؟ إن الأمر ليس أمر هَزْل، ولكنه أمرُ جِدّ، فَماذا أَنتَ فاعلٌ أيها الإنسان الوَسْنَان؟.

ثم يُعَقِّبُ كتابُ الله على هذا النداء المباشر بذكر أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، ومـا ينالـه كلاَ الفـريقين، عسى أن تتحرك هِمم الكُسَالى المتخاذِلين: ﴿فَأَمَّا مَنُ اوتِيَ كِتَـٰبَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً وَأَمَّا مَنُ اوتِيَ كِتَـٰبَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُوراً وَيُصَلَّىٰ سَعِيراً إِنَّهُ كَانَ فِى أَهْلِهِ مَسْرُوراً اِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَّحُورَ﴾، أي: أنه كان يعتقد أنه لن يـرجع إلى الله، ولن يُبعَث بعـد المـوت، و«الحَوْرُ» هـو الرجوع، ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾.

الربع الأخير من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

فَلَآ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَالَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ
إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾
وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا
يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾
إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾
قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا
قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا
مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي
لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ

جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ

بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ

ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ

ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن

وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۢ ﴿٢٢﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾

إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴿٤﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ

دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾

يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾

وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾

إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾

الربع الأخير من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

عبــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «الانشقاق» المكية: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾، إلى قوله تعالى في ختام سورة «الطارق» المكية أيضاً: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً فَمَهِّلِ الْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾.

أولُ ما يواجهُنا في هذا الربع من كتاب الله هو التلويح بالقَسَم على أنه لَا مَفَرَّ للإنسان من التقلب في عدة أُطوار، خِلال حياته الأولى وعند مماته، ثم في حياته الثانية، طِبقاً لمشيئة الله وحكمته، وقد استعرض كتابُ الله أَمام الإنسان عدةَ مشاهدَ كونية تَدْفَعُه إلى مزيد من التَّأَمُّل والتدَبُّر والاِعتبار، واختار الوحيُ الإلَهي هذه المشاهد هنا من بين مشاهد الليل، لَا مِن بين مشاهد النهار، إِذِ الليـلُ أَجمعُ للفكـر، وظواهـره أَدْعَى إلى التـأمـل العميق، والاعتبار الدَّقِيق، فأَشار كتابُ الله في هذا السياق إلى «الشَّفَق الأحمر» الذي يلاحق غروب الشمس في أول الليل، ويمتد إلى

وقت العِشاء، وَلِمنظره رَوعة وأيةُ روعة، وإِيحاءٌ وَأيُّ إيحَاء.

وأشار كتاب الله في نفس السياق إلى «الليل المظلم» وما يرافقُ قُدومَه من مظاهر وظواهر تختلف كل الاختلاف عَن مظاهر النهار وظواهره، ولظلام اللَيل رهبةٌ وأَيةُ رهبة، وجلالٌ وأَيُّ جلال.

وأشـار كتاب الله في نفس السيـاق إلى «القمر المنيـر»، ولتكامُل نوره إذا استدارَ تأثيرٌ وأيُّ تأثير، وجَمالٌ وأيُّ جمال.

وإذا كانت قُوات الكون كلُّها مسخرةً لله تتحرك بأمره كما يشاء، وتؤدي وظيفتها كما يريد على أحسن الوجوه، إلى ميقاتِ يومٍ معلوم، فهل يستطيعُ الإِنسان، وهو جـزء صغير من هـذا الكون الذي لا يَتجزأ، أَن يُفلِت من قبضة الله، أَو أَن يتحرك على خلاف مشيئته وبعكسِ إرادته؟ إنه لن يستطيع ذلك، ولا بدَّ من أَن يندمج في ناموس الكون العام، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَالَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اَتَّسَقَ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾.

ومعنى قوله تعالى ﴿ وَمَا وَسَقَ ﴾، أي: وما جمع، ومن جُملة ما يجمعه الليلُ الظلام والنجوم والحيوان والإِنسان، عندما يأوِي كلٌّ منهما إلى مأواه، ومعنى قوله تعالى ﴿ إِذَا اتَّسَقَ ﴾، أي: إذا استدار وتكامل نوره، ومَعنى قوله تعالى: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عن طَبَقٍ ﴾، أي: لَتتقلبون في حياتكم من حال إلى حال، منذ بدايتها إلى نهايتها، ومن ذلك أَن يصبح أَحدُكم رضيعاً ثم فَطِيماً، بعدما كان جنيناً، وكهلاً ثم شيخاً، بعدما كان شَابّاً، وأن ينتقل من شدة رَخاء، ومن رَخاء إلى شِدة، ومن فَقْر إلى غِنى، ومن

غِنى إلى فقر، ومن سَقَم إلى صحة، ومن صِحة إلى سَقَم، كما يتضمن قولُه تعالى: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾، معنى ثانياً! وهو ما سيلقاه الإنسانُ بعد موته وحين بعثِه من الشدائد والأهوال، أثناء الحشر والحساب والجزاءِ في عرصات القيامة نفسها. فَمُعَاناةُ الإنسان لهذه الأطوار والأحوال كلها في حياته الأولى وحياته الثانية هي التي عبر عنها الذكر الحكيم هنا «بالرُّكُوبِ»: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ﴾، جرياً على المعهود في اللسان العربي من التعبير «بركوب الأخطار»، إشارةً إلى مُعاناتها وتحمُّلها، والتقلُّب فيها عند الاضطرار، على حد قول الشاعر العربي:

إذا لم تَكُنْ إلّا الأَسِنَّةُ مَرْكَباً فما حِيلةُ المُضطَرِّ إلَّا رُكُوبُهَا

ومن هنا انتقل كتاب الله إلى التساؤل، باستغراب وتعجب، لماذا يُصرُّ الكافرون على عنادهم، ويتمسك الجاحدون بجحودهم، ضاربين صفحاً عن الاستجابة لما يُحييهم، وكتابُ الله يُتلَى أمامَهم، وَيقرعُ أسماعَهم، فقال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُومِنُونَ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾، أي: أن كل ما تعرضه الدعوة الإسلامية على خصومها والمكذِّبين بها من آيات كونية وآيات قرآنية، إنما يَدْفَع إلى الإيمان لا إلى الكفر، وإنما يُعين على إيقاظ الضمير وإثارة الشعور، لا على الغفلة والغرور، ومِن هُنا جاء التساؤل والاستغراب في هذا الباب.

ثم عَقَّب كتابُ الله بما يؤكد أنه عليم بذات الصدور، مُطَّلع على ما يُضمره الكافرون من إصرار على التكذيب وإمعان في الغرور، داعياً نبيَّه إلى إنذارهم بالعذاب الأليم، وتبشير المومنين

بالنعيم المقيم، فقال تعالى: ﴿ بَلِ الذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾، أي أعْلَمُ بما تنطوي عليه صدُورهم، ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ اَلِيمٍ﴾، واستعمال «البشارة» هنا فيه نوع من المُفاجأة والتبكيت، إذ لو رغبوا في «البشرى» على وجهها الصحيح لَسَلَكُوا إليها طريقها الوَحِيدَ، وهو طريقُ الإيمان والإذعان، ﴿ اِلَّا اَلذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمُ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أي: لكنّ المومنين المتقين لهم أجر غيرُ منقوص ولا مقطوع، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود: ١٠٨)، وانتقد ابن كثير قول بعضهم في تفسير آية ﴿ لَهُمُ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أن معناها لهم أجر غير ممنونٍ عليهم، فإن الله عزّ وجلّ له المنة على أهل الجنة في كل حال، وإنما دخلوها بفضله ورحمته، لا بأعمالهم، فله عليهم المنّة دائماً سَرْمَداً.

ولننتقل الآن إلى سورة «البُرُوج» المكية أيضاً، معتمدين على الله.

وهذه السورة الكريمة تتحدث عن قصة «أصحاب الأُخْدُود» وهم فئة من المومنين الأولين كانوا قد آمنوا قبل ظهور الإسلام، وتعرّضوا للتعذيب بالنار على يد الكفار من إخوانهم، عقاباً لهم على إيمانهم.

وقد ابتدأت السورة الكريمة باستعراض جُملة من الأشياء التي ينبغي الوقوف عندها وَقْفَة خاصة، والتأمل فيها وفيما وراءها، بقصدِ الذكرى والاعتبار، ففي مطلَعها إشارةٌ إلى السماء مع

وصفها «بذات البُرُوج» ومعنى «البروج» في هذا السياق حسبما اختارهُ ابن جرير: منازل الشمس والقمر، التي يسير فيها كلّ واحد منهما بنظام مطَّرِد.

وفي مطلَع هذه السورة إشارةٌ إلى «اليوم الموعود» وهو يوم القيامة، وإشارةٌ إلى «الشاهد والمشهود»، و«المشهود» هو ما يَبْرُز يوم القيامة من ظواهر كونية غريبة، وما يجري من أحوال وأهوال في عَرَصاتها، و«الشاهد» هو الخَلْق، الذي يجمعُه الله بعد شَتات وافتراق في صعيد واحد، ليشاهد فَناء العالم، والنشرَ والحشر، والثواب والعقاب، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾.

ثم استعرضت الآيات الكريمةُ قصة «أصحاب الأُخْدُودِ»، والمراد «بالأُخْدُود» هنا الحُفرَةُ التي حفرها الكفار في الأرض وأوقدوا فيها النار، ثم أَلقَوْا فيها المومنين الذين آمنوا بالله، وكفروا بمعتقداتهم الباطلة، من الرجال والنساء، وأَحرقوهُم بالنار، عقاباً لهم، وتنفيراً من عَقيدتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُومِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَنْ يُومِنُواْ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

ولعل السر في الإتيان بهذه القصة هو مواساةُ المومنين المستضْعَفين الذين كان سفهاءُ المشركين يعذبونهم أَشد العذاب بمكة في فجر الإسلام، وتعريفُهم بما سبق للمومنين قبلهم في

عصور قديمة، من التعرض لأنواع الإذاية والتنكيل، وبما آل إليه أمرُ الكافرين الذين عذّبوهم، من سوء العاقبة والعذاب الوبيل، ولذلك جاء التعقيب هنا مباشرة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُواْ الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾، أي: سيُعذَّبون عذاباً أليماً من جنس ما عَذّبوا به المومنين: حريقاً بحريق، وبَطْشاً ببَطش.

وهذه الآية كَمَا يندرجُ تحتها قدماء الكفار الذين حفروا الأُخْدُود لإحراق المومنين قبل الإسلام، تشمَلُ أيضاً مُشرِكِي قريش الذين أَخذُوا يُعذِّبون المستضعَفين من المومنين في فجر الإسلام.

ثم تولَّى كتابُ الله التنويه بالمومنين الذين تحملوا الشدائد والتضحيات في سبيل إيمانهم، دون أن يتنازلوا عن عقيدتهم، وذكَرَ ما نَالُوه عند الله من الفوز الكبير، جزاء تضحيتهم الكبرى، وما أعدَّه الله لهم من النعيم المقيم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾.

وعرج كتابُ الله على جُمْلة من صفات الله وأسمائه الحسنى، التي تبرز فيها وتنعكس من خِلالها آثارُ جماله وجلاله، فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾، فهو سبحانه «غفور» لمن تاب من ذنبه، وأناب إلى ربه.

وهو سبحانه «وَدُود» لمن آثر طاعتَه على طاعة غيره، وكرَّس حياته لاجتناب نهيه وامتثال أمره، وهو «ذُو العَرْش» الذي وسع كرسيُّه السماوات والأرض، وهو «المَجِيدُ» الذي يتضاءَلُ كل شيء أمام عظمته وجلاله، وهو «الفَعَّالُ لِمَا يُرِيد» ذو المُلْك والملَكوت، الذي لا يقف شيء في وجه إرادته وقدرته، ولا يَحُول مخلوق دون تنفيذ مشيئته وَفْقَ حكمته.

وأَشار كتابُ الله إشارةً موجزَة إلى بطش الله الشديد، بفرعونَ وثَمودَ، فقال تعالى: ﴿ هَلَ اَتيٰكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾.

وخُتمت سورة «البروج» بتسفيه مَا عليه الكفار من تكذيب وعناد، وتأكيد أَنهم مهما كفروا وعاندوا فلن يستطيعوا الإفلات من قبضة الله، الذي هو لهم بالمرصاد، وذلك قوله تعالى: ﴿ بَلِ الذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِنْ وَّرَآئِهِم مُّحِيطٌ ﴾، وما دام اللَّهُ سبحانه ﴿ مُحِيطاً بهم ﴾ فهو الذي ينطق بالقول الفصل في شؤونهم جميعاً.

وقولُه تعالى في نهاية السورة: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٌ ﴾، إشارةٌ إلى ما لكتاب الله من منزلة عظيمة ومَقام كريم، وإلى ما تولاه به الحق سبحانه من «الحفظ الخاص»، بحيث لا يلحقه تحريف ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقص، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا اَلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ (الحِجْر: ٩).

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الطارق» المكية أيضاً، مستعينين بالله.

ويتصدر في بدايتها قَسَم من الله عظيم، بالسماء التي رَفَع سَمْكَها، وبالنجم الثاقب الذي أعدَّه ليخترق حُجُب الظلام الكثيفة، بشعاعه النافذِ المُضِيء، وذلك قولُه تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾.

ثم بيَّن كتابُ الله الحقيقة التي أقسم عليها تنويهاً بها، وتركيزاً للأنظار من حولها، ولا سيما أنظار الغافلين المستهترين، ألَا وهي حقيقة «الرِّقابة الإلٓهية الدائمة» الموضوعة على الإنسان، حتى يسلُك سبيل الرشاد، ويتفادَى الوقوع في أشراك الفساد، وذلك قولُهُ تعالى: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾، أي: كلُّ نفس عليها من الله حافظ يراقبُها ويحرُسها ويَرعاها، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (الرعد: ١١).

وأخذَ كتابُ الله يُذكِّر الإنسان بأطوار نشأته الأولى منذ كان نُطفةً من مَنيٍّ تُمْنَى، ويُعرِّفه بأن القدرة الإلٓهية التي أبدعته من لا شيء، وأخرجته من العدم إلى الوجود في الحياة الأولى قادرةٌ كذلك على أن تُخرجه من عدم الموت إلى الوجود في الحياة الثانية، وأنه إن لم يُمْدِدْهُ اللَّهُ بقوته ونصره في الدنيا والآخرة، وتركه مَوْكُولاً إلى نفسه أصبحَ مضربَ المثل في العجز والخذلان التام، وذلك قوله تعالى:

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ، يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾، و«الصُّلبُ» في جسم الرجل، و«التَّرائِب» في جسم المرأة، والمراد «بيَوْمَ تُبْلَى السرائر» يومُ القيامة، الذي تَظهر فيه مكنوناتُ الصدور وخفاياها، فلا تَبقَى سِرّاً من الأسرار.

وخُتمت سورة «الطارق» بقَسَم آخرَ من الله عظيم: «بالسماء» التي يَنزل منها الغَيْث، و«بالأرض» التي يَنبُتُ فيها النبات، والمُقسَمُ عليه هُنا الذي هو محل العِبْرة: هو أَنَّ ما جاء به كتابُ الله في شأن البعث والنشأة الآخرة هو «القول الفصل» الذي لا مرد له، فهو قول حاسم لا يقبل جدلاً ولا تردداً ولا معارضة، وأن كل محاولة للغضِّ من هذه الحقيقة، أو التشكيك فيها، أو الكيد لمَن آمنوا بها ستبوءُ بالخيبة والفشل، وسيكون النصرُ المبين حليف الإيمان والمومنين، والفشَلُ الذريعُ حليف الكفر والكافرين، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ، إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً فَمَهِّلِ الْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾.

الربع الأول من الحزب الستين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَٰنِ اِلرَّحِيمِ

سَبِّحِ اِسْمَ رَبِّكَ اَلْأَعْلَى ﴿١﴾ اَلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾
وَالَّذِي أَخْرَجَ اَلْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً اَحْوَى ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى ﴿٦﴾
إِلَّا مَا شَاءَ اَللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ اَلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴿٨﴾ فَذَكِّرِ
إِن نَّفَعَتِ اِلذِّكْرَى ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا اَلْأَشْقَى ﴿١١﴾ اَلَّذِي
يَصْلَى اَلنَّارَ اَلْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴿١٤﴾
وَذَكَرَ اَسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُوثِرُونَ اَلْحَيَوٰةَ اَلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ
خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي اِلصُّحُفِ اِلْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾

بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَٰنِ اِلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ اُلْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾
تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ ـانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ
لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ
عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾
فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ
مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى
الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾
وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾
فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾
إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾
إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾
هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾
إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ
الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ
طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ
سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا

مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ
إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ
بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحُضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾
وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾
كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ
صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ
ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ
لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ
وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ
رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

الربع الأول من الحزب الستين في المصحف الكريم

عبـــادَ الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب الستين في المصحف الكـريم، وبـدايتُـه فـاتحـة سـورة «الأعلى»: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾، ونهايتُه قوله تعالى في ختام سورة «الفجر» المكية أيضاً: ﴿ يَـٰأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِى فِى عِبَـٰدِى وَادْخُلِى جَنَّتِى ﴾.

وأولُ ما يفتتح به هذا الربع في فاتحة سورة «الأعلى» هو أمـر الله لـرسـولـه وللمـومنين معـه بتمجيـد اسم الله وتنـزيهـه، واستحضار أسمائه وصفاته الحسنى، استحضاراً تاماً وعاماً، وذلك قوله تعـالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾، وذكرُ «الربوبية» هنا يوحي برعاية الله لخلقه، وإحسانه إليهم، وإنعـامه عليهم، رغم مـا هُم عليه من جحـود وعناد، وإضافة «الـرب» إلى «كاف المخـاطَب» الموجـه للرسول عليـه السلام تدل على ما له ﷺ من ارتباط وثيق بالله، وما له من مقام كريم عند الله.

ثم بيّن كتاب الله أن للحق سبحانه على عباده حقوقاً ثابتة في ذِممهم، مقابل نِعَمِهِ المتوالية عليهم، فهو سبحانه الذي انفرد بخلقهم وإبداعهم: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾.

وهو سبحانه الذي حدد لكل مَخلوق رسالته المنوطة به في هذا الوجود، وهداه إلى وسائلها ومسالكها: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾.

وهو سبحانه الذي أكرم الإنسان والحيوان، فوفر لكلٍّ منهما ما يحتاج إليه من أنواع الغِذاء الضرورية للعيش في مختلِفِ فصول السنة، وفي مختلِف أجواء الأرض، الحارة والباردة والمعتدلة: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾، والمراد «بالمَرْعَى» هنا جميع صنوف النباتات والزروع، والشأن في النبات أن يخرج أَخْضر، وهو معنى «أَحوى»، ثم يَذْوِي وَيَيْبَس فإذا هو «غُثَاء».

واتجه الخطاب الإلَهي بعد ذلك إلى خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامُهُ عليهم، ممتناً عليه بأن الله تعالى قد تعهد بإقرائه الذكر الحكيم، كما تعهد سبحانه بإعانته على حفظ آياته البينات، إثْرَ تلقينها له، دون أَن يقرَب ساحته ذهولٌ ولا نسيان: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾، جارٍ على مُقتضى الأدب مع الله، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَاتَشَآءُونَ إِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الانسان: ٣٠)، وقولِه تعالى: ﴿ وَمَاتَذْكُرُونَ إِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (المدثر: ٥٦)، وقولِه تعالى في آية ثالثة:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الكهف: ٢٣، ٢٤)، فمشيئة الله فوق كل شيء، وهي الضمان الأول والأخير لكل شيء.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾، تذكيرٌ للمومنين بوجوب مراقبة الله، ولزوم استشعار ضمائرهم لمراقبته الدائمة باستمرار، فذلك عَوْن لهم على التمسك بالاستقامة، والاعتصام بالتقوى، «والإحسان هو أن تعبد اللَّهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراهُ فإنه يراك» كما في الحديث الشريف.

ثم بَشَّر الحقُّ سُبحانه رسولَه خاتم الأنبياء والمرسلين ببشرى عظيمة لا تَعدِلُها بشرى، ألَا وهي تيسيره «لليُسْرَى»: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾، وهذه البشرى مزدوجة: بشارةٌ بما يُرافِقُ حياتَه ﷺ وحياة أمته من لطف وعناية وتيسير، وبشارةٌ بما يميز شريعته من سَماحة وبُعد عن كل حرج أو تعسير، على حد قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥). جاء في الصحيحن عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمرين إلّا اختار أيسرَهما). وروى البخاري أن رسولُ الله ﷺ قال: «إن هذا الدينَ يُسْرٌ، ولن يُشَادَّ الدينَ أحد إلَّا غَلَبَهُ» وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يَسِّروا ولا تُعسِّروا».

وانتقلت الآيات الكريمة إلى تحديد مهمة الرسول عليه السلام، وأنها لا تتجاوز ـ بالنسبة للمعاندين ـ مجرد تبليغ الرسالة

والتذكير بها، أما ثمرةُ التبليغ ونتيجة الدعوة فأمرهما موكول إلى الله، فمَن اختارَ لنفسه طريق السعادة والهُدى أقبل على دعوته واتَّعظ بها، ومَن اختار لنفسه الشقاء والضلال تجنَّبها، وأقفل قلبه دونها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرِ اِن نَّفَعَتِ اِلذِّكْرىٰ، سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَّخْشىٰ وَيَتَجَنَّبُهَا اَلاَشْقَى﴾.

ثم وصف كتابُ الله «مصير» الشقيّ الذي لم ينفُذ نور الإيمان إلى قلبه، وأنه سيُعذَّب في جهنم عذاباً لا يتمتع خلاله بنعمة الحياة، ولا ينعَم أثناءه براحة الموت، إذ يكون حياً وميتاً في آن واحد، فقال تعالى: ﴿ اَلاَشْقَى اَلذِى يَصْلَى اَلنَّارَ اَلْكُبْرىٰ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيىٰ ﴾.

وبيَّن كتابُ الله طريق الفوز والفلاح، لمن أراد سلوكه من أهل التقوى والصَّلاح، فقال تعالى: ﴿ قَدَ اَفْلَحَ مَن تَزَكّىٰ وَذَكَرَ اَسْمَ رَبِّهِ فَصَلّىٰ ﴾، بمعنى أن الفائز برضوان الله هو مَن أدَّى ما عليه من حقوق لله، وحقوق لعياله، إذْ أَحَبُّ الخلق إلى الله أنفعُهم لعِياله» كما في الحديث الشريف.

«فحقُّ الله» يؤديه بالذكر والصلاة، وما ناسبهما، و«حقُّ الخلق» يؤديه بالصدقة والزكاة وما شابههما، قال قتادة في تفسير هذه الآية: «قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى»، أي: زكى ماله، وأرضى خالقه، وقال أبو الأحوص: «إذا أتى أحدَكم سائل وأنت تريد الصلاة، فلتُقدِّمْ بين يَدَىْ صلاتك زكاة، فإن الله يقول: ﴿ قَدَ اَفْلَحَ مَن تَزَكّىٰ وَذَكَرَ اَسْمَ رَبِّهِ فَصَلّىٰ ﴾، ورُوي عن أمير

المومنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمرالناس بإخراج صدقة الفطر، ويتلو هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، وقال ابن كثير: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾، أي: طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، وتابعَ ما أنزل الله على رسوله، ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، أي: أقام الصلاة في أوقاتها، ابتغاءَ رضوان الله وامتِثالاً لشرع الله.

ثم اتجه الخطابُ الإلٓهي إلى الذين أَسَرتْهم شهواتُ الحياة الدنيا، وأَغرتهم ملذاتُها فَنَسُوا ما وراءها، فقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، إشارةً إلى أن حسن التدبير، وسلامة التفكير، لا ينصحان مَن له مُسْكَة من العقل بإيثار ما يفنى على ما يبقى، وإيثار ما يزول ويَبيد على ما يخلُد ويَدُوم، بل إنهما لَيَنصحانه بأخذ نصيبه من الدنيا، والتزوُّد لنصيبه في الآخرة، إن لم ينصحاه بإيثار آخرته على دنياه، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١).

وخُتمت سورة «الأعلى» المكية بالإشارة إلى ما بين الرسالات الإلٓهية من تَوافُق وتلاحُم وتكامُل وصلةِ رَحِم، فهذه التوجيهات الإلٓهية التي تضمَّنها الذكر الحكيم قد سبق أن نزلت بمضمونها ومحتواها صحفُ موسى وإبراهيم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾، وقدْ سبق في سورة «النجم» إشارةٌ أخرى لصحف إبراهيم وموسى في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ

وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ (النجم: ٣٦، ٣٧).

روى الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود وابن ماجة في سننهما، أنه لما نزلت: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة: ٧٤)، قال رسول الله ﷺ: «اجْعَلُوها في ركوعكم» فلما نزلت: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾، قال: «اجعَلُوها في سجودكم».

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الغاشية» المكية أيضاً مستعينين بالله.

و«الغاشية» من أسماء يوم القيامة، سُمِّيت بذلك لأنها تغشَى الناس وتعُمهم كما قال ابن عباس وغيره، وقد تصدت الآياتُ الكريمة في صَدْر هذه السورة لوصف مشاهد يوم القيامة وأهوالها، وما يكون عليهِ الخلق عند حشرهم في عَرَصاتها، فقال تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾، قال رسول الله ﷺ: «نَعَم. قد جاءني»، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾، أي: هناك طائفة من الناس تعلو وجوههم - يوم القيامة - الذلةُ والكآبةُ، ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾، «عاملة» أي: عملت عملاً أَحْبَطَهُ الله فلم يَقبَله منها ولم ينفعْها به، فهي من الأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، «ناصبة» أي: هي يوم القيامة في نَصَب وتعاسة وشقاء، بالعذاب الأليم الذي تتلقاه، لأنها لم تُقَدِّم بين يديها عملاً صالحاً يقبَله اللَّهُ ويثيبها عليه: ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾، أي: من عين بلغت

أعْلَى درجةٍ في الحرارة والغَلَيان، كما قال ابن عباس وغيره: ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾، و«الضَّرِيع» شجر شائك مسموم، وقال قتادة «هو شرُّ الطعام وأبشعُه وأخبثه».

وهناك طائفة أخرى من الناس يظهر على وجوهها أثر النَّعمة يوم القيامة، وهي طائفة السعداء من المقربين والأبرار، وفي وصفها يقول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾، أي: أنها راضية عن عملها الذي وفقها الله إليه وقدمته بين يديها، ﴿ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ لَّا تُسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةٌ ﴾، أي: لا لغو فيها ولا تأثيم، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلاً سَلَـٰماً سَلَـٰماً ﴾ (الواقعة: ٢٥، ٢٦)، ثم قال تعالى: ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾، وهذا من باب التمثيل والتقريب، إذ فيها «ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر»

ثم أخذَ كتاب الله يَعرض ما أنعم به سبحانه على الإنسان، وما أبْدَعَ صنعه في مختلف الأكوان، تذكيراً بما له سبحانه من الفضل والإحسان، وتنبيهاً على أن هذه النعم تستحق أن تُقَابَل بالشكر والامتنان، لا بالجحود والكفران، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾، وإنما ذُكرت «الإبلُ» في هذا السِّياق من الآيات، لأنها فِعْلاً من

عجائب المخلوقات، فقد ميزهـا اللّٰهُ تعالى على غيـرها بعينين وأذنين ومنخرين لا يوجد لهما نظير عند بقية الحيوانات، لا في شكلهِمَا ولا في وظيفتهِمَا، كما زودها بقوائم طويلة وأقدام منبسطة جعلت منها «سفينة الصحراء» التي تنقل الإنسان وتحمل الأثقال، على امتداد العصور والأجيال مع استغنائها عن الماء لمدة شهرين متتاليين في فصل الشتاء وتَحَمُّلِهَا وطأةَ العَطَش في فصل الصيف، وحملها لكُتَل من الشَّحْم في سَنامها فوق ظَهْرها، دفعاً لغائلة الجوع عنها، وضماناً لاستمرار سَيرها.

وخُتمت سورة «الغاشية» بخاتمة تريح ضمير الرسول عليه السلام، وتحدِّد مهمته في الِاقتصار على تبليغ الرسالة إلى الخلق، وإقامة الحجة عليهم، حتى لا يكونَ للناس على الله حجةٌ بعد الرسل، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرِ اِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ اِلَّا مَن تَوَلّىٰ وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ اَلاَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ على غرار قوله تعالى في آية ثـانيـة: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ (ق: ٤٥)، وقـولـه تعالى في آية ثالثة: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ اَلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا اَلْحِسَابُ ﴾ (الرعد: ٤٠)، وفي ذلك تخفيف عن الرسول ومُواساةٌ له من ربه، فقد كان ﷺ يحزَن حزناً شديداً عندما يرى الضالين مُصرِّين على ضلالهم، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى في (سورة الشعراء: ٣): ﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُومِنِينَ ﴾.

ولننتقل الآن إلى سورة «الفجر» المكية أيضاً، وفي مطلَع هذه السورة قَسَمٌ عظيم بأوقات العبادات، وأنواع من القُرُبات،

التي يتقرب بها إلى الله عبادُه المتقون، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾، أما «الفجر» فمعناه واضح، وأما «الليالي العشر» فالمراد بها عشر ذي الحجة كما قال ابن عباس وغيره. وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس مرفوعاً: (مَامِنْ أيامٍ، العملُ الصالحُ أَحَبُّ إلى الله فيهن، من هذه الأيام)، يعني عشر ذي الحجة، وأما «الشَّفع والوَتْر» فهي الصلاة، بعضُها شفع وبعضها وتر، كما رواه أحمد في مسنده مرفوعاً.

وقولُه تعالى: ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾، أي: لذي عقل ولب، وأنما سمي العقل «حِجْراً» لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى التذكير بمصرع عادٍ وثمود وفرعون، جزاء كفرهم وعنادهم وتمردهم على الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَـٰدِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْاْ فِى الْبِلَـٰدِ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾.

ثم تحدث كتاب الله عما يُدَاخِلُ الإنسان من زَهْو بنفسه إذا نالهُ رخاء، وعما يشعر به من هَوانٍ إذا نزلت به شدة، فقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ابْتَلَىٰهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَـٰنَنِ ﴾، وردَّ

الحقُّ سبحانه على الإنسان حتى لا يعتقد هذا الاعتقاد السخيف، فقال تعالى: ﴿ كَلَّا ﴾، أي: ليس الأمرُ أمرَ إكرام ولا إهانة كما يزعم الإنسان، فإن الله تعالى يُوسِّع الرزقَ لِمَن يُحبُّه ومن لا يُحِبه، ويضيِّق الرزق على من يحبه ومن لا يُحبه، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ أَيَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى اِلْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (المومنون: ٥٥، ٥٦). وكل ذلك منه سبحانه ابتلاءٌ واختبَار وامتحان، لمبلغ ما عند الإنسان من ثقة بالله وإيمان.

وانتقدَ كتابُ الله ما عليه أشرار الخلق من الأَثرة والأنانية، وقسوة القلب، والتلهف على كسب المال من أيِّ وجهٍ كان، وما هُم عليه من شحّ وبُخل وإهمال للبر والإحسان، فقال تعالى: ﴿ بَلْ لَّا تُكْرِمُونَ اَلْيَتِيمَ وَلَا تَحُضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ اِلْمِسْكِينِ وَتَاكُلُونَ اَلتُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً وَتُحِبُّونَ اَلْمَالَ حُبّاً جَمّاً ﴾، وابتدأ كتابُ الله هنا بذكر «اليتيم»، إشارةً إلى رعاية الإسلام رعايةً خاصةً لليتامى لكونهم فقدوا الحنان الأبويّ الذي لا يُعوِّضُه شيء، ولذلك أوصى رسول الله ﷺ باليتامى، وبَشَّر مَن يكفُلهم خيرَ كفالة بمرافقته في الجنة جَنْباً لجَنْب، فقال ﷺ فيما رواه أبو داود في سننه: (أَنَا وكافِلُ اليتيم كهاتَيْن في الجَنة)، وقرن بين إصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام.

ثم عاد كتابُ الله إلى الحديث عن فَناء العالم وقيام الساعة، وحَشر الخلائق للحساب، إمَّا للعقاب وإمَّا للثواب،

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ، يَـٰأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِى فِى عِبَـٰدِى وَادْخُلِى جَنَّتِى ﴾.

الربع الثاني من الحزب الستين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾
لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾
يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ
عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ
ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى
مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾
وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ

وما طحاها ﴿٦﴾ ونفس وما سواها ﴿٧﴾ فألهمها فجورها
وتقواها ﴿٨﴾ قد أفلح من زكاها ﴿٩﴾ وقد خاب من دساها ﴿١٠﴾
كذبت ثمود بطغواها ﴿١١﴾ إذ انبعث أشقاها ﴿١٢﴾ فقال لهم
رسول الله ناقة الله وسقياها ﴿١٣﴾ فكذبوه فعقروها فدمدم
عليهم ربهم بذنبهم فسواها ﴿١٤﴾ فلا يخاف عقباها ﴿١٥﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

والليل إذا يغشى ﴿١﴾ والنهار إذا تجلى ﴿٢﴾ وما خلق الذكر والأنثى ﴿٣﴾
إن سعيكم لشتى ﴿٤﴾ فأما من أعطى واتقى ﴿٥﴾ وصدق بالحسنى ﴿٦﴾
فسنيسره لليسرى ﴿٧﴾ وأما من بخل واستغنى ﴿٨﴾ وكذب بالحسنى ﴿٩﴾
فسنيسره للعسرى ﴿١٠﴾ وما يغني عنه ماله إذا تردى ﴿١١﴾ إن
علينا للهدى ﴿١٢﴾ وإن لنا للآخرة والأولى ﴿١٣﴾ فأنذرتكم نارا
تلظى ﴿١٤﴾ لا يصلاها إلا الأشقى ﴿١٥﴾ الذي كذب وتولى ﴿١٦﴾
وسيجنبها الأتقى ﴿١٧﴾ الذي يؤتي ماله يتزكى ﴿١٨﴾ وما لأحد عنده
من نعمة تجزى ﴿١٩﴾ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴿٢٠﴾ ولسوف يرضى ﴿٢١﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

والضحى ﴿١﴾ والليل إذا سجى ﴿٢﴾ ما ودعك ربك وما قلى ﴿٣﴾

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا
فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾
وَأَمَّا السَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

الربع الثاني من الحزب الستين
في المصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الثاني من الحزب الستين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في فاتحة سورة «البلد» المكية: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴾، إلى قوله جلّ علاه في ختام سورة «الضحى» المكية أيضاً: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾.

وفي بداية هذا الربع، وهو فاتحة سورة «البلد» المكية، قَسَم عظيم من الله تعالى على حقيقة واقعية تُجْمِل حياةَ الإنسان من بدايتها إلى نهايتها، وكتاب الله عندما يأتي في سُوَرِه بهذه الأنواع من القَسَم يتوخى أمرين اثنين:

ـ الأمر الأول: لَفْت نظر المومنين والناس كافة إلى الأهمية الخاصة التي تكون للشيء المُقسَم به في حد ذاته، فَالتنبيهُ إليه، وتركيزُ الفكر حوله، مدْعَاةٌ إلى التأمل فيه تأملاً كافياً يُعين على تحقيق الغرض المطلوب.

ـ والأمر الثاني: لَفْتُ نظر المومنين والناس كافة إلى الحقيقة الكبرى التي تنعكس من خلال المعنى المُقسَم عليه، فإدراك تلك

الحقيقة والتعمقُ فيها هو الهَدَف الرئيسي للقَسَم من أصله، بما يحتوي عليه من صيغة القَسَم والمقسَم به والمُقسَم عليه.

والمُقسَم به هنا في فاتحة هذه السورة «هذا البلد»، أي: مكة «أم القرى» حيث يوجد بيت الله الحرام، أولُ بيت وضع لعبادة الله وتوحيده في الأرض، وحيثُ يلتقي جميع الناس في أمن وسلام، ودماءُ بعضهم على بعضٍ حَرام.

ويُدرج كتابُ الله في سياق هذا القَسَم بالذات إقامة رسوله عليه السلام بنفس البلد، واستقرارَه به، إشارةً إلى تكريم الله تكريماً جديداً لمكة، بجعلها في نهاية المطاف مَهْد الرسالة، ومَنزِلَ الوحي، والمقرَّ الأول لسكنى خاتم الأنبياء والمرسلين، وكأَنَّ الأقدار الإلٰهية تُلوِّح هنا بأن «آية الإيمان» هي التي ستستقر بمكة إلى الأبد، وأنها ستمحو ظلمة الشرك من شِعابها وبطاحها، فتعود مياهُ التوحيد إلى مجاريها، على ملة إبراهيم الخليل، وابنه إسماعيل، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ. لَا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾، يمكن أن يَكون إشارة إلى نعمة التوالد والتناسل، التي أنعم الله بها على كثير من خلقه، كما يُمكِن أن يَكون إشارة خاصة إلى إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل، فالوالد هو إبراهيم، والولد هو إسماعيل، ولا يخفي ما في هذه الإشارة من التناسب والانسجام، مع نفس السياق في هذا المقام، فقد كان إبراهيم الخليل هو باني البيت الحرام، بمساعده

ابنه إسماعيل عليهما السلام.

وأما الحقيقة المُقسَم عليها فهي أن الإنسان منذ أن يستقر جنيناً في بطن أمه وطيلةَ حياته إلى حين وفاته، لا ينفكُّ عن مكابَدَة المتاعب، ومواجهة الشدائد، وتحمل المشاق، من طور إلى طور، ومن مرحلة إلى أخرى، ولا يُهَوِّنُ من ضغط هـذه الحقيقة التي تفرض نفسهـا على كل إنسـان أن تختلف طرقُ الكفاح باختلاف الناس، فلكـل صنف منهم متاعبُـه الخاصـة، وكفاحه الدائم، الذي لا ينتهي إلّا بـانطفـاء جذوة الحيـاة في الجسم وحلول الأجل، والهدَفُ المتوخى من تذكير الإنسان بهذه الحقيقة التي تستغرق كلَّ حياته هو تنبيهه إلى أنه إذا كان ولا بد سيكابِدُ متاعب الحياة الدنيا، لينتقل منها إلى مكابَدة متاعب أشدَّ هولاً منها في الحياة الثانية، فإنه سيكون أخسر الخاسرين، ولذلك ينبغي له أن يعمَل عملاً صالحاً في دنياه، حتى يلقَى اللَّهَ وعنده من الحسنات، ما يَضَعُ حداً نهائياً لِمتاعبه المعتادة في حياتـه الأولى، وبذلك يستأنف حياة ثانية كلُّها نعيم مقيم، ورضوان من ربه الكريم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا اَلانسَـٰنَ فِى كَبَدٍ اَيَحْسِبُ أَن لَّنْ يَّقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً اَيَحْسِبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾، وها هنا يَنْعَى كتاب الله على البخلاء الإشحاء بخلَهم وشحهم بالإنفاق في سبيل الله، إذ ينفقون أموالهم في غير وجهها المشروع، وكلما دُعُوا إلى الإنفاق في وجوه البر والإحسان تبجحوا بأنهم قد أنفقوا مالاً كثيراً، ﴿ مَالاً لُّبَداً ﴾، وإن كان ما أنفقوه إنما صرفوه في الشهوات والملذات، وفي المعاصي

لا في الطاعات، وينسَوْن أنَّ الله سائلهم عما استخلفهم فيه من المال، من أين اكتسبوه، وأين أنفقوه، وأنهم سيحاسَبون عليه حساباً عسيراً.

ثم أخذ كتاب الله يستعرضُ مِنَنَه على الإنسان الذي هو مَدِينٌ لخالقه بكل شيء، وذكَرَ على سبيل المثال العينين اللتين يُبصر بهما، واللسانَ الذي يُعبِّر به، والشفتين اللتين يستعِين بهما على الكلام وأكل الطعام، بالإضافة إلى ما في تكوين كل عضو من أعضاء الإنسان عموماً من دِقة الصنع، وإبداع التكوين، وغرابة التركيب، مما لا يستطيع أيُّ مخلوق أن يصنع مثله، ولا أن يُبدِع نظيره، لا مِن الأولين ولا من الآخرين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ﴾.

وأضاف كتابُ الله إلى هذه النعم نعمةَ العقل والتفكير التي أكرم بها الإنسان، وجعلها وسيلةً في متناوَل يده، ليميز بِهَا الخير من الشر، والحق من الباطل، والضلال من الهدى، وهذه النعمةُ التي وهبها له الحق سبحانه هي مَناط التكليف والتشريف، ومَناط الثواب والعقاب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَـٰهُ النَّجْدَيْنِ ﴾، أي: طبَعنا طبيعته على استعداد مزدوج: استعدادٍ للخير إن اختاره، واستعدادٍ للشر إن أراده، و«النجدان» نَجْدُ الخير ونَجْدُ الشر، أي الطريقان المؤديان إليهما. ورُوي عن ابن عباس أنه فسر «النجْدَين» بالثديين، بمعنى أن الله هدى الإنسان بمجرد خروجه من بطن أُمه إلى التقام ثَدْيَيْها، إلهاماً منه وإحساناً. ويشهد

للتفسير الأول ـ وهو الذي رجَّحه ابن جرير ـ قولُه تعالى في آية أخرى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعاً بَصِيراً، إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ (الإنسان: ٢، ٣).

وقولُه تعالى: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوِ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾، حَضٌّ من الله لعباده المومنين على مُغالبة أنفسهم، والتغلُّب عليها بسلُوك طريق النجاة والخير. والمراد «باقتحام العقبة» اقتحامُ الحواجز النفسية والمادّية، التي تحول دون الإيثار والبر والإحسان، والإقبالُ على الإنفاق في سبيل الله، ومن وجوه الإنفاق الصالحة: المساعدةُ في عتق الأرقاء، وكَفالةُ اليتامى، وإطعام المساكين.

وبيّنَ كتابُ الله أن مما يُساعِد على اقتحام العقبات والتغلب عليها: الإيمانَ بالله، والتواصيَ فيما بين المومنين «بالصبر والمَرْحَمَة»: الصبر على القيام بالتكاليف التي تُعزِّزُ الإيمان، وتجعل المومنين كالبُنيان المرصوص يشُدُّ بعضُه بعضاً، والمَرْحَمَة التي تجعل من مجتمعهم مجتمعاً تسوده الرحمة ويعمُّه الإخاء، ويبرز فيه التكافل بين كافة الفقراء والأغنياء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾، ثم بَشَّر كتاب الله الذين آمنوا، وبَرَزت في أخلاقهم ومعاملاتهم رُوحُ الإيمان، بأنهم سيكونون يوم القيامة من أصحاب اليمين المنعَّمين، ﴿ أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾، وأنذر الذين

كفروا بالله وكفروا بنِعَمه بأنهم سيكونون في ذلك اليَوْم من أصحاب الشمال المعذبين، ﴿ وَالذِينَ كَفَرُواْ بِئَايَـٰتِنَا هُمُ أَصْحَـٰبُ الْمَشْئَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّوصَدَةٌ ﴾، أي: نار مُطبِقة عليهم لا محيد لهم عنها.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الشمس» المكية أيضاً مستعينين بالله.

وهذه السورة الكريمة يتصدرها قَسَم من الله بالشمس والقمر، والنهار والليل، والسماء والأرض، والنفس ذات الاستعداد المزدوج، ومَنَاطُ القَسَم فيها هو تأكيدُ طبيعة النفس البشرية، وزيادةُ التعريف بمِيزَتها الخاصة، ألا وهي استعدادها في كل وقت للميل نحو الخير، وللميل نحو الشر، فإذا مالت نحو الخير كانت نفساً زكية طاهرة، وإذا مالت نحو الشر كانت نفساً شقيّةً قَذِرة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَـٰنِ اِلرَّحِيمِ وَالشَّمْسِ وَضُحَيٰهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَيٰهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّيٰهَا ﴾، أي: جلى البسيطة وأنار أرجاءها، ﴿ وَالَيْلِ إِذَا يَغْشَيٰهَا ﴾، أي: يَغْشَى البسيطة فتظلمُ آفاقُها، ﴿ وَالسَّمَآءِ وَمَابَنَيٰهَا وَالاَرْضِ وَمَاطَحَيٰهَا ﴾، أي: بسطها ودَحاها، نظير قوله تعالى في آية أخرى، ﴿ وَالاَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَيٰهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَيٰهَا ﴾ (النازعات: ٣٠، ٣١)، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَاسَوَّيٰهَا ﴾، أي: ما خلقها عليه من الفطرة المستقيمة، نظير قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اَللَّهِ اِلتِى فَطَرَ اَلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اِللَّهِ ﴾ (الروم: ٣٠)، ثم قال تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَيٰهَا ﴾، أي: جعلها قادرةً على التمييز بين خيرها

وشرها، ﴿ قَد أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾، أي: فاز من نمَّى في نفسه استعداد الخير، وطهَّر نفسه بطاعة الله وتقواه، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾، أي: خَسِر من أضعف في نفسه روح الخير، وأقبل على المُوبقات والمعاصي.

وبهذه المناسبة عرض كتاب الله نموذجاً من نماذج النفوس الشريرة، فتحدث عن أشقى رجل من ثمود قام «بعقر الناقة» عصياناً لله ورسوله، رغم تَحْذِير صالح عليه السلام، وقد سبق الحديث عن «نَاقَة صالح»، وموقف قومه منها بتفصيل في سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة الإسراء، وسورة الشعراء، وسورة القمر، ثم تجددت الإشارة إليها في هذه السورة، فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ إِذِ اِنْبَعَثَ أَشْقَىٰهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اَللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾، أي: احذروا أن تمَسُّوا ناقة الله بسوء، أو تتعرضوا لها في يوم سقياها، ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾، أي غضب الله عليهم وأهلكهم بجُرْمِهم جميعاً، ﴿ فَلَا يَخَافُ عُقْبَىٰهَا ﴾، أي: أَنَّ عاقر الناقة لم يكن يُقَدِّرُ عاقبة ما صَنَع. أو المراد: أن الله تعالى لَا يَخاف تَبِعَةَ أَحد، على حد قوله سبحانه: ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٣).

ولننتقل الآن إلى سورة «الليل» المكية أيضاً، وفي بداية هذه السورة قَسَم من الله بالليل والنهار، وبخَلْق الذكر والأنثى، والمُقسَم عليه فيها أمر يتعلق بالإنسان الذي هو مِحْور الرسالة ومِحْور التكليف: ذلك أن الإنسان بحكم طبيعته مختلِف الميول، متعدِّد الاتجاهات، متباين الاستعدادات، وليس لجميع أفراده

استعدادٌ واحدٌ، ولا مؤهلاتٌ واحدة في جميع المجالات، ومن أجل ذلك يختلف اتِّجاهه، ويختلف تقـديرُه، ويختلف عملُه، ويختلف سعيُه، ويختلف جزاؤُه، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾.

ومعنى ﴿ منَ أعطى واتَّقى ﴾ من بذل من نفسه وماله ابتغاءَ وجه الله، ومعنى ﴿وصَدَّق بالحُسنى﴾ من وثِق بما عنـدَ الله من العاقبة الحسنة والجزاء الحسن، ومعنى ﴿اليُسْرَى﴾، أن الله تعالى يُيَسر أموره ويسهِّل عليه بلوغ مقاصده دون شدة ولا عَنَت، ومعنى ﴿مَن بخِل واستغْنَى﴾، من بخل بما أعطاه الله، وخُيِّلَ إليه أنـه مُستغنٍ عن الله، فلم يؤد حقوق الله ولا حقوق العبـاد، ومعنى ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ من أساء الظن بالله، وَلَمْ يَثِقْ بما وعده به من العاقبة الحسنة والجزاء الحسن، ومعنى ﴿ فَسَنُيَسِّـره للعسرى ﴾ سنخـذلُه ولا نـوفِّقه، وسيصـطَدم في طريقـه بكـل المعـوقـات والعراقيل، والتعبير عن هذا المعنى بلفظ «التيسير» مثل التعبير بلفظ «التبشيـر» في قولـه تعـالى: ﴿ فَبَشِّـرْهُم بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (آل عمـران: ٢١)، من باب التبكيت والتنكيت، ومعنى ﴿ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾ إذا هلك وهَوَى في الدَّرك الأسفل من النار.

ثم بيَّنَ كتابُ الله أَن عناية الله بالإنسان عنايةٌ بالغة، ومن أجل ذلك، أَرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكُتبُ، وله بعد ذلك

أن يختار لنفسه ما يَشاء، وأن يتحمَّل تَبعَة اختياره في دار الجزاء، فإما أن يكون ﴿ أَتْقَى ﴾، وإما أن يكون ﴿ أَشْقَى ﴾، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى لَا يَصْلَيْهَآ إِلَّا الأَشْقَى الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِى يُؤتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾.

ولننتقل الآن إلى سورة «الضحى» المكية أيضاً، وهذه السورة تُعبِّر عن رعاية الله لرسوله من فوق سبع سموات، وتُسَجِّل ما يتمتع به من رضى مولاه وتأييده في الشدة والرخاء، وفي بدايتها قَسَم «بالضُّحى والليلِ إذا سَجَى». و«الضُّحى» وقت ارتفاع النهار وامتدادِ الشمس، و«سَجَى» بمَعْنى سَكَن وَهَدَأ، والمُقسَم عليه فيها هو أن الله تعالى يَرْعَى نبيَّه بعين رعايته التي لا تَنام، وأنه لا يُمكِن أن يَجْفُوَ رسولَه عليه السلام، ولا أن يَكِلَه إلى نفسه، بعدما اختاره لرسالته، وأعدَّه لِحمل أمانته، وأَنَّ ما ادَّخرَهُ له سبحانه من الفضل والعطاء، يتجاوزُ العَدَّ والإحصاء، ويَفُوق كلَّ ما يؤمله من الثواب والجزاء، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالضُّحَى وَالَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾، أي: ما أبغضك وما هَجَرك، ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾.

ثم اتجه الخطابُ الإلَهي إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، يُذكِّره بما رافق حياتَه منذ بدايتها وفي جميع أطوارها من العناية الربانية والمَدَد الإلَهي، مؤكِّداً له «أن الكريم إذا بدأ كَمَّل»،

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَئَاوىٰ وَوَجَدَكَ ضَآلّاً فَهَدىٰ ﴾، أي: وجدك «يتيماً» فسخَّر لك من يَحْنُو عليك ويقف بجانبك في السراء والضراء ووجدك «ضالًّا» بين قوم سيطرت عليهم «الجاهلية»، وأنت تتلمَّسُ طريقَ الهُدى: فعصَمك من جاهليتهم، وأعدَّك لتكون رسولَه إلى العالمين على غرار قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّن اَمْرِنَا، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الِايمَانُ ﴾ (الشورى: ٥٢). ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾، أي: أكرمك بقناعةِ النفس وغِنَى القلب، فلم تُلهِك الدنيا ولا شهواتُها ولا مطامعها.

وخُتِمت هذه السورة الكريمة بالدعوة إلى كَفالة اليتيم والإحسان إليه، وإكرام السائل والعطف عليه، والتحدث بنِعَم الله التي أنعم بها على رسوله والمومنين، وعلى رأسها نعمة الإيمان والإسلام، والذكر الحكيم الذي أنزله الله رحمةً للعالمين، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا اَلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾، أي: اكفُلْه وقرِّبْه وأصلح أمره. ﴿ وَأَمَّا اَلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾، أي: إمّا أن تُعطيه مما أعطاك الله، أو تَعِدَه، أو تردّه ردّاً جميلاً بكلمة طيبة ويندرج تحت هذه الآية السائلُ عن دينه من أجل البيان والمعرفة. ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾، أي: اشكر إحسان الله إليك وإنعامه عليك، بالجوارح واللسان والجَنان.

الثمن الأول من الربع الثالث في الحزب الستين بالمصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي
أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾
إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ
سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ

أَلِانسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ اُسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلرُّجْعَىٰٓ ۝٨
أَرَءَيْتَ أَلذِے يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا اِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى أَلْهُدَىٰٓ ۝١١
أَوَ اَمَرَ بِالتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ أَللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤
كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ
نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ أَلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝١٩

بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَٰنِ اِلرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِے لَيْلَةِ اِلْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرِيٰكَ مَا لَيْلَةُ اُلْقَدْرِ ۝٢
لَيْلَةُ اُلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنَ اَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ اُلْمَلَٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ
فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ اِلْفَجْرِ ۝٥

الثمن الأول من الربع الثالث في الحزب الستين بالمصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الثُّمُن الأول من الربع الثالث في الحزب الستين بالمصحف الكريم، ويشتمل هذا الثمن على سورة «الشَّرْح» وسورة «التِّين» وسورة «العَلَق» وسـورة «القَدْر»، وكلها سُـوَر مكية، وبدايتُه قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اِللَّهِ اِلرَّحْمَٰنِ اِلرَّحِيمِ اَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾، ونهـايتُه قـوله جلّ علاه: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ اِلْفَجْرِ ﴾.

وسورة «الشرح» المكية التي هي فاتحة هذا الثُّمُن تتضمن خطاباً من الحق سبحانه لنبيه، فيه مناجاةٌ له من ربه، تنسجمُ كل الانسجام، وتتناسب كل التناسب، مـع الخطاب الإلٓهي الـذي وجهه إليه في سورة «الضحى» قَبْلها، حتى لَكأنهُما سورةٌ واحدة في موضوع واحد.

وأولُ ما يُسجله الخطاب الإلٓهي في هذه السورة ما آتاهُ الله لنبيه مِنْ رحابةِ صدرٍ، وانشراح خاطرٍ، وهدوءِ بالٍ، وطمأنينةِ قلبٍ حتى يستطيع أن يواجه مسؤوليات الرسالة الملقاةَ على عاتقه، ويتحملَ أعباءها برضىً تام وعزم راسخ، وذلك ما يشير إليه قولُه

تعالى في خطابه لنبيه: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾، وإن «شرح الصدر» بالنسبة لأي إنسان كيفما كان، لدليلٌ على هداية الله له وتوفيقه في الحياة، ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَمِ ﴾ (الأنعام: ١٢٥)، فما بالك بمقام الرسول عليه السلام.

وثاني شيء يسجله الخطاب الإلٓهي في هذه السورة ما آتاه الله من صبر جميل، وقدرة خارقة على مواجهة الشدائد، ومعاناةِ المتاعب، في سبيل تبليغ الرسالة الإلٓهية، وإعلانِ الدعوة الإسلامية، رغمَ مُعارضة أقطاب الشرك، ومقاومة قادة الوثنية، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾، أي: خففنا عنك العَناء الذي أثقل ظهرك، وأعنَّاك على حَمله، بما أمددناك به في كل حين، من تيسير وصبر وثبات ويقين.

وثالث شيء يسجله الخطاب الإلٓهي في هذه السورة ما أكرم الله به نبيه من الذكر الجميل الخالد على مر الدهر: الذكر الخالد في اللوح المحفوظ والمَلأ الأعلى، والذكر الخالد في أرجاء الأرض شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾، وإلى هذا المعنى ينظرُ قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ (الزخرف: ٤٤).

وهل هناك ذكر أجمل وأرفع من ذكر اسمه بعد اسم الله، كلما تحركت بذكر الله الشفاه، (لا إله إلّا الله، محمد رسول الله)،

وهل هناك ذكر أجمَل وأرفع من ذكر اسمه من أعلى ملايين المآذن الشاهقة، المرتفعة في دنيا الإسلام الواسعة، عند النداء لكل صلاة، (أشهدُ أن لا إله إلّا الله، أشهدُ أن محمداً رسول الله). قال قتادة: «رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهِّد ولا صاحب صلاة إلّا يُنادِي بها: أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله».

وهل هناك ذكرٌ أجمل وأرفع من ذكره عليه السلام في مَجْمَع الأنبياء والمرسلين، وهو لا يزال في عالَم الغيب في أصلاب آبائه الأولين، ومِن أَخْذِ اللَّهِ على أنبيائه ورسله ميثاقاً غليظاً بالإيمان به وبدعوته، وتأييده ونصرته، مِصْداقاً لقوله تعالى في سورة (آل عمران: ٨١): ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ النَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّٰهِدِينَ﴾، وفي مثل هذا المقام قال حسان بن ثابت:

أغرُّ عليه للنبوة خاتَم — من الله من نور يَلُوحُ وَيَشْهَدُ
وضمَّ الإلَهُ اسمَ النبيِّ إلى اسمه — إذا قال في الخمس المؤذنُ «أشهدُ»
وشَقَّ له مِن اسمِه ليُجِلَّه — فذُو العرش «محمودٌ» وهذا «محمدُ»

ثم انتقل كتابُ الله إلى تبشير الرسول والمومنين بأنهم إذا واجهتْهم شدة في الحياة، وكانت وجهتهم في أعْمالهم خالصةً لوجه الله، فإن العناية الإلَهية تتعهد دائماً بتحويل شِدَّتهم إلى رَخاء، وعُسرِهم إلى يُسر، وإذَنْ فلا ينبغي لهم أن يَقنَطوا من

رحمة الله، ولا أن يُسيئوا الظنَّ بالله، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً ﴾، قال قتادة: (ذُكِر لنا أن رسول الله ﷺ بَشَّر أصحابه بهذه الآية فقال: «لن يغلب عُسرٌ يُسْرَيْن»، ذلك أن لفظ «العسر» وَرَد مُعرَّفاً في الحالين، فهو «واحد»، وأن لفظ «اليُسر» ورد منكَّراً في كلا الموضعين، فهو «متعدد»، «فالعسر الأول» هو عين الثاني، و«اليسر الثاني» زائد على «اليسر الأول».

واتجه الخطاب الإلّهي مرة أخرى إلى الرسول السلام، يأمره بمواصلة الكفاح والعمل في سبيل الدعوة دون انقطاع، بحيث أنه كلما فرغ من أمر تصدى لما بعده، ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾، إذ أن أعباء الرسالة متعددة، وتكاليف الدعوة متنوعة، ووجوه النشاط الإسلامي متسلسلة يُسلِمُ بعضُها لبعض. وقد وَفَّى الرسولُ عليه السلام بما عاهد عليه الله، فلم يَذُق طيلة عهد الرسالة للراحة طَعْماً، ولم ينتقل إلى الرفيق الأعلى حتى ترك من ورائه عقيدة راسخة، وشريعة قائمة، ودولة حاكمة.

ودعا اللَّهُ نبيَّه في ختام هذه السورة إلى أن يجعل همَّه الأكيد في كل أعماله ومساعيه ابتغاءَ مرضاة الله، والتقربَ إليه دون سواه، بكل تجرد وإخلاص، ودون أي اعتبار خاصّ، وذلك قولُه تعالى في إيجاز وإعجاز، والخطابُ له وَلكل مومن من أمته: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «التِّين» المكية أيضاً، معتمدين على الله.

وهذه السورة الكريمة يتصدَّرُها قَسَمٌ عظيم «بالتين والزيتون، وطُورِ سِينِين، ؛ والبلد الأمين» والمِحْور الذي يدورُ عليه القَسَم فيها هو خَلْقُ الإنسان، وما يتعرض له في حياته من فوز أو خِذْلان، وربح أو خسران.

فالله تعالى يمتنُّ هنا على الإنسان بأنه قد خلقهُ أحسن خَلق، وأبدعه أكمل إبداع، وميَّزه بمَزايا خصوصية على غيره من أنواع الحيوان، عسَى أن يَعرِف فضل الله عليه، فيتحلَّى بحلية الإيمان، عن اقتناع وإذعان، ويُقبِل على طاعة الله بكل اغتباط وامتنان، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾، ونقَل ابنُ كثير عن بعض الأئمة أن المُقسَم به هنا هي مَحَالّ ثلاثة، بعَث اللَّهُ في كل واحد منها نبيّاً مرسلاً من أُولى العزم، أصحاب الشرائع الكبار، فالأول مَحَلُّ التِّين والزيتون وهو بيت المقدس، حيث بعث الله عيسى ابن مريم، والثاني طُورُ سِيناء، حيث كلَّم الله مُوسَى بْنَ عِمران، والثالث مَكَّة، وهي البلد الأمين، الذي مَن دخله كان آمناً، حيث بُعِث فيه محمدُ بنُ عبد الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثم ينبِّه كتابُ الله إلى أن الإنسان قد يسيء إلى نفسه بتصرفه تصرُّفَ السفهاء، فيما آتاه الله من طاقات، وملَكات، ومُمتلكات، فيتخذُها ذريعةً للكفر والفساد، بدلاً من اتخاذها عَوْناً على الإيمان والصلاح، ويترَدَّى من قِمة المكارم والفضائل، إلى هُوَّة الفساد والرذائل، وإذ ذاك يَنزِلُ بمحض اختياره من أعلى

علّيّين، فيعاقبه الله على ذلك، ويجعلُه أسفلَ سَافلين، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾، سُئل مجاهد عن الخطاب الوارد في هذه الآية، هل هو مُوَجَّه إلى النبي ﷺ؟ فقال: «مَعَاذَ الله، إنما عُنِي به الإنسان». وهكذا قال عكرمة وغيره، أي: أن الخطاب مُوَجَّه إلى ابن آدم عُموماً، وإلى من يُكذِّب بيوم الدِّين على وجه الخصوص.

وخُتمت هذه السورة الكريمة بذكر ما يَنعَمُ به في الجنة المومنُون، من الأجر الْمُتواصل غير الْمَمْنُون: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾، كما خُتِمت بالتنويه بحكمة الله البالغة، التي لا تماثِلها حكمة، وبحكم الله العادل، الـذي ليس كمثله حُكْم: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾، بَلَى. وإنا على ذلك مِنَ الشاهدين.

ولننتقل الآن إلى سورة «العَلَق» المكيـة أيضاً: مستعينين بالله.

ومطلع هذه السورة الكريمة هو أول نَفْحَةٍ من نفحات السماء المباركة، التي نزلت على خاتم الأنبياء والمرسلين، شفاءً لما في الصدور ورحمةً للعالمين، حيث تَلقَّى الرسولُ عليه السلام من ربه لأول مرة تكليفَه بالرسالة، ونزلَ عليه هذا القِسْمُ الأولُ من القرآن الكريم، الذي هو «براعة الاستهلال» لِدينه القويم، فقال تعالى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ • ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ

اَلانسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ، اِقْـرَأْ وَرَبُّكَ اَلاكْـرَمُ اَلذِى عَلَّمَ بِـالْقَلَمِ عَلَّمَ اَلانسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾، وتعليقاً على هذه الآيات الكريمة قال ابن كثيـر: «أول شيء نـزلَ من القـرآن هـذه الآيـات الكـريمـات المباركات، وهي أولُ رحمةٍ رحم الله بها العباد، وأولُ نعمةٍ أنعم بها عليهم، وفيها التنبيهُ على ابتداء خلق الإنسان من عَلَقة، وأنَّ مِن كَرمِه تعالى أن عَلَّم الإنسان مـا لم يَعْلَم، فشرَّفـه وكرَّمـه بالعلم، وهو القَدْرُ الذي امتـاز به أبو البرية آدم عن الملائكة، والعلم تارَةً يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبَنان، فهو ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي ـ نسبةً للرسم والكتابة ـ يستلزمهما من غير عكس».

فقولُه تعالى: ﴿ اَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾، توجيهٌ من الله لرسوله إلى أن «القراءة» هي شعار الإسلام البارز، المميِّز له من بين الأديان، وتنبيهٌ إلى أن دعوته تقوم على أساسها، وتنتشر بقـدر انتشارها، فهي دعوةُ هداية ونور، لا دعوةُ ضلال وظلام.

وذكرُ «اسم الله» هنا تعريفٌ بأن الله وحده هو منبَع الهداية والنور، فحيثما كانت الحُجة البالغة، والبرهانُ الساطع، والعقيدةُ الصحيحة، والشريعة السَّمْحة، فَثَمَّ وجهُ الله جلّ جلاله، وهناك اسمُه الأعلى. وحيثما كـانت الأوهام والأَبـاطيل، والمعتقـدات الفاسدة والأَضاليل، فهناك الأَصنام والأوثان، وأولياء الشيـطان، وطواغيتُ الجَهَلة من بني الإنسان، التي لا يجتمع معها اسم الله في أيِّ مكان. ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اَللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُـوبُ اَلذِيـنَ

لَا يُومِنُونَ بِالَاخِرَةِ، وَإِذَا ذُكِرَ اَلذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (الزمر: ٤٥).

وقولُه تعالى: ﴿ اَلذِى خَلَقَ خَلَقَ اَلاِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾، إشارةٌ ـ أولاً ـ إلى صفة «الخَلْق» البارزة، التي هي إحدى صفات الكمال الإلَهي، والتي بفضلها، كان بدأ الخليقة من أصلها، وكان العالَم العُلويُّ والعَالَم السُّفلِيّ وَفْقَ تصميمها، وإشارةٌ ـ ثانياً ـ إلى خَلْقِ الإنسان، الذي توّج الله بخلقه نشأةَ الأكوان، وجعله مِحْوَر الرسالة، ومُستودَع الأمانة، ومستقرَّ الخلافة، ومن أجل هدايته أرسل الرسل وأنزل الكتب: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيىٰ مَنْ حَيِيَ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ (الأنفال: ٤٢).

وقولُه تعالى: ﴿ اِقْرَأْ وَرَبُّكَ اَلاَكْرَمُ ﴾، حَضٌّ من الله لرسوله والمومنين على مُواصلة القراءة باستمرار ودون انقطاع، لأنها إكرام عظيم من الله للإنسان، لا تتحقق إنسانيتُه على الوجه الكامل إلّا بتحققها واستمرارها على مَرِّ الزمان.

وقولُه تعالى: ﴿ اَلذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾، تعريفُ للرسول والمومنين بقيمة «القَلَم» عند الله، وأثرَه العميق في تهذيب الإنسانِ وتمدينه وتحضيره، وحفظ تراثه الفكريّ عَبْر القرون والأَجيال، وإشارةٌ إلى الدور العظيم الذي سيلعبُه القلم في إنشاء الحضارة الإسلامية العَريقة، ﴿ اَلذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾، ولولا القَلَم الذي أكرم الله به الإنسان، وهداه إلى اكتشافه واستعماله، لبقيَ الإنسانُ عبارةً عن حيوان أعجم، لا رَصِيدَ لهُ من الثقافة ولا من الحضارة، ولا أَثرَ له في سِجلّات الحياة.

وقولُه تعالى: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾، امتنانٌ من الله على الإنسان، أيِّ: إنسان كان، بأنه سبحانه هو منبع العلم ومصدر المعرفة، فهو ـ أولاً ـ الذي جَهَّز الإنسان بجميع الحواس والمَلَكات والطاقات القابلة للتعليم، والملائمة لإدراك المعلومات وتصوُّر الحقائق، وهو ـ ثانياً ـ الذي يَفتحُ لعباده بِقَدَرٍ ما يَشَاءُ من مُغلَقات الأسرار في الوجود، فتتفتحُ عيونُهم وعقولُهم كل يوم على حقائق جديدة، ومعلومات مفيدة، ولو لم يَكْشِفها لهم بنوره لَمَا اكتشفوها إلى الأَبد، على حَدِّ قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾، (طه: ١١٤)، فمصدر التعليم الأول والأخير هو الله العليم الحكيم، الذي أحاط بكل شيء علماً.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى وصف ما يُصيب الإنسانَ من انحراف في السلوك، وخبال في التصور، وما يضيفُه إلى ذلك كلِّه من تثبيطِ غيره عن العمل الصالح، فقال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾.

وعقَّب كتابُ الله على ذلك بإنذار خطير وجَّهَهُ إلى الإنسان الطاغي، الباغي على الخلق المنحرف عن الحق، فقال تعالى: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾، أي: لنجعلنَّ في ناصيته سِمَةَ سَوَادٍ تَفضَحُهُ يوم القيامة بين الناس، ﴿ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ، فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾، أي: فليدعُ قومَه وعشيرتَه لينصروه، إن كانوا

يستطيعون له نصراً، لكنهم لن يستطيعوا، ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾.

ووَجَّه كتابُ الله الخطاب إلى المومن الذي يُثَبِّطُه غيره عن العمل الصالح، محذِّراً إياه من طاعة المُثَبِّطين، والسَّير في ركاب المُعَوِّقين، داعياً إيّاه إلى الثبات على الإيمان، والاعتصام بحبل الله في كل آن، فقال تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِبْ ﴾.

ولننتقل الآن إلى سورة «القَدْر» المكية أيضاً، معتمدين على الله.

وهذه السورةُ الكريمة تبيِّن فضل ليلة القدر ومكانتَها عند الله، بما دَشَّنَتْهُ القدرة الإلٓهية فيها من نزول الوحي على رسول الله ﷺ، فكانت ليلة مباركة، عَمّت بركتُها الإنسانية جمعاء.

و«ليلةُ القدر» هي إحدى ليالي شهر رمضان، الذي فرض الله صيامه على المسلمين شكراً لله، واحتفاءً بذكرى نزول القرآن: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾.

وإنما سميت «ليلة القدر» لما أُعلِن فيها من تقدير الله وتدبيره الحكيم، ولما لها عند الله من القِيمة الكبرى والمقام العظيم، وقيل إنها سميت بذلك لأن الله أنزل فيها كتاباً «ذا قَدْر»

على رسول «ذِى قَدْرٍ»، لأُمة «ذات قَدْر»، فهي «ليلة القدر» العظيم، والفضل العميم، وإليها يشير قوله تعالى في سورة (الدخان: ٣): ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْراً مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

وفي فضل قيامها ورد في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِر له ما تَقدَّمَ من ذنبه». وفي الحض على تَحرِّيهَا ورد في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «تَحَرَّوْا ليلةَ القدر في العشر الأواخر من رمضان».

الثمن الثاني من الربع الثالث في الحزب الستين بالمصحف الكريم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ
ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ﴿٣﴾
وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿٤﴾
وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ
وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي
نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيٓـَٔةِ ﴿٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيٓـَٔةِ ﴿٧﴾
جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾
وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾
بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا
لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾
فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ
لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ
الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾

الثمن الثاني من الربع الثالث في الحزب الستين بالمصحف الكريم

عبـــاد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الثُّمُن الثاني من الربع الثالث في الحزب الستين بالمصحف الكريم، ويشتمل هذا الثُّمُن على سورة «البيّنة» وسورة «الزلزلة» وسورة «العاديـات»، وبدايـة هذا الثمُن قولُه تعالى في فاتحة سورة «البينة»: ﴿ لَمْ يَكُنِ الذِينَ كَفَرُواْ مِنَ اَهْلِ اِلْكِتَـٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَاتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾، ونهايتهُ قوله تعالى في سورة «العاديات»: ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ اِلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾.

أوّلُ ما تتحدث عنه سورة «البينة» هو التعريف بموقف الكافرين والمشركين من رسالة خاتِم الأنبيـاء والمرسلين، ذلـك الموقف المضطرب المتناقض، فقد كان أهل الكتاب على أَثَارة من العلم بالرسول «الخاتم»، وكان المشركون يبرِّرون ما هم عليه بعـدم إرسال رسول إليهم مثل غيرهم، فلما جاءهم رسول من عند الله جحَدوا الرسالة وكذَّبوا الرسول، وبدلاً من أن يتدبروا ما جاء به من الآيات البينات، وينصرفوا عما هم عليه من فاسد المعتقدات، حسبما كان منتظَراً، أصرّوا على ما هم فيه من الضلال، ولم يَنفكوا عن المُمَاحَكَـة والجدال، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَاتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾.

وتعريفاً «بالبَيِّنة» التي جاء بها الرسول، وتأكيداً لأن ما جاء به كلُّه دلائل واضحة وبراهين ساطعة من المحسوس والمعقول، قال تعالى: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً ﴾، أي: يقرأ عليكم صُحُفاً منزهة عن كل المَطاعِن والشُّبُهات، ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾، أي: فيها آيات مكتوبة كلها ناطقة بالحق، مستقيمة لا عوج فيها، على غرار قوله تعالى في سورة (الكهف: ١): ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً ﴾.

ثم خصّ كتاب الله بالذكر «أهل الكتاب» من اليهود والنصارى لعِظَم مسؤوليتهم، فقد كانوا على علم بظهور الرسول «الخاتِم» والرسالة «الخاتِمة»، وكانوا يُبشِّرون المشركين ببعثته ورسالته، مبيِّناً ما آل إليه أمرُهم بعد ظهور الرسول والرسالة من الجحود والإنكار، والحَسَد والاستكبار، مما كان له أثرٌ كبير على المشركين في التمسك بشركهم، اقْتداءً بتمسك الكافرين بكفرهم، فقال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَـٰبَ إِلَّا مِن بَعْدِمَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾، والمراد «بتفرقهم» تفرقهم عن الحق، أو تفرقهم فِرَقاً، فمنهم من آمن، ومنهم من أنكر، ومنهم من عرف الحق وعاند.

وانتقلَ كتابُ الله إلى التذكير بمضمون الدعوة الإسلامية،

والتعريف بجوهرها وفحوَاها، وأَنها دعوةٌ جامعة للناس أجمعين، إلى عبادة الله وحده، وإفراده بالطاعة والعبودية، وأداءِ حقوق الله ـ وعلى رأسها إقامة الصلاة ـ وأداء حقوق العباد ـ وعلى رأسها إيتاء الزكاة ـ مع الإخلاص لله في القول والعمل، والابتعاد عن كل ما هو باطل وفاسد، نيةً واعتقاداً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى، مذكراً أهل الكتاب بما أُمِرُوا به في الكُتُب المُنَزلة: ﴿وَمَا أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ﴾، أي: لا يميلون إلى الباطل من قريب ولا من بعيد، ﴿وَيُقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ الزَّكَوٰةَ﴾، ثم قال تعالى منوِّهاً بدين الحق والمبادىء السامية التي يدعو إليها، ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾، أي: ذلك دين الملة المستقيمة، ودين الشريعة المستقيمة.

وتَولَّى كتابُ الله في هذا السياق التعريف «بخير الخَلْق» والتعريف «بشَرّ الخَلْق»، وما يكون عليه كلا الفريقين في الدنيا والآخرة من حق أو باطل، وسعادة أو شقاء، فقال تعالى واصفاً لحال الأشرار في كل عصر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ اَهْلِ الْكِتَٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيٓئَةِ﴾، أي: هم شرار الخلق، وقال تعالى واصفاً لحال الأخيار في كل جيل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيٓئَةِ﴾، أي: هم خيار الخلق، ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، أي: جناتُ استقرار وإقامة ودَوام، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْاَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾، أي: مقيمين فيها باستمرار، ﴿رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾، أي: حقق لهم جميع الأماني، ثم خَلَع

عليهم رداء الرضوان الذي لا سَخَط بعده أبداً، «ورضوان من الله أكبر، ذلك هو الفوز العظيم» (التوبة: ٧٢) ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾، أي: رضوا بالله ربّاً، وبالإسلام دِيناً، وبمحمد نبيّاً ورسُولاً، وشكروا إحسان الله إليهم، ونِعَمَهُ عليهم، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾، أي: إن هذا الجزاء الحسن إنَّما يناله من اتقى الله حق تقواه، وعَبَدَه كأنه يراه، وعَلِم أنه إن لم يَرَه فإنه يراه.

وبعد الانتهاء من سورة «البينة» المدنية تستقبلنا سورة «الزلزلة»، وهي مكية على الأرْجح، وهذه السورة تُصوّر حالة الإنسان، وما يكون عليه من الذهول والفزع عندما تقوم الساعة، التي هي «يوم الفزع الأكبر»، ويُحشرُ الناس من كل مكان للجزاء والحساب، والثواب والعقاب، وذلك قوله تعالى بعد البسملة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، أي: إذا زلزلت الأرض زلزالَها الذي لم يَسبق له مثيل، وأُضيف «الزلزال» إلى «الأرض» لأنه «زلزال كلّيّ» يعمُّ الكوكب الأرضيّ بأسره من أدناه إلى أقصاه، لا «زلزال» جُزْئيّ» يخصُّ جانباً منهُ دون آخر، ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، أي: لفَظَت ما في جوفها من الدفائن والخزائن، والكنوز والمعادن، وألقَتْ ما في بطنها من أفلاذِ كبدها، وحشَرَتْ مختلِف الأحياء الذين يُوجَدون بها إلَى سطحها، ﴿وَقَالَ الْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾، أي: أن الإنسان على العموم يُفاجَأ بما يواجهه من أحوال وأهوَال لم يسبق له أن عَايَنها من قبل، «وليس الخبرُ كالعِيان»، «فالمومن بالبعث» إنما يتساءل متعجِّباً مما يراه من الهول العظيم، و«الكافر بالبعث» يتساءل مستنكِراً قيامَ الساعة نفسِه، لأنه كان

يعتقدُ أنه مجردُ أسطورة من أساطير الأولين، الأول يقول: ﴿ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (يس: ٥٢). والثاني يقول: ﴿ يَـٰوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ (يس: ٥٢).

وقولُه تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾، فَسَّرَهُ ابن مسعود والثوري وغيرهما بأن يَخلُقَ اللَّهُ في الأرض نفسها حياةً وإدراكاً، فتشهدُ بما عُمِل عليها من صالح أو فاسد، وفسَّرَهُ ابنُ جرير وغيرُه بإحداث الله تعالى في الأرض أحوالاً تقوم مقامَ التحديث باللسان، حتى يَنظرَ من يقول: «مالها» إلى تلك الأحوال، فيعْلَم أن هذا هو ما كانَ الأنبياءُ يُنذرون به ويُحدِّثون عنه، ومعنى الآية عند الزمخشري: «تُحدِّث أخبارها بسبب إيحاء رَبِّكَ لها، وأمرِه إيَّاها بالتحديث» ومعنى «أوحى لها» ألهمهَا، أو أذِنَ لها.

وقولُه تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾، أي: ليُحاسَبوا، يمكن تفسيره على وجهين كِلاهُما صحيح: ـ الوجه الأول ـ يَصْدُر الناسُ عن مخارجهم من القبور إلى موقف الحساب، فُرادَى، كلٌّ واحد وحْدَهُ لا ناصر له ولا معين، مِصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (الأنعام: ٩٤). ـ والوجه الثاني ـ يَصْدُر الناس عن موقف الحساب متفرقين حسب أعمالهم، بين سعيد يُومَر به إلى الجنة، وشَقِيٍّ يُومَر به إلى النار، وقال السدّي: «أشتاتاً»، أي: فِرَقاً، ﴿ فَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾، أي: يَرَه في كتاب حسابه ويَسُرّه ما يَراه، ﴿ وَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾، أي:

يَرَهُ في سجِلّ حسابه ويُحزِنُه ذلك، وفي الأَثر: «من زادتْ حسناتُه على سيآته مثقالَ ذرة دَخَلَ الجنة». ورَوَى أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إيـاكم ومُحَقّـرات الذنوب، فإنهنَّ يجتمعْنَ على الرجل حتى يُهْلِكْنَهُ».

والآن وقد فرغنا من تفسير سورة «الزلزلة» نستعين بالله على تفسير سورة «العاديات» المكية، وهي ثالثُ ـ وآخرُ سورة في هذا الثُّمُن، وفي مطلعَها قَسَم من الله عظيم، بالخيل التي جعلها الله قوةً للجهاد في سبيله، والدفاع عن دينه، فكانت عُدَّةَ الفتوحات الإسلامية في مختلِف بقاع الأرض، وذلك قوله تعالى بعد البسملة: ﴿ وَالْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحاً فَالْمُورِيَـٰتِ قَدْحاً فَالْمُغِيرَٰتِ صُبْحاً ﴾، أقسمَ بخيل الغُزاة المجاهدين في سبيل الله، «العادياتِ ضَبْحاً»، أي: التي تجري وتَعْدُو عند سيرها، و«تَضْبَـحُ» أثناء عَدْوِها، و«الضَّبْحُ» هو الصوت الذي يُسمع من جوف الخيل حين تَعْدُو، «المُوريَاتِ قَدْحاً»، أي: التي ينقدحُ الشَّرَرُ من حوافرها إذا أَصابَتْ سنابكُها الحجارةَ بالليل، «المُغِيراتِ صُبْحاً»، أي: التي تُغير على الأعداء وقت الصباح، ولا تُباغتهُم في ظلام الليل، وقد كان رسول الله ﷺ يُغير صباحاً ويستمعُ الأذان، فإن سمع أذاناً أمسك وإلّا أغار.

وقولُه تعالى: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾، وَصْفٌ لما يقوم به فُرسان الإسلام، وتقوم به خيلهم، من إثارة الغبار، عندما تُقبل على ساحة المعْركة، فتتوسط جُموعَ الأعداء، وتخترق صفوفهم بكل شجاعة وحماس.

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾، هذا هو الشيء المُقسَم عليه وجَوابُ القسم، وكأنَّ كتاب الله يريد أن يقول: إن نِعَم الله على الإنسان لا يُحصيها عَدّ، وفي مقدمتها تمكينُه من وسائل القوة والظَّفر، وتسخيرُ الحق سبحانه وتعالى له طاقاتِ الحيوان والبشر، وبالرغم من ذلك فإن الإنسان يتنكَّرُ لنِعَم اللَّه، ويَصرِفُها في غير مَحلها، ويتصرَّفُ فيها تصرُّف المستهترين السخفاء، والطُّغاةِ السفهاء، فمعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾، إنه لجاحدٌ لنعمة ربه، كافرٌ بها، غيرُ شاكرٍ لها، وقال الحسن: «الكَنُود هو اللائِمُ لربه الذي يَعُدّ المصائب، وينسَى نِعَم الله عليه». ومعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾، إن الجاحدَ لنعمة الله لَيشهَدُ على جحود نفسه بنفسه، إذْ لا يَستطيع تكذيبَ ما ينطقُ به لسانُ حاله، وما يتجلَّى في أقواله وأفعاله، ومن ذلك قولُ الشاعر: «فكلُّ إناء بالذي فيه يَنْضَحُ»، ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾، إن الإنسان تميل نفسه إلى حب المال، والبخل به، والشحّ في إنفاقه، و«الخير» هنا بمعنى المال، على غرار قوله تعالى في سورة (الفجر: ٢٠): ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾. قال ابن كثير: «وفي معنى هذه الآية مذهبان: أحدهما: أن المعنى، وإنه لشديدُ المحبَّة للمال ـ والثاني: أن المعنى، وإنه لحريصٌ بَخِيلٌ، من أجْلِ مَحبتِه للمال، وكلاهما صحيح».

الثمن الأول من الربع الأخير في الحزب الستين بالمصحف الكريم

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾
وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ
النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾
فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ
كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾
ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢
يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ
فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ
اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧
إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ
كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣
تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥

الثمن الأول من الربع الأخير في الحزب الستين بالمصحف الكريم

عبـــاد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الثُّمن الأول من الربع الأخير في الحزب الستين بالمصحف الكريم، وهذا الثُّمن من كتاب الله يشمل بقية سورة «العاديات» وسورة «القارعة» وسورة «التكاثر» وسورة «العصر» وسورة «الهُمَزَة» وسورة «الفيل»، وكلها سور مكية.

وأول هذا الثُّمن يحتوي على ختام سورة «العاديات» التي تناول الحديثُ فيها جحودَ الإنسان لنعمة ربه، رغماً عما يتقلب فيه من الهبات الإلّهية، والعطايا الربانية، التي لا حدّ لها ولا حصر، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اَللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (إبراهيم: ٣٤).

ففي ختامها تساءل كتابُ الله هل بلغ الجهل والغرور بالإنسان، الكافر بالله، الجاحد لنِعَمه، إلى حدّ أن يتجاهل ما هو مُقبلٌ عليه ـ أحبَّ أم كرِهَ ـ من مفارقة القبر بعد نزوله، وانتقاله منه، بعد سكناه الموقتة، إلى دار البقاء والخلود، ليُحاسَب فيها على ما أَصَرّ عليه من الكِبْر والجحود: ﴿ اَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى اِلْقُبُورِ ﴾، أي: إذا أُخرِج مَن كان مقبوراً فيها من الأموات،

﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى اِلصُّدُورِ ﴾، أي: أُبرزَ ما كان مكتوماً فيها من النيات والسرائر، ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾، أي: أنه سبحانه سيُفاجِىء الناسَ يوم القيامة، بأنه كان مطَّلِعاً على جميع أعمالهم وتصرفاتهم، وأنه سيُحاسبُهم عليها بمقتضاها، ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ (الكهف: ٤٩).

ومن هنا ننتقل إلى سورة «القارعة» المكية، و«القارعة» أحدُ الأسماء التي تُطلَق في كتاب الله على يوم القيامة، كالحَاقّة، والطَّامّة، والصَّاخّة، والغَاشِيَة، وفي هذه السورة يَصِفُ الحقُّ سبحانه بعضَ أهوال الساعة ومشاهدِها الرهيبة، ولا سيما ما يصيب الإنسانَ عند قيامها من ذهول واضطراب، وما يُصيب الجبالَ من نَسْف وخراب، وما ينالُ السُّعداءَ والأشقياءَ من ثواب وعقاب، وذلك قوله تعالى بعد البَسملة: ﴿ اِلْقَارِعَةُ مَا اَلْقَارِعَةُ وَمَآ أَدْرِيٰكَ مَا اَلْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ اِلْمَبْثُوثِ ﴾، أي: يوم يكون الناس في حَيرة وذهول، متفرقين شَذَرَ مَذَر، كالفَراش الذي أعشى النورُ بصرَهُ، فانتشر من حوله، وتراكَم بعضُه على بعض، لا يدرِي ماذَا يَصنع، ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ اِلْمَنْفُوشِ ﴾، أي: تُصبح الجبال التي كانت أوتاداً صلبة تُرسِي الأرض في منتهى الرَّخاوة واللِّين والتفتُّت، كأنها صُوفٌ منفوشٌ تذرُوه الرياح، ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾، أي: فأما مَن رَجَحت حسناتُه على سيآته، فثقُلَت كفَّةُ الحسنات في ميزانه، فهو في عيشة خالدة يَرْضَى عنها اللّهُ، ويَرْضَى عنها عَبدُه كل الرِّضَى، إِذْ يَرَى فيها وفاءً من الله بوعده، ﴿ إِنَّ اَللَّهَ لَا

يُخْلِفُ المِيعادَ﴾ (آل عمران: ٩)، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾، أي: وأما من رَجَحت سيآته على حسناته، فخَفَّتْ كفّةُ الحسناتِ في ميزانه، فالنارُ هي أمُّه ومأْوَاه كما قال ابن زيد وقتادة، وبذلك يكون قولُه تعالى هنا: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَاهِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾، تفسيراً قرآنياً «للهاوية». وَلِتَصَوُّرِ ما عليه النارُ من درجة الحرارة، أعاذنا الله منها جميعاً، يكفِي أن نعرف قول رسول الله ﷺ في شأنها: «نارُ بني آدم التي تُوقِدُون جُزءٌ من سبعينَ جُزءاً من نار جهنم»، رواه البخاري وأحمد.

ولننظر الآن في تفسير سورة «التكاثر» المكية مستعينين بالله، وهذه السورة يدور الحديث فيها عن استغراق الغافلين، في شؤونهم المادية، ومصالحهم الشخصية، حتى يدركهم الأَجل، وهم لم يتزودوا لآخرتهم بأيّ زاد من العمل الصالح، وفيها تأكيدٌ للخلق، وتعريفٌ لهم بأنهم سيُسألون يوم القيامة عمّا آتاهم الله من فضله، وسيُحاسَبون على النقير من نِعَمِه والقِطْمِير، وذلك قولُه تعالى بعد البسملة: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، أي: ألهاكم الاِنهماكُ في التفاخُر والتكاثر من الأموال والأولاد عن طاعة الله، وأداء حقوقه وحقوق خَلْقه، ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، أي: حتى أتاكم الموت ودُفِنْتُم في القبور، دون أن تُقدِّموا بين أيديكم ما ينفعكم عند الله.

والتعبيرُ هنا بلفظ «زُرْتُم المقابر» دون التعبير مثلاً «بسَكَنتم المقابر» فيه إشارةٌ واضحة إلى أن إقامة الإنسان في قبره بعد الموت إنما هي مجردُ إقامة موقتة، شبيهةٍ بالزيارة أياماً معدودة،

لا سكنَى مستمرة، أما منزله الذي سيسكُنه وسيستقر فيه فهو إمّا الجنة وإما النار. عن ميمون بن مهران قال: «كنت جالساً عند عُمر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿ أَلْهَيكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾، فلبث هنيهةً ثم قال: «يا ميمون ما أَرَى المقابرَ إلاّ «زيارة»، وما للزّائر بُدٌّ من أن يرجع إلى منزله» قال أبو محمد: «معنى أن يرجع إلى منزله، أي: إلى جنة أو إلى نار».

وقولُه تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، هذا وعيدٌ مضاعَف من الله تعالى للغافلين عن آخرتهم، الشاكِّين في بعثهم وحسابهم، وقولُه تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اَلْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ اَلْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اَلْيَقِينِ ﴾، هذا تفسير من الله للوعيد الشّديد الذي توعّد به الشاكّين والكافرين، وفيه تأكيد بالغٌ لما سينالهم من عذاب الله، جزاءَ شكِّهم وكفرِهم، و«عين اليقين» درجةٌ زائدة على «علم اليقين»، إذ هي «الرؤيةُ التي هي نفس اليقين وخالِصَتُه».

وقولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ اِلنَّعِيمِ ﴾، هذا تأكيدٌ قويٌّ لأن الله سبحانه سَيتولى سؤال عباده عن كل ما تقلَّبُوا فيه من النعم أثناء حياتهم في الدُّنيا، ومن تلك النعم الأمنُ والغنى، والشّبَع، والظّلّ، والنوم، واعتدالُ الخَلْق، وصحةُ الأبدان، وسلامةُ الأسماع والأبصار. قال مجاهد: «النعيم عبارة عن كل لذة مِن لذات الدنيا»، وقال ابن عبّاس: «يسألهم الله عن نِعَمِه فِيمَا استعمَلُوها، وهو أعلمُ بذلك منهم»، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اَلسَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾

(الإسراء: ٣٦). رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قرأ: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾، ثم قال: (يقول ابنُ آدم مالِي مالِي، وهل لك من مالك إلَّا مَا أكلْتَ فأفنيْتَ، أو لبِسْت فأبلَيْتَ، أو تصدقتَ فأمضيْتَ)، رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي. ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يتبَعُ الميتَ ثلاثةٌ، فيرجعُ اثنان ويبقَى معهُ واحد، يتبعُه أهلُه ومالُه وعملُه، فيرجعُ أهلُه ومالُه، ويَبقَى عمله»، رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

ولنستقبل الآن سورة «العصر» المكية أيضاً، ومَدارُ الحديث في هذه السورة على التعريف بالقِيمة الحقيقية لحياة الإنسان، والإشارةُ إلى أن العبرة في حياته إنما هي بنوع المساعي التي يسعى فيها، والتصرفات التي يتصرفها، خَيْراً أو شَرّاً، صلاحاً أو فساداً، وفي هذه السورة قَسَم من الله «بالعصر»، وهو مفرد العصور، والمراد به الزَّمَن الذي يقطعه الإنسانُ في حياته، وتقع فيه شتَّى حركاته وتصرفاته. وكما ذكَر كتابُ الله هنا لفظ «العصر» الذي هو مفرد العصور، ذكر في آية أخرى لفظ «الدهر» الذي هو مفرد الدهور.

والمُقسَم عليه هنا هو اثبات أنّ الإنسان يَظَلّ خاسراً لنفسه ولحياته، ولا يُعتبرُ من الفائزين المفلحين، إلّا إذا تحوّل من إنسان جاحِد، فاسدٍ، أنانيّ، إلى إنسان مومنٍ بالله، قائم بالعمل الصالح، متمسكٍ بالحق، «ومُوصٍ» لغيره بالتمسك به، معتصم بالصبر، و«مُوصٍ» لغيره بالاعتصام به، وذلك قوله تعالى بعد «البَسملة»: ﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾، وقد كتب عُمر بن الخطاب إلى أَبِي الحسن الأشعري يقول: (عليك بالصبر، واعلم أن الصَّبر صبران أحدهما أفضلُ من الآخر، الصبرُ في المصيبات حَسَن، وأفضل مِنهُ الصبرُ عَمَّا حَرّم الله تعالى). وقال علي بن أبي طالب: «بُني الإيمانُ على أربع دعائم: اليقين، والصبر، والجهاد، والعدل».

ومن هنا ننتقِلُ إلى سورة «الهُمَزَة» المكية أيضاً، معتمدين على الله.

وهذه السورة يدور الحديث فيها على تنفير المومنين من الغِيبة والنميمة، ومن الطعن في الناس والازدراء بهم قولاً أو فعلاً، وفيها وعيدٌ شديد من الله بالعذاب الأليم، لمن يتخذ من أعراض الناس وأحوالهم مجالاً للتنقيص والازدراء، وذلك قولُه تعالى بعد البسملة: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾، أي: هَلاكٌ وخَسارٌ لكل هَمَّاز لَمَّاز، و«الهمَّاز اللمّاز» من يزدري الناس بقوله أو بفعله، بعينه أو لسانه أو يده، قال ابن عبّاس: «هُمَزة لُمَزة أي طعَّان مِعْياب» وقال الربيع بن أنس: «الهُمَزَةُ يهمِزُه في وجهه، واللمَزَةُ يلمِزُه من خَلْفه».

وقولُه تعالى: ﴿ اِلذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ يَحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾، هذا وعيد من الله بالخصوص لأولئك الذين يطغيهم الغِنَى والمال، فينظرون إلى مَن دونهم من الفقراء، نظرةَ التحقير والازدراء، ويتخذون منهم مادَّة رخيصة لسُخريتهم وهَمزهم ولَمْزهم من أجل كونهم ضعفاء، ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِى اِلْحُطَمَةِ وَمَآ

أَدْرٰيكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْئِدَةِ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾، أي: مُقْفَلةٌ عليهم بحيثُ لا يفارقونها، ﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾، أي: في قيود ثقيلة لا يُفلتون منها.

ولنُلقِ الآن نظرةً على سورة «الفيل» المكّية أيضاً، وهذه السورة تتضمنُ امتناناً من الله على رسوله بأحَد «الإرْهَاصات» الكبرى التي سبقت ولادتَه ونبوتَه، فقد عزم «أَبْرَهَةُ الحبشي» على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود قبيل ولادة الرسول عليه السلام، وأقبل على مكة في جيش عَرَمرم تتقدَّمُه الفِيَلة، وعلى رأسها فيلُ أبرهة نفسه، وكان فيلاً ضخم الجُثة لم يُرَ مثلُه، فلما وجهوه نحو «الكَعبة» بَرَك في مكانه، واستعصى عليهم أمرُه، رغماً عن ضربه ضرْباً مبرِّحاً، وكان كلما وجَّهوه نحوَ الجهات الثلاث الأخرى يُهرول ويسير، حتى إذا ما وجهُوهُ نحو «الكعبة» صاح وبَرَك من جديد، وامتنع من السير، وبينما هم كذلك إذ أرسل اللَّهُ عليهم طيراً مِنَ البحر أمثال الخطاطيف، مع كل طائر ثلاثةُ أحجار، كل حَجَر دون حبّة الحمص وفوق حَبّة العَدَس، واحد في منقاره واثنان في مخْلَبَيْه، ولم تُصِب تلك الأحجار أحداً منهم إلاّ هَلَك في الحين، فخرج من بقي منهم يبتدرون الطريق هاربين، وبقيت الكعبة رابضةً في مكانها خالدةً إلى يوم الدين.
قال ابن إسحاق: «حدّثني يعقوب بن عتبة أنه حُدِّثَ أن أول ما رؤيت الحصْبَة والجُدَرِيّ بأرض العرب ذلك اليَوْم، فلما بعث اللَّهُ محمداً ﷺ كان فيما يَعُدّ على قريش من نِعَمِه عليهم وفضلِه ما رَدَّ عنهم من أمرِ الحبشة» وقال ابن كثير: «ان هذا من باب

الإرهاص والتوطئة لِمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام وُلِد على أشهر الأقوال، ولسانُ حال القَدَر يقول: «لَمْ نَنصـركُمْ يا معشر قريش على الحَبَشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانةً للبيت العتيق الذي سنشرِّفُه ونعظِّمُه ونوقِّرُه ببعثة النبي الأمّيّ محمد ﷺ خاتم الأنبياء؟» وذلك ما يشيرُ إليه قولُه تعالى خطاباً لنبيه وامتناناً عليه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴾، أي: أبطل كيدَهم، وخيَّب سعيهم، يقال: «ضلَّلَ كيدَه» إذا أبطلَه وجعله ضـائعاً، ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ﴾، أي: أسْراباً متتابعة، ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾، أي: طين مـطبوخٍ بـالنار مختلطٍ بحجَـر، ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾، أي: كالتبن الذي جُزَّ لعَلَف الدَّواب فأكَلَته وراثَتْهُ، وهذا التَّعبيرُ جاء على أسلوب «أدب القرآن»، على غـرار قولـه تعالى: ﴿ كَانَا يَأْكُلَـٰنِ الطَّعَامَ ﴾، قـال أبو حيّـان في تفسيره، (البحـر المحيط): في خطابـه تعالى لنبيـه ﷺ بقولـه: ﴿ فَعَلَ رَبُّـكَ ﴾، تشريفٌ له عليه السلام، وإشادةٌ بذكره، كأنـه قال: «ربُّك ومَعْبُودُك هو الذي فَعَل ذلك، لا أَصنامُ قريش، إِسَاف ونائلة وغيرهما».

وقـال القشيري في «لَطائِف الإشارات»، إشـارةً إلى دور عبدِ المطَّلب في هذه القصة، ودعائه على أبرهة الحبشي وَجَيْشِه دفاعاً عن البيت: «إذا كان عبدُ المُطَّلب عندمـا أخلص في التجائـه إلى الله، لاسْتدفاع البلاء عن البيت، لم يُخيّب الله رجاءه، وسَمع دعاءه، فالمومنُ المخلص إذا دعا ربه لا يَردُّهُ خائباً».

الثمن الثاني من الربع الأخير في الحزب الستين من المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا
رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾
وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن
صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾
وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ
اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا
ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ
وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾
وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّٰثَٰتِ
فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ

ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى
يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦

صدق الله العظيم

الثمن الثاني من الربع الأخير في الحزب الستين بالمصحف الكريم

عبـــاد الله

حديث هذا اليوم هو مِسْك الختام لأحاديثـنا التفسيـرية، وسنتناول فيه بحول الله وقوته «السور التسع» الباقية من الحزب الستين في المصحف الكريم، ابتداءً من سورة «قريش» وانتهاءً بسورة «الناس»، وكلُّها سُوَر مكية، ما عدا سورة «النصر».

أما سورة «قريش» وهي الأُولى في هذا الحديث، فرغماً عن كونها مستقلةً عن سورة «الفيل» التي قبلها، ومفصولةً عنها في «المصحف الإمام» هي في الحقيقة متعلقةٌ بها وتتمةٌ لها، كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمان بن زيد، فَمَعْنَى قوله تعـالى: ﴿ لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ﴾، عند ابن إسحـاق وابن زيـد: «حَبَسنا عن مكة الفيل، وأهلكنا أهله «لإيـلاف قريش»»، أي: لائتـلافهم واستمرار اجتمـاعهم في بلدهم آمنين، وكذلـك لما سيؤول إليه أمر مكة والكعبة، عنـدما يُبعَثُ إلى الخلق خـاتِمُ الأنبياء والمرسلين.

وقولُه تعالى: ﴿ إِيلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾، امتنـانٌ من الله على قريش بما أَفاضه عليهم من الرزق الواسـع، عن

طريق القوافل التجارية، التي كانت تسير في الشتاء إلى اليمن جنوباً، وفي الصيف إلى الشام شمالاً.

وقولُه تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾، دعوةٌ من الله لقريش أن يشكروا نعمتَه عليهم، وأن يُطَهِّروا بيتَه الحرام من الأَصنام والأوثان، إذ «البيت الحرام» بيتُ الله، ولا رَبَّ للبيت يستحقُّ العبادة سواه. قال القشيري: «ووجهُ المِنَّةِ في الإطعام والأمان هو أن يتفرَّغوا إلى عبادة الله، فإنَّ من لم يكن مَكفِيَّ الأمور لا يتفرغُ إلى الطاعة، ولا تساعدُه القوة ولا القلب إلاّ عند السلامة بكل وجه، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ ﴾ (البقرة: ١٥٥)، فقدم «الخَوْف» على جميع أنواع البلاء».

وتُواجهنا بعد ذلك سورة «المَاعُون»، وهذه السورة تكشِف النقاب عن سريرة المكذِّبين بالبعث والجَزاء، وأَن الدافع لهم إلى التكذيب بالنشأة الآخرة هو علمُهم بأنهم ليسوا على شيء، وخوفُهم من سوء العاقبة، لما هُم عليه من قَبْضٍ في اليد، وغَفْلةٍ في الفكر، وقَسْوةٍ في القلب، وريَاءٍ للناس، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى بعد البسملة: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾، أي: يُكذِّب بالمعاد والجَزاء، ﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾، أي: يظلمُه ويقهَره ولا يُحسِن إليه، ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾، أي: ساهون عن فعلها بالمرة، أو ساهون عن أدائها في الوقت المقرَّر لها شرعاً، أو ساهون عن الخشوع فيها والتدبُّر لمعانيها. قال ابن كثير: «فهذا

اللفظُ يشمَل ذلك كلَّه. ولكل من اتصفَ بشيء من ذلك قِسطٌ من الآية، ومَن اتصف بجميع ذلك فقد تم له نصيبُه منها، وكمُل له النفَاقُ العَمَلي، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «تلك صلاةُ المنافق، تلك صلاةُ المنافق، تلك صلاةُ المنافق»، الحديث.

وقولُه تعالى: ﴿ اَلذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾، أي: الذين يُراءُون الناس بأعمالهم وعباداتهم، ويفعلونها من أجل رُؤْيَة الناس، ﴿ وَيَمْنَعُونَ اَلْمَاعُونَ ﴾، أي: يمنعون بَذْل المعروف كما فسره محمد بن كعب. قال عكرمة: «رأسُ الماعون زكاة المال، وأدناه المُنْخُل والدَّلو والإبرة». وقال ابن كثير: «هذا الذي قاله عكرمة حسن، فإنه يشمل الأَقوال كلها، وترجع كلُّها إلى شيء واحد، هو أن المراد «بمنع الماعون» تَرْكُ المعاونة بمال أو منفعة».

والآن فلنقفْ وقفةً خاصة عند سورة «الكوثر»، والخطابُ الإلٓهي في هذه السورة الكريمة موجَّهٌ إلى الرسول عليه السلام، وهي تتضمن امتنان ربه عليه بما أعطاه من الخير الكثير في الدنيا والآخرة، كما تتضمن أمرَه بالِاستمرار على ما هو عليه من التوجه إلى الله في صلاته ونُسُكه في كل حين، وذلك قولُه تعالى بعد البسملة: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ اَلْكَوْثَرَ ﴾، قال ابن عباس: «الكَوْثَرُ هو الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه»، وقيل لسعيد بْنِ جُبَير: «إنَّ ناساً يزعمون أنه نَهرٌ في الجنة»، فقال سعيد: «النهرُ الذي في الجنّة من الخير الذي أعطاه الله إياه». ورُوي عن أَنَس وأبي العالية ومجاهد وغير واحد من السلف: «أن الكوثر نهر في الجنة».

وقولُه تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرِ ﴾، أي: أخلِصْ صلاتك لربك، وبذلك تخالفُ المشركين الذين يعبدُون غير الله، وأَخلِصْ نحرَك لربك، وبذلك تخالفُ المشركين الذين لا يذكرون على ذبائحهم اسمَ الله، على غِرار قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣)، قال ابن كثير: (والصحيح أن المراد «بالنحر» ذبح المناسك، ولهذا كان رسول الله ﷺ يُصلِّي العيد ثم يَنحَر نُسُكَه ويقول: «من صلى صلاتَنا ونَسَك نُسُكَنا فقد أصاب النُّسُك، ومن نَسَك قبل الصلاة فلا نُسُك له»).

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾، دفاعٌ من الله عن كرامة رسوله، فقد تهجم أبو لهب على مقام الرسول عليه السلام، وقال عنه إنه «قَدْ بُتِر» لوفاة ابنه الذَّكَر، وكان العرَبُ يقولون ذلك، لمَن مات أولاده الذكور، يريدون أنه إذا مات الابنُ الذكر أصبح أبوه «أبتر»، وانقطعَ ذكره، غيرَ أن «أبا لهب» الذي شَنَأ الرسولَ عليه السلام، ومِثْلُه كلُّ من حَمَلَ لِرَسُول الله ﷺ عَداوة أو بُغضاً، هو الذي بَتَرهُ الله من الوجود. وقد كتَبَ قلمُ القدرة اسم «محمد» وآله الطاهرين في سجلِّ الخلود، وها هو ذكره باقٍ على رؤوس الأشهاد، وحُبُّه يملأ في دُنيا الإسلام كلَّ فؤاد.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الكافرون» وهذه السورة عبارةٌ عن «بَرَاءة» من الشرك والمشركين، والكفر والكافرين، يُعلنها كلُّ مسلم في كل حين، بتصميم وعزم ويقين: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ

الرَّحِيمِ قُلْ يَـٰأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَاتَعْبُدُونَ وَلَا أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَا أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓئُونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس: ٤١)، قال القشيري: «والعبودية لله هي القيامُ بأمره على الوجه الذي به أُمر، وبالقَدْر الذي به أُمر، وفي الوقت الذي فيه أُمر».

والآن نستقبل سورة «النصر» المدنية، وهذه السورة بِشارةٌ من الله لرسوله بما سيناله الإسلام من الظهور والانتشار، في مختلِف الديار، وما سيقع من تسابُقٍ بين الأمم والشعوب على اعتناقه، وتَفانٍ في سبيل رفع رايته ومَدِّ رِوَاقه، وذلك قولُه تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾، أي: يُسلِمون جماعات جماعات، شعوباً وقبائل، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾.

قال ابن كثير: «والمراد (بالفَتْح) هُنَا فتحُ مكة قولاً واحداً، فإنَّ أَحْياء العرب كانت تتلَوَّمُ بإسلامها فتحَ مكة، يقولون: إن ظهر عَلى قومه فهو نبيٌّ. فلما فَتحَ الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تَمْضِ سنتان حتى استَوْسَقَتْ له جزيرةُ العرب إيماناً، ولم يَبقَ في سائر قبائلِ العَرَبِ إلَّا مُظهِرٌ للإسلام، ولله الحمد والمنة».

ومن المعاني التي فهمها ابن عباس من هذه السورة ووافقه

عليها عمرُ بْنُ الخطاب رضي الله عنهما أنها حينمَا نزلت نَعَتْ لرسول الله ﷺ نفسَه، فأخذ بأشدِّ ما كانَ قَطُّ اجتهاداً في أمر الآخرة. ويناسب هذا التأويل قولُه تعالى في ختام السورة: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «المَسَد»، وهذه السورةُ وعيد شديد من الله «لفرعون قريش» المكنَّى «بأبي لهب» لإشراق وجهه ووَضاءَته في البداية، ولتعذيبه «بلَهيب» النار في النهاية، واسمُه عبدُ العُزَّي، وقد كان كثيرَ الإذاية لرسول الله ﷺ والبُغضِ له ولدينه، والدعايةِ ضدَّهُ في الأسواق والمجتمعات يُلاحِقُه في كل مكان يحُلُّ به للدعوة إلى دين الله، وكان أحول العينين، ذا غَديرَتَيْن، ففي شأنه وشأن زوجته يقول الله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾، أي: خسِرَتْ يَدَاه، وضلَّ سعيُه وعمله، ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾، أي: ما أغنى عنه ذلك كلُّه شيئاً، ﴿ سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾، إشارةً إلى أنها كانت تحمل الشَّوك وتلقيه في طريق الرسول عليه السلام وصحبه الكرام، وإذا كانت في الدنيا عَوْناً لزوجها على كفره وعناده، فستكونُ في الآخرة عَوْناً عليه في عذابه، تحمِل الحطب وتُلقيه على زوجها في النار. ﴿ فِى جِيدِهَا ﴾، أي: في عنقها، ﴿ حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾، قال مجاهد: «أي في جيدها طَوْقٌ من حديد. وقال سعيد بن المسيب: «كانت لها قِلادة فاخرة، فقالت لأُنْفِقَنَّهَا في عَداوة محمد، فأعقبَها اللَّهُ منها حَبْلًا في جِيدِها من مَسَد النار» و«المَسَد» في الأصل لِيفٌ

يُتَّخَذ من جريد النخل ومن الجلد أو غيرهما «فيُمْسَدُ» أي يُفتَل.

وبعد الانتهاء من «سورة المَسَد» نتناول سورة «الإخلاص» مستعينين بالله، وهذه السورة الكريمة نزَلت رَدّاً على المشركين الذين قالُوا لرسول الله: «يا محمد انْسُبْ لنا رَبَّكَ»، فأنزل اللَّهُ تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اَللَّهُ أَحَدٌ ﴾، إلى آخر السورة. وقال عكرمة: «لما قالت اليهود نحن نعبُدُ عُزَيْر ابن الله، وقالت النصارى نحن نعبُدُ المسيحَ ابن الله، وقالت المجوس نحن نعبد الشمس والقمر، وقالت المشركون نحن نعبد الأوثان أنزل اللَّهُ على رسوله: ﴿ قُلْ هُوَ اَللَّهُ أَحَدٌ ﴾، يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له، ولا يُطلَق هذا اللفظ على أَحَد في الإثبات إلّا على الله عزّ وجلّ، لأنه المُنفَرِدُ بالكمال في جميع صفاته وأفعاله.

وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾، أي: السيدُ الذي يصْمُد إليه الخلائق في حوائجهم ورغباتهم ويَلجَأون إليه في الأزمات والشدَائد.

وقولُه تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾، نفيٌ لجميع المعتقدات الباطلة، التي شاعت بين أتباع الأديان الأخرى، الكتابية منها وغيرِ الكتابية، فليس لله والد، وليس له ولد.

وقولُه تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾، أي: ليس له من خلقه نظير يُساميه أو يدانيه، ولذلك تنزه جلَّ جلاله عن اتخاذ الزوجة، كما تنزه عن الوَلَد، على حدّ قوله تعالى: (٦: ١٠١): ﴿ بَدِيعُ السَّمَٰوَٰتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَٰحِبَةٌ

وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ١٠١).

قال القشيري: «يقال هذه السورة بعضُها تفسيرٌ لبعض: مَن هو الله؟ هُـو الله. مَن اللَّهُ؟ هو الأَحَدُ. مَنِ الأَحَد؟ هو الصَّمَدُ. مَنِ الصَّمَدُ؟ هُوَالذي لَمْ يَلِدْ ولم يُولَدْ. مَن الذِي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ؟ هو الذي لَمْ يكُنْ لهُ كُفُؤاً أحدٌ».

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الفَلَق» ويطلق عليها وعلى سورة «الناس» بعدَها اسم «المُعوِّذَتَيْن»، وهذه السورة والتي تليها كلاهُما توجيه من الله لرسوله والمومنين إلى الالتجاء لكَنَف الله، والاحتماء بِحماهُ، من كل أمر مَخُوف، ظاهرٍ أو خفيّ، معلومٍ أو مجهُول، وذلك قولهِ تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ ما خَلَقَ ﴾ ومعنى «الفلق» «فَلَقُ الصبح». وهذا المَعْنَـى هو الذي صوّبه ابن جرير في تفسيره، واختاره البخاري في صحيحه. وقال البعض: «إن معنى الفَلَق عمـومُ الخَلْق»، ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾، أي: الشمس إذا غَرَبَتْ، والليل إذا أقبلَ بظلامه، ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّـٰثَـٰتِ فِى الْعُقَدِ ﴾، أي: من شرّ النساء السَّوَاحـر، اللاتي يتعـاطين السحر، وينفُثن في العُقَـد، ويُوهِمْنَ إدخالَ الضرر على الغير بذلك، ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾، أي: إذا ركّز حقد نفسه الشريرة على ذات المحسود، وعلى النعم التي يتقلب فيها.

ونختمُ بسورة «الناس»، ومدارُ الحديث فيها الاستعاذةُ برب الناس من «شر الوسواس الخنّاس»، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَـٰهِ النَّاسِ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ﴾.

فها هنا توجيهٌ من الله للرسـول والمومنين إلى الاعتصـام بحبل الله، والالتجاء إليه، والاِحْتِمَاء بما لَه من صفات الربوبية والمُلْك والألوهية، تلك الصفات التي يتصرّف بها سبحانه في الكون، ويهيمِنُ بها على مقاليد السماوات والأرض، وإلى سؤاله سبحانه وتعالى أن يَعصِم المومنين من وسـاوس الشيطان، وأن يُعينهم على التخلص من كيده وإغرائه وإغوائه، قال ابن عباس: «الشيطان جاثِمٌ على قلب ابن آدم، فإذا سَهَا وغفل وَسْوَسَ. وإذا ذَكَـرَ اللَّهَ خَنَّسَ» و«إن الشيـطانَ يجـري من ابن آدم مَجْـرَى الدم»، كما ورد في الحديث الشريف.

وقولُه تعالى: ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾، تفسيرٌ للذي يوسوس في صدور الناس من شياطين الإنس والجن، على غرار قـوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّءٍ عَدُوّاً شَيَـٰطِينَ الِانسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ (الأنعام: ١١٢).

وهذه السورة الكريمة تبيّن لكل ذي عقل أن في إمكانه أن لا يَسقُط فريسة للشيطان وعُملَائه، وأن لا يكونَ مَغْلُوباً على أمره إزاء وساوسِه ومكايده، وذلك إذا التجأَ إلى ربـه ومَلكه وإلَهـه المسيطرِ على الخلق كلِّهِ، ولم يقطعْ صلتَه به في أيّ وقت من الأوقات، فمن ذَكَرَ الله واعتصمَ بحبله كان في نَجْوَةٍ من كل شر،

وكان في مأْمَن من كل وسواس، لأنه في حماية رب الناس، ملك الناس إلّه الناس.

صدق الله العظيم

* * *

والآن وقد أكرمنا الله جميعاً بختم القرآن، فَلْنَتَوجه إلى الله ضارعين خاشعين، سائلين مِنْهُ سبحانه أن يختم لنا بالخاتمة الحسنى، وأن يُصلح الأمة المحمدية، ويجعل كتابه شفاءً لأدوائها، ورحمةً لأبنائها، وأن يَهدِيَها سواء السبيل، ويُعيد لها مَجْدَها الأثيل، ويَجمَع آراء قَادَتِها وكلمتَهم على الحق والصدق، ويملأ قلوبهم بالمحبة والرفق، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولأشياخنا ولجميع المسلمين.

اللهمّ اجعل القرآن لنا ولكافة المسلمين في الدنيا قريناً، وفي القبر مؤنساً، وعلى الصراط نوراً، وفي الجنة رفيقاً، ومن النار سِتْراً وحِجاباً، وإلى الخيرات كلِّها دليلاً، وصلّى الله على سيدنا محمد خير خلقه وخاتم أنبيائه، وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

الفهـــرس

تفسير الحزب الواحد والخمسين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الواحد والخمسين ٥
(وفيه بداية سورة الأحقاف)
الربع الثاني من الحزب الواحد والخمسين ١٦
(وفيه نهاية سورة الأحقاف وبداية سورة محمد)
الربع الثالث من الحزب الواحد والخمسين ٢٦
الربع الأخير من الحزب الواحد والخمسين ٣٥
(وفيه نهاية سورة محمد وبداية سورة الفتح)

تفسير الحزب الثاني والخمسين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الثاني والخمسين ٤٦
(وفيه نهاية سورة الفتح)
الربع الثاني من الحزب الثاني والخمسين ٥٧
(وفيه بداية سورة الحجرات)
الربع الثالث من الحزب الثاني والخمسين ٦٦
(وفيه نهاية سورة الحجرات وبداية سورة ق)
الربع الأخير من الحزب الثاني والخمسين ٧٧
(وفيه نهاية سورة ق وبداية سورة الذاريات)

تفسير الحزب الثالث والخمسين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الثالث والخمسين ٨٧
(وفيه نهاية سورة الذاريات وبداية سورة الطور)
الربع الثاني من الحزب الثالث والخمسين.............. ٩٨
(وفيه نهاية سورة الطور وبداية سورة النجم)
الربع الثالث من الحزب الثالث والخمسين ١١٠
(وفيه نهاية سورة النجم وبداية سورة القمر)
الربع الأخير من الحزب الثالث والخمسين ١٢٤
(وفيه نهاية سورة القمر)

تفسير الحزب الرابع والخمسين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الرابع والخمسين ١٣٣
(وفيه نهاية سورة الرحمان)
الربع الثاني من الحزب الرابع والخمسين ١٤٣
(وفيه بداية سورة الواقعة)
الربع الثالث من الحزب الرابع والخمسين.............. ١٥٤
(وفيه نهاية سورة الواقعة وبداية سورة الحديد)
الربع الأخير من الحزب الرابع والخمسين.............. ١٦٥
(وفيه نهاية سورة الحديد)

تفسير الحزب الخامس والخمسين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الخامس والخمسين.............. ١٧٨
(وفيه بداية سورة المجادلة)
الربع الثاني من الحزب الخامس والخمسين ١٩٠
(وفيه نهاية سورة المجادلة وبداية سورة الحشر)
الربع الثالث من الحزب الخامس والخمسين ٢٠٤
(وفيه نهاية سورة الحشر وبداية سورة الممتحنة)

الربع الأخير من الحزب الخامس والخمسين ٢١٣
(وفيه نهاية سورة الممتحنة ونهاية سورة الصف)

تفسير الحزب السادس والخمسين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب السادس والخمسين ٢٢٦
(وفيه نهاية سورة الجمعة وبداية سورة المنافقين)
الربع الثاني من الحزب السادس والخمسين ٢٣٨
(وفيه نهاية سورة المنافقين ونهاية سورة التغابن)
الربع الثالث من الحزب السادس والخمسين ٢٤٩
(وفيه نهاية سورة الطلاق)
الربع الأخير من الحزب السادس والخمسين ٢٥٩
(وفيه نهاية سورة التحريم)

تفسير الحزب السابع والخمسين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب السابع والخمسين ٢٧٠
(وفيه نهاية سورة الملك وبداية سورة القلم)
الربع الثاني من الحزب السابع والخمسين ٢٨٢
(وفيه نهاية سورة القلم وبداية سورة الحاقة)
الربع الثالث من الحزب السابع والخمسين ٢٩٤
(وفيه نهاية سورة الحاقة وبداية سورة المعارج)
الربع الأخير من الحزب السابع والخمسين ٣٠٦
(وفيه نهاية سورة المعارج ونهاية سورة نوح)

تفسير الحزب الثامن والخمسين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الثامن والخمسين ٣١٦
(وفيه نهاية سورة الجن وبداية سورة المزمل)
الربع الثاني من الحزب الثامن والخمسين ٣٢٨
(وفيه نهاية سورة المزمل ونهاية سورة المدثر)

الربع الثالث من الحزب الثامن والخمسين ٣٣٩
(وفيه نهاية سورة القيامة وبداية سورة الإنسان)

الربع الأخير من الحزب الثامن والخمسين ٣٥٠
(وفيه نهاية سورة الإنسان ونهاية سورة المرسلات)

تفسير الحزب التاسع والخمسين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب التاسع والخمسين ٣٦٣
(وفيه نهاية سورة النبأ وبداية سورة النازعات)

الربع الثاني من الحزب التاسع والخمسين ٣٧٥
(وفيه نهاية سورة النازعات ونهاية سورة عبس ونهاية سورة التكوير)

الربع الثالث من الحزب التاسع والخمسين ٣٨٧
(وفيه نهاية سورة الانفطار ونهاية سورة المطففين وبداية سورة الانشقاق)

الربع الأخير من الحزب التاسع والخمسين ٣٩٨
(وفيه نهاية سورة الانشقاق ونهاية سورة البروج ونهاية سورة الطارق)

تفسير الحزب الستين من المصحف الكريم

الربع الأول من الحزب الستين ٤٠٩
(وفيه نهاية سورة الأعلى ونهاية سورة الغاشية ونهاية سورة الفجر)

الربع الثاني من الحزب الستين ٤٢٣
(وفيه نهاية سورة البلد ونهاية سورة الشمس ونهاية سورة الليل ونهاية سورة الضحى)

الثمن الأول من الربع الثالث من الحزب الستين ٤٣٦
(وفيه نهاية سورة الشرح ونهاية سورة التين ونهاية سورة العلق ونهاية سورة القدر)

الثمن الثاني من الربع الثالث من الحزب الستين ٤٤٩
(وفيه نهاية سورة البينة ونهاية سورة الزلزلة وبداية سورة العاديات)

الثمن الأول من الربع الأخير من الحزب الستين ٤٥٨
(وفيه نهاية سورة العاديات ونهاية سورة القارعة ونهاية سورة التكاثر ونهاية سورة العصر ونهاية سورة الهمزة ونهاية سورة الفيل)
الثمن الثاني من الربع الأخير من الحزب الستين. ٤٦٨
(وفيه نهاية سورة قريش ونهاية سورة الماعون ونهاية سورة الكوثر ونهاية سورة الكافرون ونهاية سورة النصر ونهاية سورة المسد ونهاية سورة الإخلاص ونهاية سورة الفلق ونهاية سورة الناس)

دار الغرب الإسلامي
لصاحبها : الحبيب اللمسي
شارع الصوراتي (المعماري) ــ الحمراء ــ بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 ــ ص.ب. 5787-113 بيروت ــ لبنان

رقم الإيداع القانوني
٤٢٧ - ١٩٨٣
الرباط

الرقم 85/8/3000/49

التنضيد : كومبيو تايب للصف الطباعي الالكتروني

الطباعة: مؤسسة جواد ــ بيروت